
الأقدام العارية
الشيوعيون المصريون
٥ سنوات في معسكرات التعذيب
طاهر عبد الحكيم
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل
دار ابن خلدون

الاقدام العارية

الشيوعيون المصريون :

٥ سنوات في السجون ومعسكرات التعذيب

طاهر عبد الحكيم

الإهداء

الى موكب الشهداء الذين سقطوا في النضال من اجل الديموقراطية للطبقة العاملة وللجماهير الشعبية في مصر :

الى ذكرى :

محمد عثمان
فريد حداد
رشدي خليل
شعبان حافظ
لويس اسحق
وكل من سار تحت رايتهم .

مقدمة

قصة هذا الكتاب !

قبل الدخول اليه لا بد من جواب عن سؤالين :
كيف كتب ؟
ولماذا تأخر صدوره اثني عشر عاما بعد كتابته ؟

* * *

كان الكاتب عضوا في اللجنة الحزبية القيادية لعنبر المعتقلين الشيوعيين الذين تم ترحيلهم من معسكر التعذيب في سجن « اوردي ابو زعبل » الى سجن الواحات الخارجة ، وكانت المسئولية المكلف بها هي توجيه الدعاية خارج اسوار السجن الى الراي العام المحلي والعربي والعالمي لشرح الاوضاع القاسية التي كان يعيشها المعتقلون السياسيون في السجون والمعتقلات المصرية ، ولتعبئة أقصى دعم ممكن من الراي العام لنضال هؤلاء المعتقلين ضد الموت الجسدي والمعنوي الذي كان مفروضا عليهم .

كانت مادة هذه الدعاية الموجهة للخارج تتنوع .. كانت هناك احيانا رسائل وتقارير تشرح الظروف العامة في السجن ، واحيانا كانت هذه الرسائل والتقارير تتناول جوانب المعاناة داخل السجن كلا على حدة : سوء التغذية .. الحرمان من الرعاية الصحية وافتقار الادوية .. حوادث التعذيب الفردي او الجماعي .. الضغوط من اجل التصفية السياسية .. سوء معاملة اهالي المعتقلين والسجناء في الخارج .. كما كانت تتناول موقف السجناء والمعتقلين من بعض التطورات السياسية او بعض التصريحات الرسمية ، وخاصة ما يتعلق منها بقضية المعتقلين السياسيين الخ .. بل كانت هناك رسائل وتقارير تسجل موقف بعض رجال الثقافة والفكر

المعتقلين من بعض القضايا الثقافيـة المطروحة للنقاش في الخارج .

كانت هناك بيانات ونداءات حزبية .. وكانت هناك نداءات وبيانات من الفئات المختلفـة من المعتقليـن والسجناء كل فئة على حدة .. العمال .. الفلاحون .. الطلاب .. المدرسـون .. الصحفيـون .. الاطبـاء .. المهندسون .. المحامون .. اعضاء مجلس السلام القومـي .. وكانت تلك النداءات والبيانات توجه اما الى النقابات والهيئات المحلية والعالمية ، واما الى الصحف ، او الى الشخصيات وزملاء المهنـة في الخارج ، او الى لجنة حقوق الانســان ومنظمة العفو الدولي .

كان توجيه مثل هذه الدعاية يتطلب التدقيق في كل واقعة والسعي للالمام بكل مـا يتعلق بها ، كانت مسئولية تتطلب الاستماع بكل انتباه لكـل روايـة تروى .. وقائع وانطباعات وانفعالات .. ثم الاستماع اليها مـرة ثانيـة وثالثة .. ثم الاستماع اليها مـن اخرين عايشوها .. كانت تتطلب تكليف بعض الرفاق بأن يملوا او يكتبوا هم شخصيا ما تعرضوا له خاصة اذا كان ما عانوه شيئا لا يمس الجسد وحسب ، بـل ويمتد الى وجدانهـم وضميرهـم ..

والكتابة في السجن او المعتقل ،حيث كانت حيازة قلم او ورقـة جريمـة الجرائم في نظر ادارة السجن او المعتقل .. الكتابة في السجن لم تكـن عمـلا سهـلا ..

وتكفي هذه الصورة لتبين كم كانت الكتابة عملية معقدة وشاقة .. في حوالي الخامسـة مساء كـان يجري « التمام » على المعتقلين والسجناء ، بمعنى عدهم واحدا واحدا في الزنازين ، ثم اغلاقها عليهم ، ثم اغلاق بـاب العنبر ، وفيمـا بيـن السادسة مساء ، حيث تكون عمليـة « التمام » قد انتهت ، والساعة السابعـة والنصف يتناول المعتقلـون وجبة العشاء التي استلموهـا قبيل « التمام » . وبعـد قليل يخـرج الشاي والسكر مـن المخابيء ، ويعد الشاي على « التوتو » وهو موقد بدائي من ابتكار السجناء والمعتقليـن الشيوعيين يعمل بالزيت الذي يمكن استخلاصه من اوعيـة الطعام ،وفيما بعد كان يعمل بالمازوت الذي يشترى خلسة من فرن السجن، ومفروض ان اشعـال « التوتو » واعداد الشاي عملية تتم في سرية .

في الساعة الثامنة مفروض ان يطفأ النور في كـل العنبـر بواسطة الحراس من خارج الزنازين . ولكن بعضنا ممن له خبرة في الكهرباء كـان

يتحايل على الاسلاك بحيث يبقى في وسعنا اضاءة الزنزانة بارادتنا من الداخل ، وفي بعض الاحيان كان ذلك يتم بواسطة لمبة كهربية صغيرة مخبأة لهذا الغرض . على اي الاحوال كان يجب تعليق البطاطين على نافذة الزنزانة الضيقة والعالية ، وعلى باب الزنزانة بحجة الحماية من البرد ، على ان يتولى ثلاثة من سكان الزنزانة مهمة الحراسة :

واحد يراقب الممر الرئيسي للعنبر من الباب حتى لا يتلصص علينا احد الحراس ، والاثنان الاخران واحد منهما يعتلي كتف الاخر من حين لاخر ليلقي نظرة على الفناء الخارجي .. فكثيرا ما كان بعض ضباط السجن ،وهم يعملون في نفس الوقت لحساب ادارة المباحث العامة يتسلقون سلما متحركا لمراقبة الزنازين من نوافذها .. واحيانا كانوا يقومون بفتح العنبر والزنازين ليلا للقيام بتفتيش مفاجيء . ولدى اي حركة مفاجئة كان كل شيء يخفى تحت الثياب ، ويتظاهر الجميع بالنوم . وكان« التعامل الودي » مع الحراس ينقذنا مرات كثيرة عندما يتم تفتيش مفاجيء من هذا النوع اما في شكل تحذير مبكر من جانب الحراس ، واما في شكل التغاضي عما تتحسسه يد الحارس من محظورات تحت الثياب وهو يفتش الواحد منا .

بعد العشاء والشاي كان القلم والورقة يخرجان من مخابيء خاصة، ثم يقلب « جردل » الماء في ركن من الزنزانة ليستخدم منضدة ، وتجري عملية الكتابة ، التي كانت كثيرا ما تتقطع بسبب التحذيرات من اقتراب الحرس ، او لوجود تحرك مريب في الفناء الخارجي حول العنبر .. كانت كلمة التحذير المتداولة في كل السجون والمعتقلات تقريبا هي كلمة « بلوهم » ، وحينما كان التحذير يعني ان هناك خطر مداهمة حقيقية فكانت عبارة « شد البلوهم » هي التي تستخدم .

كان ذلك في المرحلة التي كان الارهاب والمعاملة التعسفية لا يزالان هما الطابع العام للوضع داخل سجن الواحات الخارجة ، اما فيما بعد الاضراب الكبير عن الطعام في يوليو (تموز) ١٩٦١ ، فقد تمكنا من انتزاع كثير من الحقوق ، وتحطيم كثير من القيود منها بقاء ابواب الزنازين مفتوحة طوال الليل وبقاء الاضاءة حتى الصباح .

ولم تكن مشكلة الكتابة حينذاك هي الحذر من تجسس ادارة السجن، ولكنها كانت الرفاق انفسهم ، فلئن كانوا فيما سبق يتحملون السهر ،

والحراسة ، والترقب ، لتسهيل انجاز مهمة حزبية ، فانهم الان يريدون ان يناموا ملء اجفانهم طالما هناك مكان اخر يمكن الكتابة فيه دون ازعاج احد .. وكان هذا المكان الاخر هو « دورة المياه » ،في دهليز صغير امام الحمامات والمراحيض ..

* * *

ان مجموعة التقارير والرسائل والبيانات والنداءات الموجهة الى الخارج هي التي اوحت بفكرة وضع هذا الكتاب . كان المقصود اصلا هو تسجيل كل شيء في كتيب واحد يضم مادة وافية لاية حملة سياسية للدفاع عن السجناء والمعتقلين السياسيين ،ويوضع هذا الكتيب في يد رفاقنا في الخارج وفي يد اية قوى ديموقراطية صديقة في العالم .

ولكن لان المرء كان قد عاش التجربة بكل ابعادها : حوالي خمسة شهور هروبا من رجال المباحث العامة وملاحقاتهم الهستيرية في الريف والمدينة .. في العاصمة وفي اقصى الصعيد ، وفي الدلتا .. وبعد ذلك معتقل القلعة ، والفيوم ، ومعسكر التعذيب في « اوردى ابو زعبل » ثم سجن الواحات الخارجة ، فان كل الابعاد السياسية والفكرية والتاريخية والنفسية لهذه الفترة كانت تلح بقوة .. وبدلا من كتيب يسجل الوقائع، كان هذا الكتاب .. الجانب الاكبر منه كتب في مرحلة الارهاب ،والجانب الاخير كتب في مرحلة الانفراج النسبي ..

كانت هناك مجموعة من الرفاق الشباب يتلقفون كل فصل تتم كتابته ليتولوا اعادة كتابته على ورق لف السجائر بخط دقيق للغاية .. نسختان معدتان لتهربا الى خارج السجن ، ونسختان للاحتفاظ بهما في« الارشيف المركزي» داخل السجن ،والذي اعدت له مخابىء مأمونة للغاية .. وحينما سطرت اخر كلمات في الكتاب ، تولت مجموعة اخرى نسخه واعداده ، وتولى احد الرفاق الفنانين رسم الغلاف له . ووضع للتداول بين الرفاق كجزء من عملية التعبئة والتحصين ضد محاولات التصفية السياسية.. ثم هربت هذه النسخة الى خارج السجن ، وبقيت مدفونة في مخبأ امين حتى تم الافراج عنا فيمايو (ايار) ١٩٦٤ ..

هذه النسخة الخطية محفوظة الان بعناية كوثيقة تاريخية ، وهي التي تم على اساسها طبع هذا الكتاب .

* * *

اما لماذا تاخر صدور هذا الكتاب اثني عشر عاما بعد كتابته فتلك

قصــة معقدة ..

ففي اغسطس (اب) ١٩٦٥ اتخذت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري قرارا بحل الحزب ، وكانت قد بدأت تمهد لهذا القرار بالترويج لما اسمته ضرورة « وحدة القوى الاشتراكية » وكان المفهوم من ذلك هو وحدة الشيوعيين مع « اشتراكيي الاتحاد الاشتراكي العربي » ، ثم دعت الــى اجتماع موسع من الكوادر القيادية في الحزب للتصديق على هذا القرار . البعض حضر ذلك الاجتمــاع ووافق على قرار اللجنــة المركزية ؛ والبعض حضر وسجل للتاريخ اعتراضهعلى ذلك القرار ،ثم انصرف الى منزله مرتاح الضمير ، والبعض رفض حضور الاجتماع مفضلا عدم الافصاح عن موقفه، وهناك قلــة لا تتجاوز اصابع اليد الواحدة رفضوا حضور الاجتماع مبلغين اللجنــة المركزية !نهــا بقرارهــا ذاك تكــون قد نفت عــن نفسها صفـــة الشيوعية ، ولم يعد من حقها الدعوة لاي اجتماع حزبي ، وان ذلك الاجتماع الموسع الذي دعت اليه هو اجتماع معاد لشعبنا وللطبقة العاملة وللوطــن ، وان حل الحزب جريمة لن يغفرهــا لهم التاريخ خاصة حينمــا تأتي لحظات حرجة يتطلع فيهــا شعبنــا بحثــا عن قيادة ثوريــة فلا يجدها ــ كمــا حدث في ٩ ، ١٠ يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ــ .

وكان الكاتب واحدا من هذه القلــة .. ولقد كان ثمن ذلك الموقف باهظــا فيمــا بعــد ..

ولكن من حسن الحظ ان الكاتب استطاع ان ينتزع المخطوط الاصلي للكتاب من ايدي اللجنــة المركزية قبل ان تتخذ قرارها المدان ، والا لكــان مصير الكتاب مثل مصير الحزب .. وبعد قرار حل الحزب بقي الكتــاب بلا هيئة سياسية لتبناه ، وتقرر شيئا بصدده ، وظل ذلك مسئولية الكاتب وحــده ..

لم يكن من الممكــن نشر الكتاب في مصر ، فكل دور النشر اما حكومية او تحت اشراف حكومي .. وكان نشر الكتاب خارج مصر مخاطرة كبيرة ، ليس من زاويــة النتائج التي يمكــن ان تترتب على ذلك ، والموقف الذي يمكــن ان تتخذه السلطات من الكاتب ، ولكــن من زاويــة ان الذين كان مفروضــا ان يقفوا الى جانب الكتاب للدفاع عــن الكاتب في اية محاكمة له في مصر ، كان من المحتمل جدا ان يقفوا ضده الى جانب السلطة تمشيا مع منطق نظريتهــم عن الوحدة مع القوى الاشتراكيــة .

وكان قرار الكاتب هو الاحتفاظ بالكتاب للتاريخ ، والاكتفاء بتداوله سرا بين اولئك الذين يبدون رغبة في الاطلاع على ما حدث في تلك الفترة ما بين يناير (كانون اول) ١٩٥٩ ومايو (ايار) ١٩٦٤ .

ثم جاء عدوان ١٩٦٧ وما تلاه ليلقي على القوى الوطنية الديموقراطية الفتية في مصر مهام اخرى لم يكن من بينها على اي حال محاكمة النظام على ما اصاب الشيوعيين والديموقراطيين على يديه في تلك الفترة ..

* * *

ولقد امكن للمخطوط الاصلي ان يخرج من مصر منذ اكثر من ثلاث سنوات ، وقرأه عديدون ، وبعد فراغهم من قراءته كان اول ما ينصحون به هو سرعة نشره ، بل والح البعض على ان يأذن لهم الكاتب بعمل بعض نسخ من الكتاب لتداوله بين اعداد اكبر ..

ولكن كانت للكاتب وجهة نظر اخرى .. فلقد كان يشم في اتجاه الحركة السياسية الرسمية في مصر رائحة حملة تعد ضد عبدالناصر وعهده ، تبريرا لعملية ارتداد واسعة عن كل ما انجز في فترة حكمه .. ولم يكن يريد لهذا الكتاب ان يستخدم وقودا لتلك الحملة المغرضة . وفي مطلع عام ١٩٧٤ بلغت الحملة ضد عبد الناصر وعهده اولى قممها .. وكان من بين القضايا التي تناولتها تلك الحملة عمليات التعذيب التي مورست في السجون والمعتقلات .. وبدا بعض الكتاب اليمينيين ، والمعروفين بتاريخهم في التعاون مع اكثر الفئات تخلفا ورجعية في بلادنا ، بدا هؤلاء الكتاب يسرقون تاريخ الشيوعيين ، وينصبون انفسهم مؤرخين لما اصاب الشيوعيين من اضطهاد وتنكيل ..

كذلك فان بعض الكتاب الوطنيين قد بدا يتناولون ما اصاب الشيوعيين في تلك الفترة دون ان يكون لديهم المام كامل بحقيقة ما حدث سوى بعض ما سمعوه .

وعند هذه النقطة كان القرار بانه لا بد من ان يصدر هذا الكتاب ..

اولا : حتى لا يتصدى اليمينيون لنضال الشيوعيين والتقدميين المصريين في السجون والمعتقلات ويقدمونه شائها مبتورا .. او يبتذلونه في اقاصيص وروايات هدفها الاثارة الرخيصة وحسب ..

ثانيا : حتي يوضع ادعياء الليبرالية الزائفة على المحك الحقيقي ،

ولنرى ان كانوا سيطالبون بتقديم من لا يزال حيا من المسئولين عن الجرائم التي ارتكبت ضد الشيوعيين والتقدميين ـ وبينها جرائم قتل مباشر متعمد ـ الى المحاكمة .. واذا كانوا سيطالبون بتعويض ابناء من استشهدوا ، ومن اضير بسبب مختلف انواع التعذيب .. واخيراء وفوق كل شيء ان كانوا سيطالبون للطبقة العاملة وطلائعها بحرية العمل السياسي والنقابي **المستقل** عن حزب الحكومة ، خاصة وانها وحدها رفعت راية الديموقراطية بثبات منذ حركة ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ .

ثالثا : حتى يوضع الخلاف بيننا وبين نظام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في وضعه الصحيح ، وحتى **يتميز موقف القوى الوطنية** الديموقراطية المصرية في نقدها **النظام الناصري عن تلك الحملة المشبوهة التي يواصل اليمين شنها عليه باكثر من اسلوب .. وحتى يكون نقدنا اداة نضال ضد اليمين الزاحف** الذي رغم كل عوائه عن الديموقراطية فانه يضمر اشد العداء لها ، ويحتفظ في جعبته ـ يوم يتمكن من السيطرة النهائية ـ بأقسى اساليب البطش والقمع .

* * *

لقد كان بيننا وبين النظام الناصري دم شهداء عديدين سقطوا تحت التعذيب ، ومرارة خمس سنوات من السجن والاعتقال والتعذيب والحرمان من اقل الحقوق الانسانية ، وفوق ذلك كان بيننا وبين هذا النظام ما اصاب شعبنا واصابه النضال الوطني الديموقراطي العربي كله من تكسات طوال تلك السنوات الخمس التي ساد فيها العداء للشيوعية وللديموقراطية .. ومع ذلك فان القوى الوطنية الديموقراطية في مصر هي الاقدر على ان تقدم **شهادة حق** عند تقييم نظام الرئيس عبد الناصر ، وهي الاقدر على ان تثمن ما تم انجازه في عهد ذلك النظام من نواحي التقدم اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، وهي الاكثر تصميما على الدفاع عن تلك المنجزات مع التمسك بكل انتقاداتها لما فيها من سلبيات .. وهي وحدها التي تمزق القناع عن تلك الحملة اليمينية ضد عهد الرئيس عبد الناصر باسم الديموقراطية ، وان تفضح الجوهر لهذه الحملة التي يراد بها تغطية عملية الارتداد الشاملة الى اوضاع ربما ستكون اسوأ من اوضاع مصر ما قبل ١٩٥٢ ، وكشف حقيقة ادعياء الليبرالية الزائفة الذين يطالبون في الواقع بالحرية لكل قوى الاستغلال ، ولكل القوى الراغبة في المتاجرة بالاستقلال الوطني مع الامبريالية الامريكية والرجعية العربية .

كانت حركة يوليو (تموز) ١٩٥٢ حلقة من حلقات الثورة الوطنية الديموقراطية في مصر ، تلك الثورة التي بدأت بانتفاضة احمد عرابي ، والتي فشلت نظرا لان البرجوازية المصرية التي كانت تلك الانتفاضة تعبيرا عن افكارها كانت برجوازية ضعيفة قاعدتها الاساسية هي التجار .

وحين اشتد ساعد البرجوازية المصرية بعد الحرب العالمية الاولى ، استطاعت ان تشكل طليعتها السياسية وهي حزب « الوفد المصري » وان تبدأ حلقة ثانية من الثورة الوطنية الديموقراطية عام ١٩١٩ ، وهي حلقة استطاعت ان تحقق استقلالا سياسيا ينتقص منه وجود لقوات الاحتلال البريطاني وامتيازات سياسية واقتصادية لبريطانيا ، ولكن البرجوازية المصرية حصلت لنفسها على نصيب في السلطة يسمح لها برعاية مصالحها الخاصة ، كما حققت نظاما نيابيا برجوازيا كانت تتهدده دائما السلطات غير العادية التي اقرها دستور ١٩٢٣ للملك ومن بينها حق اقالة الوزارة وتشكيل غيرها ، وحق حل البرلمان ، وعدم سريان اي قانون يصدره البرلمان الا اذا صدق عليه الملك .

كان الاحتلال البريطاني ، وما يستتبعه من امتيازات سياسية واقتصادية لبريطانيا من ناحية ، والسلطات الاستثنائية التي يتمتع بها بقايا الاقطاع ممثلا في الملك والتي تجعل الملك فوق الدستور ، قيدا قويا على طموح البرجوازية المصرية وتطلعها لاعادة تشكيل المجتمع وفق مصالحها . ولذلك تميزت الفترة منذ صدور الدستور عام ١٩٢٣ ، حتى حركة يوليو ١٩٥٢ بنضال ليبرالي برجوازي ، تقوده البرجوازية الوطنية المصرية ، وتسعى عن طريق رفع شعارات الحريات الى تجميع اوسع قوى ممكنة حولها ، الطبقة العاملة ، والفلاحين ، والمثقفين في صراعها ضد النفوذ البريطاني وضد الاستبداد الاقطاعي ممثلا بالملك .

ومع نضوج الطبقة العاملة المصرية في الاربعينات بدات رؤيتها الاقتصادية والسياسية تكسب قبولا متزايدا لدى اقسام واسعة من القوى الديموقراطية ، وبظهور الحركة الشيوعية المصرية من جديد ، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وبتزايد الدور الذي لعبته الطبقة العاملة المصرية في النضال ضد الاستعمار البريطاني وضد الاستبداد السياسي الذي كانت تمارسه السراي ومن حولها كبار الملاك والفئات العليا من البرجوازية المصرية ، تعمق اكثر واكثر المضمون الديموقراطي لتلك المرحلة من الثورة الوطنية الديموقراطية . وقد ساعد على ذلك الدور المجيد الذي قام به

الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية ضد النازي ، وبروز معسكر اشتراكي واسع ، والمركز الممتاز الذي حققته الطبقات العاملة واحزابها الشيوعية في اوروبا الغربية بفضل نضالها الصلب ضد الاحتلال النازي.

كانت الظروف ناضجة من الناحية الموضوعية لقفزة نوعية في مسار الثورة الوطنية الديموقراطية في مصر على يد جبهة وطنية ديموقراطية واسعة تقود النضال على جبهات ثلاثة هي في الواقع جبهة واحدة ، ضد الاستعمار البريطاني وقوات الاحتلال ، وضد بقايا الاقطاع والاستبداد السياسي ، وضد الفئات العليا من البرجوازية المصرية والاستثمارات الاجنبية التي تشكل كلها حلفا واحدا .

وكان لا بد من برنامج ثوري لحل المشكلة الزراعية فذلك وحده هو الذي يجذب ملايين الفلاحين (وهم الجيش الرئيسي للثورة) للنضال ، وهو وحده القادر على جذب الفلاحين الى حلف قوي مع الطبقة العاملة يستطيع ان يشكل القيادة لتلك المرحلة . او على الاقل ان يشارك بقوة في قيادة تلك المرحلة وتحديد اهدافها . .

ولكن لاسباب متعددة ليس هنا مجال مناقشتها تفصيلا ، لم تستطع الطبقة العاملة ممثلة في الحركة الشيوعية المصرية ان تقدم مثل هذا البرنامج الفلاحي ، وبذلك ظلت الحركة الشيوعية بعيدة عن الريف . وظلت جماهير الفلاحين تحت السيطرة الفكرية والسياسية للبرجوازية الوطنية ولاغنياء الريف ، وهكذا لم يتشكل **الحلف العمالي – الفلاحي** الذي بدونه لا يمكن للطبقة العاملة ان تثبت مواقعها في قيادة الثورة الوطنية الديموقراطية ، ولا يمكن حماية الثورة من تردد البرجوازية الوطنية ونزوعها الدائم للمساومة وانصاف الحلول .

كذلك ادى الانقسام المريع في الحركة الشيوعية المصرية الى تشتت قوة الطبقة العاملة والمثقفين الديموقراطيين ، وعدم قدرتهم على البروز كقوة موحدة حتى في اطار النضال الليبرالي البرجوازي . ومن الناحية الثانية كان حزب الوفد – كقيادة للبرجوازية الوطنية – مثقلا بعناصر اقطاعية تحتل مراكز قيادية فيه (وكثير من عناصر البرجوازية الوطنية المصرية هي من اصل ريفي شاركت بمدخراتها من ريع الارض في المشاريع الاقتصادية ومن ثم جمعت بين طبيعتها الاقطاعية وصفتها الجديدة كعناصر رأسمالية) ، وقد لعبت هذه العناصر دورا كبيرا في طبع سياسات الحزب ومواقفه بالتردد والتخاذل (كما حدث بعد حريق القاهرة في ٢٦ يناير

١٩٥٢ حينما اعلنت حكومة الحزب الاحكام العرفية بطلب من الملك ، ثم اقالها الملك في اليوم التالي وبقيت الاحكام العرفية ليستخدمها في ضرب الحركة الجماهيرية) . كذلك لم يكن متوقعا من حزب البرجوازية الوطنية بما فيه من نفوذ لعناصر بقايا الاقطاع ، والملاك الكبار واغنياء الريف (الاعيان) وبما فيه من نفوذ لعناصر رأسمالية كبيرة ، ان يطرح في عصر الاشتراكية برامج تمس قدسية الملكية الخاصة ، ولذلك بقيت شعاراته في اطار جلاء القوات البريطانية وسيادة الدستور .

كانت الثورة الوطنية الديموقراطية في ازمة حقيقية بسبب قصور الطبقة العاملة وقياداتها الشيوعية المنقسمة عن القيام بدور القيادة ، وبسبب عجز حزب البرجوازية الوطنية (الوفد) عن قيادة النضال الوطني الديمقراطي بشكل اكثر ثباتا وصلابة . في نفس الوقت كان النظام الملكي المستند الى احزاب الاقلية التي تمثل بقايا الاقطاع وخاصة في الصعيد (الاحرار الدستوريين) أو تمثل الفئات العليا من البرجوازية الصناعية ذات الارتباطات القوية بالاحتكارية العالمية (السعديين) واتجاهات سياسية تمثلها شخصيات مثل اسماعيل صدقي وعلي ماهر وغيرهما ، كان هذا النظام متفسخا وعاجزا عن ان يواجه الحركة الجماهيرية المتفجرة كما ان الحكومات العديدة التي توالت في مدى ستة اشهر من حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ الى حركة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كانت اضعف من ان تواجه القضايا الوطنية والاجتماعية المتفجرة رغم انها كانت تتسلح بالاحكام العرفية وبالمعتقلات التي ضمت اعدادا غفيرة من القيادات الشيوعية والنقابية والديموقراطية .

وجاءت حركة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتخرج الثورة الوطنية الديموقراطية من ازمتها وتمضي بها خطوة الى الامام ولكن في اطار البرجوازية الوطنية ، ومن هنا كانت الازمة الاخرى التي عاشتها تلك الفترة من الثورة الوطنية الديموقراطية التي قادها عبد الناصر : حيث كل الظروف الموضوعية تتطلب وتضغط من اجل ان تستمر هذه الثورة حتى تكمل انجاز مهامها ، ولكن عبد الناصر اصر على ان تبقى الثورة مدى عشرين عاما في طار مفهوم فئة معينة من البرجوازية الوطنية (التكنوقراط ــ او الكوادر الادارية والفنية القيادية) واصر على مقاومة اي محاولة لدفع الثورة خارج هذا الاطار .

ومن وجهة نظر الطبقة العاملة فان الثورة الوطنية الديموقراطية

تستكمل اهدافها عندما تنجز قضية التحرر الوطني وتصفي كل الجيوب الامبريالية او الموالية للامبريالية في الداخل وتحل المشكلة الزراعية حلا ثوريا على اساس مبدا « الارض لمن يفلحها » ، وتحرر الاقتصاد الوطني من سيطرة الاحتكارية العالمية والفئات من الراسمالية المحلية المرتبطة بها وتشيع الديموقراطية في الحياة السياسية بحيث تتمتع الطبقة العاملة والفلاحون وكافة القوى الوطنية ــ بحرية العمل السياسي والنقابي والثقافي وبحيث تلعب الطبقة العاملة وحزبها الشيوعي دورها التاريخي في قيادة المجتمع دون معوقات ،وبديهي ان هذه المهام لا يمكن ان ينجزها الا سلطة الجبهة الوطنية الديموقراطية التي تلعب الطبقة العاملة فيها دورا قياديا . حينئذ فقط وبعد انجاز هذه المهام يمكن الحديث عن التقدم نحو بناء الاشتراكية .

لقد حاولت حركة ٢٣ يوليو ان تقدم حلولا لكل هذه القضايا ولكن من وجهة نظر قاعدتها الاجتماعية التي تشكلت من فئة المهنيين وهم احدى شرائح البرجوازية الوطنية بعد ان عمدت الى دعم وتوسيع هذه الفئة بامداد غفيرة من ضباط القوات المسلحة الذين افرزتهم لتولي مواقع قيادية ادارية وفنية في مختلف مناحي النشاط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي . وقد اتسعت هذه الفئة بشكل خاص بعد الاخذ بنظام التوجيه المركزي لكل النشاطات التي اخضعت للمؤسسات العامة وبعد اتساع القاعدة الصناعية في مصر وخاصة في الستينات .

فيما يتعلق بقضية التحرر الوطني انجزت حركة ٢٣ يوليو اجلاء القوات البريطانية عن منطقة قناة السويس وسارت شوطا طويلا في معاداة الامبريالية وفي الصدام مع الامبريالية الاميركية . وفي تصفية الاستثمارات الاجنبية في مصر ، ولكنها حرصت على ان تبقي بعض الجسور بينها وبين الامبريالية العالمية سواء عن طريق العلاقات الاقتصادية مثل التي كانت قائمة مع المانيا الغربية او بالابقاء على بعض العناصر والقوى المعروفة بعلاقاتها المشبوهة بالامبريالية الاميركية .

وفيما يتعلق بالقضية الزراعية كان الاصلاح الزراعي الذي طبقته محدودا « من اصل حوالي ثلاثة ملايين فدان يملكها الاقطاعيون وكبار الملاك لم يوزع على الفلاحين المعدمين اكثر من ثلاثة ارباع مليون من الافدنة » . وبصرف النظر عن عمليات التلاعب التي كانت تتيح للاقطاعيين وكبار الملاك تهريب اراضيهم بعقود صورية الى بعض افراد اسرهم فان

الحد الاقصى من الملكية الذي يسمح للاسرة بان تحوز حوالي ثلثمائة فدان قد ابقي على طبقة كبار الملاك وفتح الباب لفئة اغنياء الريف كي تنتعش وتزيد من مساحة ملكيتها للارض وبالتالي تزيد من نفوذها الاجتماعي والسياسي في الريف . ولكن برغم ذلك فان هذا الاصلاح الزراعي على ضيق حدوده قد هز فكرة الملكية الخاصة في الريف واخرج الفلاحين من سلبيتهم وقدريتهم وحفزهم الى التطلع لاحراز المزيد من المكاسب . كما ان بعض الاصلاحات الاجتماعية والصحية التي شهدها الريف المصري ربطت الريف ـ رغم قصورها ـ بالعالم وبالجديد الذي يجري في هذا العالم ، وطرحت على اذهان الفلاحين قضايا جديدة غير تلك القضايا التقليدية المحدودة التي كانت محور النشاطين الفكري والوجداني .

ان الحجم الضئيل من الارض الذي وزع على الفلاحين من ناحية ، وعدم توجيه الصناعة الثقيلة لخدمة مكننة الزراعة من ناحية اخرى لم يسمحا بتطوير الزراعة في مصر الى زراعة تعاونية وهي شرط جوهري لتحرير الفلاحين من سيطرة رجعية الريف ووضعهم على طريق العلاقات الاشتراكية ، كما ان الزراعة التعاونية هي احد الشروط لتوفير تراكم يسمح بتطوير الصناعة على اسس اشتراكية طبقا لمبدأ « من كل حسب قدرته ولكل حسب عمله » .

ومع ذلك فقد شهد الريف بعض اشكال النشاط التعاوني مثل الجمعيات التعاونية الزراعية ، والتسويق التعاوني للمحاصيل ، وان كان فساد موظفي وزارتي الاصلاح الزراعي والزراعة وتحالفهم مع اغنياء الريف الذين كانوا بدورهم متحالفين مع رجال الادارة المحليين افقد هذه الاشكال التعاونية كثيرا من مضمونها . وهكذا ورغم الاصلاح الزراعي بقيت في الريف قوة اجتماعية رجعية كانت ترتبط وتتحالف بالاجنحة اليمينية من فئة التكنوقراط لافراز سياسات يمينية او لعرقلة نمو اي سياسات او قوى تقدمية .

وفي المجال الصناعي والتجاري كانت يد التكنوقراط طليقة في ممارسة علاقات انتاج راسمالية صرفة في القطاع العام وفي تحقيق اقصى امتيازات مادية سواء بشكل مشروع او غير مشروع ولم تكن هناك اية رقابة فعلية سوى رقابة ادارة المخابرات العامة التي لم تكن تقل فسادا عن فئة المديرين والفنيين وكانت تحتفظ بما تقع عليه يدها من مخالفات لاستخدامها في صراع السلطة بين مراكز القوى المختلفة . وكان وجود

قطــاع خاص كبير فــي مجال التجارة والمقــاولات وبعض فروع الانتاج المتوسط يتيح الفرصة لصفقات غير شريفة مع المسؤولين عن القطاع العام كما يفتح بابا لكي يستثمر هؤلاء ما حققوه من ثروات بشكل غير مشروع في القطاع الخاص .

اما اشتراك العمال في مجالس ادارة المؤسسات الانتاجية فكــان شيئا صوريا حيث الحركة النقابية وعملية اختيار ممثلي العمــال لمجالس الادارات تخضع لوصاية ثلاثية من جانب الادارات وحزب الحكومة، اي الاتحاد الاشتراكي ، وادارة المباحث العامة .

رغم ذلك فان اخضاع معظم النشاط الصناعي والمصرفي والتجاري (خاصة التجارة الخارجية للقطاع العام) ساعــد علــى خلــق قاعــدة اقتصادية وطنية قوية متحررة من سيطرة الاحتكارية العالميــة ، وتشكل اساسا ماديا للاستقلال الوطني السياسي .

ان حركة ٢٣ يوليو بقيادة جمال عبد الناصر قد ادخلت مصر بقــوة الى النضال الوطني العربي وربطت مصر مصيريا بالوطن العربي كله وحققت لمصر مركزا قياديا ، والقت عليهــا مسؤوليات تاريخية ازاء قضيــة الثورة الوطنية الديموقراطية في مجموع الوطن العربي . ولكن ما كانت ترفضه حركة ٢٣ يوليو في سياستها الداخلية وهو الديموقراطية كانت ترفضه ايضا في علاقاتها بالقوى الوطنية والتقدمية العربية . وقد ادى ذلك الى كوارث ونكسات في مجمل مسيرة الثورة الوطنية الديموقراطية العربية تماما مثل ما جلبه ذلك من كوارث ونكسات في مسيرة الثورة الوطنيــة الديموقراطيــة في مصر .

ان الاصرار على احتكار القيادة واحتكار حــق العمل السياســي ، رغم كل الدعاوى عن تحالف قوى الشعب العاملة ، لفئــة التكنوقراط ، والانفراد من جانب قيادة هذه الفئة ، اي النظام الناصري ، بحــق اصدار القرار السياسي كان من وجهة نظرها ضروريا لكي تبقى حركة الثــورة الوطنية الديموقراطية اساسا فــي اطار المصالح الضيقة لهــذه الفئــة ومصالح من ابقت عليه من الفئات المالكة في الريف والمدينة ، ولكنه من وجهة نظر الضرورة التاريخية ، ومن وجهة نظر المصالح العليــا للوطن والشعب ، كان تعطيلا لحركة الثورة ، وتعطيلا للقوانين الموضوعية لحركة

التاريخ ، وتعطيلا لنمو القوى القادرة على السير بالثورة حتى نهايتها . اضافة الى ذلك فان هذا النهج نفسه هو الذي سمح لقوى الثورة المضادة ان تنمو من داخل النظام نفسه وان تتحالف مع القوى الرجعية خارج النظام لكي يفرضوا عليه التراجع امامهم مستفيدين من العدوان الاميركي الصهيوني عام ١٩٦٧ والذي كان بمثابة حليف مباشر لهم ، ثم ليطيحوا بهذا النظام بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر وليضعوا الآن ، وبعد ان تزايد نفوذهم في السلطة ، برنامجا متكاملا للانتكاس بحركة الثورة الديموقراطية الوطنية ولتصفية ما أنجزته .

كانت قضية توفير الظروف والضمانات لاستمرار الثورة نحو استكمال اهدافها التاريخية هي موضوع الخلاف الرئيسي بين الشيوعيين المصريين وبين نظام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر . ربما لا توجد هناك من وثائق الحركة الشيوعية السابقة واحدة تصوغ القضية على هذا النحو ، ولكن النضال من اجل الديموقراطية وضد أسلوب الوصاية السياسية كان مظهر هذا الخلاف حول هذه القضية الجوهرية .

* * *

لقد كانت كارثة كبرى لشعبنا ولمسيرة الثورة الوطنية الديموقراطية في مصر وفي الوطن العربي ان الحركة الشيوعية المصرية السابقة تكست راية الديموقراطية التي كانت ترفعها بقوة حينما قبلت ان تحل انظمتها المستقلة في اغسطس (آب) ١٩٦٤ . فلقد كان معنى ذلك ان قوى اليمين داخل النظام وخارجه اصبح في وسعها أن تنشط وأن تضم صفوفها وتدعم مواقعها داخل النظام وفي المجتمع دون مقاومة ، كما كان ذلك يعني ان عوامل الفساد تستطيع أن تستشري وأن تسود دون رقابة أو حساب او على الاقل دون صوت يحذر من النتائج . ان الهزيمة المروعة في يونيو (حزيران) ١٩٦٧ والنكسة الحالية التي تجري صناعتها على كل المستويات الوطنية والاقتصادية والاجتماعية هي دليل على ان الحركة الشيوعية السابقة حينما تخلت عن مسؤولياتها فانها في الواقع تكون قد شاركت في تسليم الوطن وتسليم شعبنا وتسليم الثورة الوطنية الديمقراطية لقوى الهزيمة والاستسلام والارتداد .

* * *

ويبقى بعد ذلك سؤال : رغم كل مظاهر الصمود والبسالة التي واجه بها الشيوعيون أعمال التعذيب والتنكيل في المعتقلات والسجون ، كيف

تخلوا ببساطة عن مواقعهم وقبلوا أن يحلوا تنظيماتهم المستقلة ؟

وفي محاولة الاجابة على هذا السؤال فاننا لا نريد ان نخوض في تفاصيل كثيرة ربما ليس هذا مكانها ، ولكن ينبغي الاشارة الى ان الناس وهم في السجن كانوا يخوضون معركة تحت راية مختلفة اختلافا واضحا عن راية النظام . لقد كان الناس في السجن وتحت التعذيب شيوعيين خلفهم تراث طويل من النضال في السجون والمعتقلات ، وكان أسلوب النظام في محاولة تصفية المعتقلين جسديا أو معنويا اسلوبا فجا يستفز في الناس كل عوامل المقاومة . لذلك فلقد كان ضروريا لكي يتخلى الناس عن مواقعهم ان تطمس الفوارق بين رايتهم وراية النظام ، وهذا ما قامت به بجهد غير عادي قيادة الجماعة التي انقسمت عن الحزب حينما بدأت تروج لفكرة ان السلطة الناصرية سلطة على رأسها مجموعة اشتراكية وان واجب الثوريين هو الاندماج في هذه المجموعة الاشتراكية. كذلك عملت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري على التراجع بهدوء عن مواقعها السياسية وبدأت تشد اعضاء الحزب شيئا فشيئا الى نظرة غير علمية وغير طبقية للسلطة باعتبارها سلطة (العناصر الوطنية المستنيرة والتقدمية) ، وبدأت تركز في بياناتها وقراراتها على الجوانب الايجابية في سياسات النظام مخفضة صوتها شيئا فشيئا عن سلبيات هذه السياسات ، كما سمحت لبعض العناصر بالترويج لافكار تحريفية مثل القول بأن التأثير المتزايد للاشتراكية على النطاق العالمي يسمح بالانتقال للاشتراكية دون حاجة لحزب مستقل للطبقة العاملة ، ثم توجت جهودها بعد الافراج عن الشيوعيين في منتصف ١٩٦٤ بالترويج لفكرة « وحدة القوى الاشتراكية » .

ويثور سؤال جديد : ولكن كيف يقبل شيوعيون لهم في النضال باسم الشيوعية حوالي ربع قرن مثل هذه النظريات غير العلمية ، وكيف تخدعهم محاولة « تذويب الفوارق » بين راية الطبقة العاملة وراية التكنوقراط ؟..

ان خمس سنوات من التعذيب والحرمان والمنفى والتفسخ الداخلي وتمييع علاقات التنظيم الحزبي وروح الحزبية وسيادة اساليب الصراع اللامبدئية بين مختلف الاجنحة ، داخل السجن ، كل ذلك ولا شك كان له تأثير سلبي على نضالية اعداد كبيرة ، حينما ، يخرجون من السجن مفصولين من أعمالهم ، محرومين من مصدر للقوت ، تنتظرهم مشاكل

اجتماعية واقتصادية تراكمت طوال سنوات ، وصاحب العمل الوحيد هو الدولة ، فان هؤلاء سيقبلون بسهولة اي نظرية تعفيهم من مسؤولياتهم النضالية ، وتسهل وتبرر لهم السعي للتعايش مع النظام . قد يبدو ذلك تبسيطا للامور ، ويبقى ان نبحث عن الجواب الجوهري في البنية الفكرية للحركة الشيوعية المصرية السابقة ، فلقد كانت تلك البنية ضعيفة على الدوام ، ومصدر الضعف الرئيسي فيها هو ان الحركة الشيوعية السابقة لم تستخدم النظرية الماركسية اللينينية اداة لقراءة الواقع المصري ولتحديد المرحلة الاستراتيجية التي كانت تمر بها الثورة ، ولوضع برنامج يستوعب احتياجات ومهام هذه المرحلة ، ويكون اساسا لحركة جماهيرية بين كل قوى الثورة . وكما اشرنا من قبل فان الحركة الشيوعية المصرية قبيل ١٩٥٢ ؛ ورغم ان كل فصائلها كانت تتحدث نظريا عن ضرورة الحلف العمالي الفلاحي ، لم تقدم برنامجا فلاحيا يمكن ان يستقطب جماهير الفلاحين وان يكون اساسا للنضال في الريف المصري باستثناء فقرة هنا او هناك تطالب بجعل الحد الاقصى للملكية الزراعية خمسين فدانا او ثلاثين فدانا ، دون مسح كامل لطبيعة العلاقات في الريف ولانواع المعاناة فيه ، ومن ثم استخلاص مهام نضالية محددة قصيرة الامد او طويلة الامد ، يمكن تجميع الفلاحين حولها ويمكن للفلاحين ان يقتنعوا بانها حيوية بالنسبة لهم ومن ثم يتولد لديهم الاستعداد للتنظيم وللنضال من اجلها .

ان الحركة الشيوعية المصرية السابقة رغم تعدد تنظيماتها كانت تنقسم من الناحية الفكرية الى اتجاهين رئيسيين :

١ ـ اتجاه يميني يغرق في العمل اليومي وفي المهام الآنية دون رؤية استراتيجية يسترشد بها ويسعى الى مراكمة الخبرة والقدرة النضاليتين من اجل تحقيق الهدف الاستراتيجي ويوظف المعارك التكتيكية ويوجهها لخدمة المعركة الاستراتيجية ،ومن ثم فان هذا الاتجاه كان ذيليا للاحداث يحدد مهامه يوما بيوم حسب ما تمليه التطورات ، ومن هنا فان شعارات ومواقف هذا الاتجاه كانت لا تتخطى حدود الحركة الليبرالية للبرجوازية الوطنية .

٢ ـ اتجاه يساري متطرف يركز على الهدف الاستراتيجي ويغرق في نقاش طويل حول تحديده ، ويهمل النضال التكتيكي ومن ثم تسيطر عليه النزعة الحلقية الانعزالية وعدم القدرة على التعامل مع الواقع اليومي

ومع الجماهير ، ويواجه أية تطورات تتطلب شعارات تكتيكية بشعارات استراتيجية ، فليس لديه لتفسير أي شيء أو لمواجهة أي موقف الا ان السلطة رجعية ، ولا بد من اسقاطها لاقامة سلطة ثورية .

أما كيف يتم ذلك وكيف يمكن تجميع وتنمية القـــوى القادرة على اسقاط السلطة الرجعية واقامة السلطة الثورية فذلك أمر لا يحظى بكثير من الاهتمام !

كلا الاتجاهين غير علمي وغريب على الماركسية اللينينية التي هي علم قراءة الواقع وتغييره . ولذلك عجز كل من الاتجاهين عن فهم طبيعـــة المرحلة الثورية التي كان يمر بها المجتمع المصري ووضع برنامج يستجيب لطبيعة المرحلة واحتياجاتها تكتيكيا واستراتيجيا .

ان افتقاد مثل هذا البرنامج هـــو الذي ادى الـــى تخبط الحركـــة الشيوعية المصرية في موقفها من حركة الثالث والعشرين من يوليو وتأرجح هذا الموقف من التأييد المطلق تارة الى المعارضة المطلقة تارة اخرى .

ان اختزال العلاقة مع حركة ٢٣ يوليو في صيغة ضيقة من التأييد او المعارضة كان في حد ذاته شيئا غريبا على المـــوقف الطبقـــي المبدئي ، فالاصل في تحديد موقف الطبقة العاملة من القـــوى الاخرى هو أولا أن يكون تأييد الطبقة العاملة كله لبرنامجها هي الذي تطرحه للمجتمع كله ، وان يكون هو محور حركتها السياسي ، وان تحدد علاقاتها بأية قوى اخرى على ضوء اقتراب هذه القوى من هذا البرنامج او ابتعادها عنه ، واذا ما كانت سياسات هذه القوى تساعد على نمو القـــوى المؤيدة لهذا البرنامج أو تعاكس هذا النمو . ان مثل هذا النهج هو الذي يحفظ للطبقـــة العاملة استقلالية رايتها وبرنامجها ويميزهما عن اية رايات أو برامـــج اخرى . كما ان هذا النهج هو الذي يضمن قيام علاقات تحالف سليمـــة معروفة حدود الاختلاف والاتفاق فيها ، ويضمن الا يتبدد نضال الطبقـــة العاملة ويتحول الى رصيد لصالح احدى الطبقات الاخرى المشتركة في التحالف. لقد كان افتقاد هذا البرنامج المتميز استراتيجيا وتكتيكيا للطبقة العـــاملة سببا رئيسيا في تسهيل عملية طمس الفوارق بين راية الطبقة العـــاملة وراية التكنوقراط ، فالموقف الطبقي لا يتحـــدد فقط بالمنطلقات النظرية التي يحملها المرء ، وانما ايضا وبدرجة لا تقل عن ذلك ، يتحدد الموقف الطبقي

ببرنامج واضح محدد قابل لان يتحول الى حركة في الواقع ، وبرؤية واضحة ومحددة لاحتياجات الواقع تكتيكيا واستراتيجيا وبمهام نضالية واضحة ومحددة على المستويين التكتيكي والاستراتيجي .

* * *

ان هذا الكتاب يصدر في وقت يحتدم فيه الصراع الطبقي في مصر وفي المنطقة العربية كلها ، وتتضح فيه الجذور الطبقية للمناهج المتصارعة بشأن مواجهة تحرير الارض وبناء المجتمع ،وهي ظروف تجعل بروز حزب جديد للطبقة العاملة في مصر ضرورة موضوعية متزايدة الالحاح .

ان بعض قوى اليسار يقترب من هذه القضية ، ويتعامل معها بأوهام كثيرة عما يسمى بامكانية الانفراج الليبرالي ، والبعض الآخر يقترب منها دون رؤية واضحة لطبيعة الصراعات الاجتماعية والسياسية التي تشهدها بلادنا ، واخطر ما في الامر هو ان هذا البعض أو ذاك لا يعي ، عن عمد أو عن غير عمد ، ذلك النقص القاتل الذي أودى بالحركة الشيوعية السابقة ، اي افتقاد الرؤية الواضحة للواقع المصري ، وافتقاد البرنامج المتكامل المستقل للطبقة العاملة . وكما ادى ذلك في السابق الى تمييع نضال الطبقة العاملة المصرية والحاقه بالحركة السياسية لفئة التكنوقراط ، فان تكرار هذا الخطأ القاتل سيؤدي في هذه المرة الى تسليم الطبقة العاملة وجماهير الكادحين في الريف والمدينة لاكثر الطبقات تخلفا ورجعية في مجتمعنا التي تحاول ان تغطي سعيها لانجاز الردة الكاملة بحديث زائف عن ليبرالية زائفة .

ان الليبرالية البرجوازية هي في تاريخ مجتمعنا تلك الفترة التي كانت فيها البرجوازية الوطنية جزءا من المعسكر الوطني الديموقراطي الذي كان يناضل ضد الاستعمار والاستبداد السياسي الاقطاعي . لقد انتهت هذه المرحلة تاريخيا بقيام حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ولا يمكن ان تعود . وحينما يتحدث راسماليو القطاع الخاص والمتعاونون مع راس المال الاحتكاري العالمي او الخليجي ، وكبار الملاك في الريف عن الديموقراطية أو الليبرالية ، فانما يعنون الديموقراطية لهم وحدهم ، والحرية لهم وحدهم في اعادة تشكيل المجتمع وفقا لمصالحهم الانانية الضيقة ، ولا ينبغي ان تكون هنالك اية اوهام بشأن ذلك . انهم مصممون على انتزاع حريتهم كاملة في اخضاع المجتمع لاستغلالهم حتى ولو اضطروا في سبيل ذلك لفرض ديكتاتورية عسكرية يمينية .

ان مجتمعنا ليس امامه الا واحدا من اختيارين لا وسط بينهما : اما الديموقراطية للحزب الرجعي الذي يعمل على الارتداد بمجتمعنا الى عهد استغلال الراسمالية المطلق والتبعية للامبريالية العالمية ، وخاصةالامبريالية الاميركية ، واما الديموقراطية للطبقة العاملة ولكافة القوى الوطنية الديموقراطية المصممة على السير في معركة تحرير الارض وفي مقاومة الامبريالية الاميركية والرجعية المحلية والعربية وتطوير المجتمع على أسس ديموقراطية .

ان الرؤية الواضحة المحددة هي وحدها التي تساعد القوى الوطنية الديموقراطية في مصر على ان تخوض نضالا منتصرا وأن تتجنب نكسات الماضي ، وأن تقوم بمسؤولياتها التاريخية في انجاز الثورة الوطنية الديموقراطية مصريا ــ وعربيا .

* * *

من هذه الزاوية فان هذا الكتاب ليس محاكمة للنظام الناصري .. انه مجرد تسجيل للعلاقة بين هذا النظام والشيوعيين في فترة محددة ــ ما بين يناير ١٩٥٨ ومايو ١٩٦٤ ، وهي فترة كان النظام فيها مصمما على تصفية اية قوة سياسية مستقلة عنه ولا تدين بالولاء المطلق له ، ولان هذا الكتاب وضع في السجن ، فانه كان ولا بد ان يعكس طبيعة العلاقة بين السجين وسجانه ، بين من يتعرض للتعذيب وبين من يتم هذا التعذيب بامر منه ، بين من يتهددهم الموت ، وبين من وضعهم على حافة الموت ، وكل ما حول ذلك من دلالات وأبعاد سياسية وطنية وقومية عامة.

وصحيح ان الرئيس جمال عبد الناصر اصدر أمرا بالافراج الشامل عن المعتقلين الشيوعيين والديموقراطيين والنقابيين في مايو ١٩٦٤ ، وأعقبه بعفو عام عن كل الشيوعيين الذين صدرت بحقهم احكام بالسجن من المجالس العسكرية او المحاكم الخاصة ، وقد اقترن ذلك بتخففالنظام من بعض العناصر الموغلة في اليمينية التي كانت في قيادته من أمثال عبد اللطيف البغدادي وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم ، وبالمزيد من بعض الاصلاحات الداخلية ، وبتحسن كبير في العلاقات المصرية السوفياتية تجلت في الاستقبال المشهود الذي أعد لنيكيتا خروشوف .. ولكن كان هناك يمين آخر يتجمع في النظام حول كل من المشير عبدالحكيم عامر ، وزكريا محييالدين ، ومحمد حسنين هيكل .. كذلك ظل النظام في مجموعه معاديا لفكرة وجود تجمع سياسي مستقل عنه ، ومن هنا كان

الضغط المستمر والمتصاعد ، من اجل حل الحزب الشيوعي ، وقد وصل هذا الضغط الى حد اعادة اعتقال بعض اعضاء اللجنة المركزية ، وبعض الكوادر الحزبية كتحذير للجنة المركزية بالعودة الى الاعتقالات بالجملة ان لم تسارع في اتخاذ قرارها بحل الحزب. كما ظل النظام معاديا للماركسية اللينينية بدليل عدم السماح لاعضاء الحزب ـ بعد حله ـ بدخول الاتحاد الاشتراكي ، ولم يبدأ قبول بعضهم أعضاء الا في عام ١٩٦٨ ، وبدليل حملة الاعتقالات التي تمت في عام ١٩٦٩ بين أعضاء اللجنة المركزية لمنظمة الشباب التابعة للاتحاد الاشتراكي وكثير من اعضاء المنظمة بحجة انهم يشكلون تيارا ماركسيا ، وممارسة التحقيق معهم في قباء المباحث الجنائية العسكرية وادارة المخابرات العامة وسط كل مظاهر الارهاب والتخويف ..

وحتى في مرحلة ما بعد عدوان ١٩٦٧ ، والوطن في حاجة الى تجمع كل القوى الصحية فيه ، فان قرارات الفصل من الاتحاد الاشتراكي ، أو تجميد العضوية فيه ، او الاعتراض على الترشيح للمراكز القيادية فيه صدرت بحق العديدين من اعضاء الاتحاد الاشتراكي الذين تبنوا سياسة اكثر جذرية من سياسات النظام لمواجهة العدوان .

ان هذا الكم الرهيب من اليمين الذي نما في باطن النظام ، وبرز منه بعد موت عبد الناصر ، وانقض على السلطة ، ثم انقض على عبدالناصر نفسه ، وينقض الآن على ما تم انجازه في عهد عبدالناصر من اصلاح اجتماعي ، كل هذا هو الثمرة الطبيعية للسياسة التي التزمها النظام في صرامة منذ أيامه الاولى ، وهي سياسة عدم السماح لاية قوة تقدمية او ديموقراطية بحرية العمل السياسي خارج اطار النظام فكرا وتنظيما .

* * *

بقيت مسالة اخيرة ..

ان كثيرين من الذين تتالق صفحات هذا الكتاب بمواقف بطولية لهم في مواجهة كل صنوف التعذيب ، قد سقطوا فيما بعد .. ولم يقف سقوطهم عند حد مشاركتهم في حل الحزب ، وانما تعداه لتبني كل سياسات النظام ، ايجابيها وسلبيها ، بشكل مطلق ، ثم بمحاولة البحث عن موقع لهم في موكب اليمين الزاحف اليوم ..

وهم يوم سجلوا تلك المواقف الباسلة انما سجلوها باسم شعبنا ، وباسم مثله وأمانيه وقيمه النضالية .. ومن ثم فان هذه المواقف ليست ملكية خاصة لهم ، وانما هي ملك لشعبنا ، وهي ليست رصيدا شخصيا لهم يستثمرونه تحت أية راية شاءوا ، ولكنهـا رصيد اضيف الـى تراث شعبنا النضالي .. وهم يوم تخلوا عن شعبنا ، وغيروا مواقعهم يكونـون قد قطعوا اية صلة بينهم وبين ذلك الرصيد النضالي ..

ومهما كانت قسوة التجربة ومرارتها فان ذلك لا يشفـع لهم في ان يغيروا مواقعهم .. فالاصل ان من حمل راية يجب أن يكون مستعدا منذ اللحظة الاولى ان يموت دفاعا عنها .. وهناك من اختـــاروا الموت حتى لا يسقطوا رايتهم .. ولم يكن موتا مباقتا ، ولكنه كان موتا مجسدا فـي كل ضربة كان الواحد منهم يتلقاها .. واختيار الموت قمة التضحيات.. يهون بالقياس اليها أي عذاب آخر .

ان « مصداقية » هذا الكتاب ، باعتباره تاريخا لفترة محددة مـن تاريخ شعبنا هي التي اقتضت أن تقترن الوقائع بالاسماء الحقيقية .

ولكن المواقع الحقيقية التي يقف فيها هؤلاء الناس الآن في الحياة هي وحدها تكشف أين هم من تلك المواقف النضالية التي وقفوها يوما ، وبأية مسافة كبيرة ابتعدوا عنها .

طاهر عبد الحكيم

الذين صنعوا النصر

من كلمات عبد المنعم شتلة

امام المحكمة العسكرية العليا

السادة اعضاء هيئة المحكمة :

تدعي المباحث العامة في شهادتها امام هذه المحكمة ، ان الشيوعيين المصريين لم يشتركوا في المقاومة الشعبية داخل بور سعيد اثناء العدوان الثلاثي ، وهذا محض افتراء وكذب ، فالجميع يعلمون بما فيهم رئيس الحكومة وكبار المسؤولين ، ان الشيوعيين كان لهم الدور الاساسي والفعال في حركة المقاومة الشعبية داخل بور سعيد والتي تجسدت في الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية التي قادها الشيوعيون بنجاح منقطع النظير .

لقد اتصلنا بقيادة المنطقة الشرقية حالما بدأ العدوان ، وبدأ ضرب القاهرة ، وبور سعيد ، والمدن المصرية الاخرى بالقنال ، ولقد كان لي شرف الاتصال كمندوب عن الشيوعيين ، باليوزباشي محمد ابو نار ممثل قيادة المنطقة الشرقية ، وذلك في مقر قيادة المنطقة في مدينة الزقازيق ، ولقد عرضت عليه الموقف على النحو التالي :

قلت له في وضوح ، ان الخلافات القائمة بيننا وبين الحكومة ينبغي ان تطرح الآن جانبا ، اذ لا معنى ان تشغلنا الخلافات الآن وهناك عدو يهددنا جميعا . وحددنا مطلبنا من قيادة المنطقة الشرقية في التعاون معنا من اجل تعزيز قوات المقاومة الشعبية في بور سعيد وكافة مدن القنال

باعتبارهـا اكثر المدن تعرضا لخطر الغزو .

لم نجد استجابة أول الامر . ولكن ازاء ضغط الاحداث من جانب وضغطنا من جانب آخر استطعنا ان نصل الى اتفاق بعد مناقشة طويـلة عن أهمية توحيد الجهود لمواجهة العدوان الاستعماري .

سألنا اليوزباشي محمد ابو نار وهو احد المقربين للحكام الحاليـين سؤالا صريحا : ماذا لو رفضنا التعاون مع الشيوعيين ؟..

وكانت اجابتي حاسمة : اننا سنبذل قصارى جهدنا لتوحيد كـافة القوى الوطنية بما فيها الحكومة لمواجهة قوات المعتدين .. وبالطبع فـان رفض احدى هذه القوى التعاون معنا لن يثنينا عن المضي قدما من اجـل تطهير البلاد من الاستعماريين المعتدين .

كان عزمنا نحن الشيوعيين واضحا على ان نقـوم بواجبنا قبلت الحكومة ام لم تقبل ، وكان واضحا لممثل الحكومة ان الشيوعيين سينفردون بشرف قيادة المقاومة الشعبية ضد قوات المعتدين وخاصة داخل مدينـة بور سعيد التي كانت قد وقعت في يد القوات المعتدية .. وأبلغنا ممثل الحكومة انه لا يستطيـع ان يبت في الامر الا بعد الاتصال بالقيـادة بالقاهـرة ..

وبالفعل اتصل بالمشير عبد الحكيم عامر بالقاهرة ، فاعطاه المشير تعليمات بالتعاون معنا . وبدأ رجال المنطقة الشرقية يتفاهمون معنا حول كيفية المقاومة وأساليبها ..

لم تكن لديه أية فكرة عن التسلل الى بور سعيد المحتلة ، او اية نية له ولكن عرضنا خطتنا لذلك . وبالفعل .. بينما كان مئات من الرفـاق الشيوعيين يعدون لجان المقاومة الشعبية في المدن والقرى المصرية أخـذ حوالي مائتين من الرفاق أماكنهم في معسكرات شعبية في منطقةالشرقية والقنال ، بينمـا توجهنا حوالي ستيـن رفيقـا الى بلدة المطرية على شاطيء بحيرة المنزلة في مواجهة بور سعيد ، واقمنا بها مركز اتصال وتمويـن . وفي ملابس الصيادين بدأنا نتسلل في القوارب بالعشرات الى بور سعيد ومعنا السلاح والذخيرة ، والقنابل ، والمنشورات الثورية ، والمطابـع الخاصة ، كلها مخبأة تحت السمك في اماكن سرية أعدت لذلك الغرض .

وخلال احدى تلك الرحلات كاد أمرنا ينكشف ، اذ لاحظ احـد الجنود لقوات الاحتلال ان لون بشرتنا وحالة أقدامنا العارية على عـادة

الصيادين يختلفان عن لون بشرة الصيادين وشكل اقدامهم ، ولكن بعد جهد يسير استطعنا بالتفاهم مع أحد المصريين الذي كان يعمل مع المخابرات الانكليزية ، أن نقنع الجنود الانكليز بأن ظنهم ليس له أساس ، وهكذا افلتنا ...

لقد واجهتنا بور سعيد بعاصفة من التذمر والسخط على الحكومة وعلى سياستها التي جرت على البلاد الدمار والخراب .. كان الاهالي يتحدثون بمرارة عن طيراننا الذي لم يظهر على الاطلاق للدفاع عن المدينة، عن الاميرالاي محمد الموجي قائد حامية بور سعيد والقائمقام عبد الرحيم قدري قائد اللواء السابع والسبعين الموكل له الدفاع عن المدينة الذين فروا ومعهم ضباطهم ، ومعظم رجالهم في ثيابهم المدنية وتركوا المدينة تواجه قوات الاحتلال ، عن رجال « هيئة التحرير » (١) الذين خدعوا شعب بور سعيد واوهموه ان الدبابات الانكليزية التي نزلت الى البر هي دبابات سوفياتية مما تسبب في مذبحة شارع محمد علي .. كما كانت الدعاية الاستعمارية والانهزامية قد لعبت دورا خطيرا واسعا بين اهالي بور سعيد الذين تحملوا العبء الاكبر في مواجهة قوات المظلات وسقط منهم الآلاف في محاولة صدهم عن المدينة .

وكم كان سكان بور سعيد يذكرون بمرارة كيف لم يوزع السلاح عليهم الا في آخر لحظة .. كيف كانت البنادق تلقى في الشارع بلا نظام، وهي ما زالت مشحمة ، كيف انه نتيجة لذلك كان البعض يجد البندقية ولا يجد لها الذخيرة ، بينما البعض يجد ذخيرة ولا يجد لها بندقية ، كيف اضطر المئات من الرجال والنساء الى مواجهة قوات المظلات بالمطارق أو الآلات الحديدية أو أواني المطبخ الحادة .. ولذا وجدنا ان نقطة البداية في عملنا هي مواجهة حملات الدعاية الاستعمارية والعمل على توحيد كافة القوى الوطنية في جبهة متحدة واحدة .

لم يكن هذا العمل بالشيء السهل ، خصوصا اذا علمنا انالمخابرات الفرنسية والبريطانية كانت نشطة للغاية ، كما قامت المباحث العامة في بور سعيد بتسهيل مهمة المخابرات الاستعمارية ، وذلك عندما رفض حسن رشدي رئيس المباحث العامة بالمدينة اعدام الاوراق والملفاتالخاصة

---

(١) هيئة التحرير هي اول تنظيم سياسي تقيمه سلطة ٢٣ يوليو بعد ان اصدرت قانونا بحل الاحزاب السياسية وتحريم نشاطها .

بالشيوعيين قبيل العدوان على المدينة ، وتركها كي يتسلمها منـــه مستر ويليامز قائد المخابرات البريطانية ، ومن المعروف ان مستر ويليامز هذا كان قائد المخابرات البريطانية في المنطقة لمدة عشرين سنة قبل جلائهـــا وهو يعرف كل شبر في أرض القنال ، ويتكلم اللغـــة العربية بلهجاتها الدارجة كأحد المصريين ، ثم كان عملاؤه طوال تلك السنيـــن في انتظاره ببور سعيد حينما عاد مع القوات المعتدية .

لقد كان لفصيلة المقاومين من طلبة الجامعة ، وهي احد تشكيـــلات الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية ، شرف اغتيال المستر ويليامز كأحـــد مهامنا الاولى وذلك عندما اخرج احد افرادها قنبلة يدوية كان يخفيها في رغيف وقذف بها سيارة المستر ويليامز فاصابـــه بجراح خطيرة توفي على اثرها .

لقد اتصلنا بهيئة التحرير في مدينة بور سعيد ، وطلبنا من رئيسها امين العصفوري التعاون معنا ، ولكنه رفض ، وقال انه لا تعاون عن طريق جبهة ، ومن يريد العمل فلينضم الى هيئة التحرير فهي الهيئة الوحيـــدة الرسمية والممثلة للحكومة .

ولم نقبل بالطبع هذا الطلب من رئيس هيئة التحرير ، فهي هيئـــة لا يثق فيها شعب بور سعيد ، ونحن نريد خلق هيئة يثق فيهـــا شعب المدينـــة .

وقررنا ان نعمل في تكـــوين الجبهة وحـــدنا ، فاتصلنا بمختلف الشخصيات والهيئات في بور سعيد .. التي سارعت كلها بالانضمـــام للجبهة ، وبذلك التف حول قيادة الجبهة كل النقابات العمالية والهيئـــات الاجتماعية والشخصيات الوطنية ، واصبح لها الكلمة المسموعة والسلطة الحقيقية في المدينة المحتلة .

وبينما ترك رئيس هيئة التحرير زوجته واولاده في بور سعيـــد ، وتسلل هاربا من المدينة ، قمنا نحن بتنظيم لجان الجبهة في كل ركـــن من المدينة . كانت هناك اللجان الجماهيرية التي تنظم المظاهرات واخفاء رجال المقاومة وتهريب الاسلحـــة ، والاعمال الواسعة كالاحتفـــالات والمهرجانات لتكسير اوامر حظر التجول ، بينما كانت هناك لجان المقاومة السرية وهي تشكيلات كل منها صغيرة العدد وتتبع قيادة الجبهة مباشرة، ومهمتها ان تقوم بدور القناصة لجنود الاحتلال ، واختطاف الضباط ،

وقد قامت احداها بحادث الاختطاف الشهير للكابتن مور هاوس قريب ملكة انكلترا ، وقامت بقتله .

ولا املك هنا الا ان احني راسي اجلالا لذكرى الرفيق الشهيد حسن حمود اصغر المقاومين سنا ، الذي سقط برصاص احد الضباط الفرنسيين .

السادة اعضاء هيئة المحكمة .

لقد كان من نتيجة اشتداد العمليات العسكرية التي قامت بها الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية في بور سعيد ، ان اضطرت القوات المحتلة الى الجلاء عن الحي العربي ، وهو الحي الوطني والزاخر بالسكان .

ولقد حاول المحافظ ان يلعب دورا سيئا في تلك الفترة ، ففرض حظر التجول في هذا الجزء من المدينة بعد ان اخلته القوات المحتلة ، مما اثار ثائرة الاهالي ، التي لم تجد فارقا بين سلطات الاحتلال والسلطات المصرية ، واعطينا توجيهاتنا الى الاهالي بعدم الانصياع لامر حظر التجول الذي انطلقت احدى سيارات المحافظة تذيعه على المواطنين ، وبالفعل استمر الاهالي في الشوارع وفي متاجرهم واعمالهم ، وذهبت كمندوب عن الجبهة للاقاة لمحافظ والتفاهم معه في خطورة تصرفه ، وقال المحافظ انه لا بد من حظر التجول للمحافظة على الامن في الحي العربي حيث لا توجد قوات بوليس تكفي لحفظ الامن ، ولكنني ابلغته ان الجبهة ستأخذ على مسؤوليتها مهمة المحافظة على الامن ، وبعد تردد طويل اضطر المحافظ لالغاء حظر التجول ، وقد ساعد ذلك على تدعيم مركز الجبهة والتفاف الجماهير حولها ...

ولقد قمنا بالفعل بزيارة لعزبة فاروق ، وهي احدى ضواحي بور سعيد تقطنها كل العناصر الخارجة على القانون ، كما كان بها في ذلك الوقت مئات من اللصوص والقتلة الذين هربوا من سجن بور سعيد اثناء ضرب المدينة من الجو ، وعقدنا معهم اتفاقا على ان يمتنعوا عن ارتكاب اية سرقات او مخالفات قانونية ضد امن الاهالي في الحي العربي وانهم يستطيعون ارتكاب ما شاءوا من اعمال السرقة في الحي الافرنجي الذي تحتله القوات المعتدية ، ولقد احترم اللصوص بالفعل هذا الاتفاق وحتى دخول قوات البوليس المصري مدينة بور سعيد لم تقع حادثة سرقة واحدة بينما لم يحترم المحافظ اتفاقه معنا ، وحاول العودة مرارا الى فرض حظر التجول .

ولا يمكن ان يذكر المرء الجبهة الوطنية المتحدة للمقاومة الشعبية دون ان يذكر جريدة « الانتصار » التي اصدرتها الجبهة والتي لعبت دورا هائلا في رفع معنوية سكان بور سعيد وشحذ روح المقاومة لديهم ، وتجميعهم حول الجبهة .

السادة اعضاء هيئة المحكمة :

لا اود هنا ان اطيل كثيرا في الحديث عما فعله الشيوعيون اثناء العدوان الثلاثي ولكن يكفي ان اقول انهم قد قاموا بالدور الطليعي في المقاومة الشعبية ، سواء في مدينة بور سعيد او في بقية مدن وقرى مصر ون اي ادعاء غير هذا فهو ادعاء رخيص مبتذل ، ويكفي ان تستدعي احد ضباط المنطقة الشرقية للتأكد من صحة ذلك .

ان انتصارنا في معركة بور سعيد انما يرجع الفضل فيه الى الوحدة الوطنية،وحدة الشعببكافة طوائفه وهيئاته لمواجهة قوى العدوان.ان هذا الدرس لا يجب ان يغيب عن اذهاننا واخشى ما يخشاه المرء في هذه الظروف التي تجتازها البلاد اليوم الا يكون حكام البلاد قد استفادو من دروس بور سعيد ، وبذا تتعرض البلاد لاخطار شديدة .

ولا يجب ان نقلل ايضا من تضامن الشعوب العربية معنا خلال هذه المعركة . فقد لعبت هذه الشعوب دورا متعاظما خلال العدوان ولن ننسى ما قام به الشعب السوري الشقيق في منعهسفن الاعداء من التزود بالبترول وتدميره لانابيب البترول التي تمر باراضيه وكذلك هبه شعب العراق وغيره من الشعو بالعربية لمناصرتنا .

ان تضامن الشعوب العربية كان له اقوى الاثر في صد المعتدين وسحقهم . كما اثبتت معركة بور سعيد ان الشعوب الصغيرة لا تقف وحدها بل توازرها قوى سلامية ضخمة .

ان المعسكر الاشتراكي وعلى راسه الاتحاد السوفييتي ، لم يضن باية معونة او تضحية من اجل نصرة شعبنا وسحق العدوان الثلاثي .

كلنا نذكر الانذار السوفييتي ، وكيف اجبر قوات المعتدين على وقف غزوهم ، ثم الى الانسحاب ، هذا الموقف العظيم الذي كان له ثر كبير على كافة ثورات التحرر الوطني في العالم كله .

ثم تحدث عبدالمنعم شنلة عن الحملة المعادية للشيوعية وعن تصعيدها واستشهد بواقعة اغتيال الرفيقمحمد عثمانفي مدينة طنطا ،حيث عذب

تعذيبا وحشيا ادى الى موتـه .

(وبعد ان سجل ابلرفيق عبدالمنعم شتلة تفاصيل تعـذيب المناضل محمد عثمـان و (اغتياله) استرسل :

من هو الجدير اذن بالوقوف موقف الاتهام .. الجاني ام المجنى عليه ؟ العناصر الوطنية الشريفـة التي تقدم حياتها رخيصة من اجل الوطن ام تلك العناصر التي لا هم لها سوى الدس والتآمر ،والتي يشهدتاريخها بالصلات المريبـة مع المستعمرين وعملائهم .

وينبري رئيس المجلس مرة اخرى بالمقاطعة .. آمرا الرفيق بالتوقف عن الكلام ، ولكنه يستمر متحديا :

(انني اتهم المباحث العامة بارتكابها جريمة قتل احد رفاقنا .. الشهيد محمد عثمـان ، واطالب بالتحقيق فيهذه الدعوى .. كما اتقدم للنيابـة الموجودة هنـا بطلب استدعائي والتحقيق معي فيمـا نسبتـه للمباحث العامة ..

رئيس المجلس : اسكت والا امرت باخراجك ..

الرفيق شتلة : طبقا للنظام المطبق في المجالس العسكرية يحق لـي ان اتقدم بدفاعي بالطريقـة التي اراهـا مناسبة لابراز وجهة نظري ، كما اني مستعد لكي يحقق معي في ايـة عبارة اقولهـا وتعتبر ماسة باي شخص من الاشخاص رئيس المجلس : اجلس ولا تتكلم ، والا طبقت عليك المـواد الخاصة بالاخلال بنظام الجلسـة ..

الرفيق شتلة : اني احتج شديد الاحتجاج على هذا الاسلوب ، واطلب تسجيل احتجاجي في المحضر الرسمي للجلسة) .

وحسب طلب الرفيق شتلة استدعي للشهادة البكباشي لطفي واكـد المسئول السياسي من قبل عبدالناصر لقيادة المنطقة الشرقية اثناءالعدوان، ورئيس تحرير جريدة الشعب فيمـا بعد ، وكان ممـا ورد في شهادته :

رئيس المجلس : هل تعرف الشيوعيين .

البكباشي لطفي واكد : نعم ، وهم اول من فكر في دخول بور سعيد ، وهم اول من فتح لنـا الطريق الى بور سعيدالمحتلة .

كما استدعي ايضا للشهادة الاستاذ محسن لطفي مدير الشركة المتحدة للنشر ، والذي تبرع باموال طائلـة للانفاق على المعسكرات الشعبية فـي منطقة القنال ، كمـا انضم الى قوات المقاومـة في بور سعيـد . وهو ابن

خالـة لطفي واكـد .

رئيس المجلس : هل تعرف ان عبدالمنعم شتلة وزملاؤه هؤلاء شيوعيين؟

الاستاذ محسن لطفي : نعـم ...

رئيس المجلس : وماذا تعرف عنهم اثناء العدوان ؟

الاستاذ محسن : كنت اعمل اثناء العدوان بالتنسيق مع قادة المنطقة الشرقية ، ولم يكـن لدينـا ايـة فكرة عن دخول بور سعيد وهم الذيـن اقترحوا ذلك ووضعوا خطته ، وهم الذين فتحوا لنـا الطريق الى بـور سعيد ، كمـا انهم هم المحركيـن لجبهـة المقاومة الشعبيـة التي كانت تضم كل شعب بور سعيد ، والتـي تحملت عبء كافـة العمليـات العسكريـة والجماهيريـة هنـاك .

الجزء الاول

في ظلال الراية السوداء

الفصل الاول

الذين يخافون النور

منتصف الليـل ..

نهايـة عام ، وبدايـة عام جديد .

والناس في الجمهورية العربية يتبادلون التمنيات بعام جديد سعيد.. ولكن في حذر وترقب ، اذ لم يكـن قد انقضى بعد سوى اسبوع واحـد على ذلك الخطاب الذي القاه عبدالناصر ، رئيس الجمهورية في بور سعيد في الثالث والعشريـن من ديسمبر ١٩٥٨ .

والثالث والعشرون من ديسمبر هو عيدالنصر ، تحتفل فيه بور سعيد، ويحتفل معها الشعب المصري كله ، وتحتفل معهـا كل البشرية التقدميـة بذكرى انتصارهـا على العدوان الانجلو فرنسي ، كمـا تحتفل بذكـرى مقاومتهـا الباسلـة تحت قيادة الشيوعيين ، ونحتفل بذكرى شهدائها ، وفي مقدمتهم الشهيد الرفيق حسن حمود الذي سقط في صفوف المقاومة ولـم يكـن قد تعدى بعد الخامسة عشرة من عمره .

في هذا اليوم من كل عام تحتفل بور سعيد ، ويحتفل الشعب المصري وتحتفل البشريـة التقدميـة بذكرى الانذار السوفيتي للمعتدين ، ذلـك الانذار الذي سيظل رمزا خالدا للتضامـن الوثيق بيـن المعسكرالاشتراكي والشعـوب المناضلـة من اجل تحررها .

في العيد الثالث للنصر ، في الثالث والعشريـن من ديسمبر ١٩٥٨ جاء خطاب عبدالناصر فيبور سعيد معاكسا لكل تلك المعاني الجميلة فـي وجدان المواطنيـن فلقـد اعلـن في خطابه « ان المعركة مع الاستعمار قـد انتهت وان المعركة مع الشيوعية قد بدأت » . لقد سقطت تلـك الكلمـات على شعب بور سعيد اقسى من قنابل المعتدين ، وتساقطت عـلى قبـور

الشهداء اقسم من حمم الجمر .

وبينمـا كان الناس في بلادنا يحتفلون بالعام الجديد ، وحينمـا كانوا يتبادلون التمنيات بعام جديد سعيد، كانوا يحسون لكلمات عبدالناصر تلـك ظـلالا كئيبة تخنق بسمة العيد ، وتجعل التمنيات تخرج من الشفاه اشبـه بالدعوات لحمايـة الوطـن من كارثـة كانت تنبىء بهـا كل كلمة من خطاب عبدالنـاصر ...

كانت المعركة بين عبدالناصر والشيوعيين لا مفر منها ، لـم يفرضها الشيوعيون الذين ظلوا في مواقعهم مدافعين عن الاستقلال ، يقظين لمؤامرات المستعمريـن ..وانما فرضها عبدالناصر ..

لقد سعى عبدالناصر للتهدئة مع المستعمرين ،وكانت بينه وبين راونتري وكيل الخارجية الامريكية في نوفمبر ١٩٥٨ محادثات سرية ، لم يدر احـد ما دار بينهمـا فيها ، وان صدرت بعدها تعليمـات من عبدالناصر للصحف بعدم الهجوم على الولايات المتحدة الامريكية او نقد سياستها ، وان اقترنت تلـك المحادثات بحملة مسعورة من ابواق الدعايـة التابعـة للنظام علـى العراق ، وعلى الشيوعبين العراقيين امتدت الى الشيوعيين السوريين كما شملت الشيوعيين العرب جميعا، وانطلقت كل الاقلام الرجعية والاقلام العميلة، محمد حسنين هيكل ، والتابعي ، ومصطفى اميـن ، وعلي امين ، والعقاد، وماهر نسيم ، وانيس منصور ، وغيرهم تتهجم فـي قحـة وبذاء علـى الشيوعيين وعلى تعاليم الشيوعيـة ،وتردد افتراءات الامبرياليين عـن المعسكر الاشتراكـي ..

ظل الشيوعيون في مواقعهم مدافعين عن الوحدة الوطنية ، عن وحدة كل القوى الوطنية على النطاق العربي .

وكان عبدلناصر هو الذي بدأ عقب هزيمـة العـدوان يفتت الوحـدة الوطنية بالاجراءات التشريعية والادارية ، فهـو الذي امر بحـل لجـان المقاومة الشعبية بعد ان حملت العبء الاكبر من تنظيم الجماهير وتعبئتهـا ضد العدوان ، بينمـا بان جليـا افلاس هيئة التحرير التي اقامها نظام ٢٣ يوليـو كبديل للنظام الحزبي ، وانفضحت كهيئة معزولة عن الشعب لا تحظى بثقته او احترامه ولا تضم الا مجموعة من الوصليين والافاقين والجواسيس. لقـد عمل عبدالناصر علـى ازاحة الشيوعيين مـن كافـة التشكيـلات والتنظيمـات والمؤسسات ذات الطابع الجماهيري ، فمـن فصل لما يقرب

من مائة من الصحفيين الشيوعيين والديموقراطيين من جريدة الجمهورية والمجلات التي تصدر عنها ، الى فصل الطلبة الشيوعيين والديمقراطيين من الجامعة ، الى تحريم الوظائف العامة على الشيوعيين ، ووضع قائمة باسماء العمال الشيوعيين في المصانع حتى لا يسمح لهم بالعمل ، وتوج كل هـذا بالقرار الجمهوري رقم ٨ الذي يقضي بالحاق النقابات المهنيـة والعماليـة بالاتحاد القومي (١) ، وهـو حزب الحكومة ، وتحريم عضويـة مجالس الادارات فيهـا على غير اعضاء ذلك الاتحاد .

وعلى النطاق العربي كان عبدالناصر هو الذي عمل على تفتيت الجبهات الوطنية في البلاد العربية بتحريض حلفائـه انذاك علـى الانسـحاب مـن الجبهـات الوطنيـة في الاردن ولبنان والعراق وسوريا .

ظل الشيوعيون في مواقعهم مدافعين عن مطالب الجماهير الاقتصادية والديمقراطية ؛ مطالبيـن بتوجيه خطة التنمية الاقتصادية نحو رفع معيشة الجماهير وتخفيف عبء تكاليف الحياة عنها ، وحمايـة الاقتصاد الوطنـي من التسـلل الاستعمـاري .

ولكن عبدالناصر اصر على ان تتحمل الجماهير عبء خطة التنمية وعلى ان تسير تلـك الخطـة بمـا يحقق اعلى ارباح للمؤسسـات العامة والخاصة، بينمـا تتدهور مستويات معيشة المواطنين ، تكاليف المعيشة فـي ارتفاع مضطرد والدخول الفعلية في انخفاض متزايد ، كما انه هو الـذي فتـح الباب امام القروض الامبريالية مبتدئـا بالقروض مـن المانيـا الغربيـة وبفائض الحاصلات الزراعيـة الامريكيـة .

ظل الشيوعيون يطالبون للشعب بحقه في حرياته العامة ، حريـة العمل والتنظيم السياسي ، حريـة النشر والصحافـة والاجتماع وظلـوا يطالبون بانتخاب جمعية تأسيسية تضع للشعب دستورا وطنيا ديموقراطيا ، ولكن عبدالناصر اصر على مصادرة الحريات العامة وتحريم التنظيم السياسي، وفرض الرقابة على الصحف وكافة المطبوعات وحظـر الاجتماعات العامـة والاعتداء على ما يتم منهـا بواسطـة قوات الامن ، وفي مواجهة المطالبـة

---

(١) الاتحاد القومي هو المحاولة الثانيـة من سلطـة ٢٣ يوليـو لاقامـة تنظيم سياسي خاص بها ينفـرد وحده بالعمل السياسي، وذلـك بعـد فشل هيئـة التحرير وحلها فـي اوائل ١٩٥٨ .

بجمعية تاسيسية لوضع دستور ديمقراطي حل عبدالناصر مجلس الامة الذي ضاق به ذرعا ، على الرغم من ان حوالي مائة نائب فيه عينوا تقريبا بواسطة ما يسمى بحق الاعتراض الذي بمقتضاه شطبت اسماء المرشحين المنافسين لهم في انتخابات يوليو ٥٧، وعلى الرغم من انه بمقتضى حق الاعتراض هذا استبعدعبدالناصر كافة المرشحين الشيوعيين والديمقراطيين والتقدميين .

واصر عبدالناصر على فرض نظام الحزب الواحد ،وعلى مد فترة الانتقال التي استمرت الان عشر سنوات ، وعلى الحكم بالاساليب البوليسية،بالمباحث العامةوالمخابرات والنيابة الادارية ، وبقوانين الطوارىء.

لقد ظل الشيوعيون ينادون بسياسة خارجية اساسها النضال الحاسم ضد المستعمرين والصداقة الوطيدة مع المعسكر الاشتراكي ، والمساندة الحازمة لحركات التحرر الوطني .

,ولكن النظام الناصري اتبع،على النطاق العالمي ،سياسة تتسم بالتهدئة مع المستعمرين ، بينما سلط كل نيرانه على الحركة الوطنيةالديمقراطية في العراق .

ولقد ظل الشيوعيون ابدا يناضلون بثبات من اجل وحدة عربية ديمقراطية تحترم فيها ارادة الشعوب العربية في شكل الوحدة الذي تريده ، وفي نظام الحكم الذيتختاره .

ولكن النظام الناصري قاتل بشراسة من اجل فرض الوحدة على سوريا بشروطه : حل الاحزاب ، وحل البرلمان واقامة اتحاد قومي تخضع له كل اشكال النشاط السياسي والاجتماعي . ولم تكد تتم الوحدة حتى استبعد قادة ضباط الجيش السوري ، وحلت النقابات واتحادات الطلبة. واعيد تكوينها تحت اشراف المباحث . واخضعت كل مجالات الحياة في سوريا بما فيها الوزراء السوريون انفسهم لاشراف المخابرات الناصرية.

وهو الذي رفض الاتحاد الفدرالي الذي عرضته العراق مسلمة له برئاسة الاتحاد ، وبقيادة جيوش الاتحاد وبسياسة خارجية واحدة للاتحاد مقابل السماح لشعب العراق بحقه في تكوين احزابه الوطنية ، وانتخاب برلمانه والتمتع بحرياته العامة .

لقد رفض النظام الناصري الوحدة مع العراق الا اذا خضعت لشروطه

والا اذا اسلم شعب العراق ثورته كاملة لعبدالناصر .

وكما اصر عبدالناصر على طريق غير ديمقراطي لمصر المستقلة، يحقق للفئات العليا من الرأسمالية المصرية اعلى درجات ديكتاتوريتها كذلك اصر على ان تسير الوحدة العربية في مسار غير ديمقراطي يحقق للفئات العليا من البورجوازية المصرية اوسع تسلط وتحكم على مقدرات البلاد العربية . (1) .

وفي مصر تجمعت العناصر الوطنية الديمقراطية حول الحزب الشيوعي المصري من اجل مسار ديمقراطي لمصر المستقلة .

وفي سوريا تجمعت القوى الوطنية الديمقراطية حول الحزب الشيوعي السوري من اجل ديمقراطية الوحدة .

وفي العراق تجمعت الاحزاب والقوى الوطنية الديمقرطية حول الحزب الشيوعي لحماية الثورة من محاولات عبدالناصر الانقلابية ولم يكن الناصريون بقادرين على خوض المعركة ضد تلك الجبهة الوطنية الديمقراطية المتعاظمة على النطاق العربي ، معركة شريفة مفتوحة تقول فيها الجماهير كلمتها ، لم يكن للناصريين قبل بمعركة تدور تحت انوار الحقيقة لان هذا كان يعني هزيمتهم المحققة .

وعليه فقد قرروا ان يخوضوها معركة سوداء ، يتسلحون فيها بكل ما وعوه من تجارب الانظمة البالية المعادية للشعوب : البطش البوليسي ، الاغتيال والتعذيب ، والاكاذيب والافتراءات .

وكان منتصف الليل .

كانت نهاية عام ١٩٥٨ ، وبداية عام ١٩٥٩ .

وتبادل الناس في ج.ع.م التهاني والتمنيات بعام جديد سعيد ..

ولكن اولئك الذين ظلوا ابدا يخشون الشعب ولا يؤمنون به ..

اولئك الذين لا يستطيعون العمل الا في الظلام ..

كانوا يرفعون من خلف مكاتبهم بسراي القبة الخناجر التي مزقوا بها احلام العام الجديد .

ففي الظلام ، وقبل ان تبرز الخيوط الاولى لفجر اليوم الاول من العام الجديد ، كان النظام الناصري يمزق راية الوحدة الوطنية التي حمت البلاد

---

(1) بعد انفصال سوريا قدم عبدالناصر نقدا ذاتيا اعترف فيه بعدم اليقظة لتلك الفئات اليمينية ولمؤامراتها ، واضطر بعد ذلك لتاميم معظم استثماراتها .

من العدوان الاستعماري ، والتي مزقت مشروع ايزنهاور كان يمزق راية التضامن العربي وراية الصداقة العربية السوفيتية اللتين ضمنتا احباط كل المؤامرات الاستعمارية .

كان يمزق كل الرايات الشريفة التي رفعها الشعب ، ليرفع مكانها راية كريهة لدى كل المواطنين الشرفاء ، راية لم يرفعها من قبل الا الد اعداء الانسانية ، رايه الاستعمار المهلهلة ، رايه السواد والشؤم التي لا يستظل بها الا اعداء التقدم البشري : تلك الراية التي نشرت على البلاد ظلها الاسود الكئيب .. راية مكافحة الشيوعية .

في صباح اليوم الاول من يناير ١٩٥٩ ، استدعي مراسلو الصحف الامريكية ـ والامريكية فقط ـ الى مقر رئيس الجمهورية بسراي القبة حيث افضى اليهم احد كبار المسئولين بانباء الحملة البوليسية التي شنتها اجهزة الامن على الشيوعيين المصريين والتي تم فيها اعتقال ما يقرب من مائتين من الشيوعيين بينهم معظم القيادات .لقد حظر على الصحف المصرية نشر اي شيء عن تلك الاعتقالات ، الا ان الاخبار انتشرت بسرعة مذهلة برغم ذلك الحظر ، واصابت الدهشة البالغة كافة المواطنين لذلك التصرف المفاجيء من جانب سلطات ج.ع.م. وعم القلق انحاء البلاد ، لان الناس في بلادنا يعلمون من خبرتهم الطويلة ان اعتقال الشيوعيين يكون عادة بداية عهد من الارهاب وخنق الحريات والاعتداء على حقوق المواطنين.

سيق المعتقلون الى سجن القلعة وهو مكان كئيب مظلم ، يقع داخل اسوار قلعة صلاح الدين على قمة جبل المقطم . ان اول من استخدم القلعة معتقلا للوطنيين هم الفرنسيون الذين غزوا مصر بقيادة بونابرت عام ١٧٩٨ . واستخدمته قوات الاحتلال البريطانية سجنا حربيا لجنود الاحتلال ، واول من استخدمه بعد ذلك معتقلا للسياسيين هو عبدالناصر .

ما يكاد المرء يدخل من بوابة ضخمة حتى يجد نفسه في فناء صغير يؤدي باب فيه الى حجرة بها ضابطان يقومان بتفتيش المعتقلين واستلام ما معهم من نقود ثم تسجيل الاسماء في سجلات المعتقل ، ويؤدي باب اخر في الحجرة الى دهليز ضيق مظلم ، على كل من جانبيه صف من الزنازين الضيقة لكل منها باب مزدوج ، واحد من القضبان الحديدية واخر من الخشب السميك ، ولا ينفذ اليها الهواء الا من كوة ضيقة في السقف.

بدأ التحقيق مع المعتقلين منذ اليوم الاول ، واتسم التحقيق باهدار

وكنيـــن قانونيين اساسيين :

اولا : اجري التحقيق بحضور ضباط من ادارة المباحث العامة كانوا يسجلون ملخصات باقوال المعتقليـــن بحجـــة نقل صورة عن التحقيق اولا باول الـــى رئيس الجمهورية .

ثانيا : حرم المعتقلون الذين أجري معهم التحقيـــق مـــن استدعـــاء محامين لحضور التحقيق .

وفضلا عـــن ذلك فقد سار التحقيق في طريق غير قانوني من زاويتين:

اولاهما : ان وكيل النيابة لم يكن يحقق بناء على ادلة مادية امامه ، وانما بناء على تبليـــغ من المباحث العامة .

وثانيهما : ان الاسئلة التي كان يوجهها وكيل النيابة لم تكن حول وقائع مادية ، وانمـــا حول مسائل تتعلق بالعقيدة وحرية الضمير ، من امثلة ذلك:

ما رأيك في الشيوعية ، ما رأيك في القومية العربية ؟

ما رأيك في الاشتراكيـــة الديمقراطية التعاونية ؟

بقي المعتقلون في سجن القلعـــة حتى ٢١ مارس ١٩٥٩ محـــرم عليهم الاتصال بذويهم ، محرم عليهم الاطلاع على الصحف او الاستماع للاذاعة ، محرم عليهم الاتصال بمحاميهم رغـــم انه قد اجري معهم تحقيق نيابي .

الفصل الثاني

على الطريقة الاميركانية

هبت كل الاحزاب الشيوعية العربيـــة تحذر من سياسة مكافحـــة الشيوعية ، وتحتج على تلـك الحملة الغادرة على الحزبيـــن الشيوعييـــن المصري والسوري ، وادانت الاحزاب الشيوعية العربية في مراكش والجزائر وتونس والاردن ولبنان والعراق خطاب عبدالناصر الذي القاه في بور سعيد وحملته على الشيوعيين العرب .

ورغم اعتقال ذلك العدد الكبير من كوادر الحزب الشيوعـي المصري وعناصره القيادية والجماهيرية ، انطلق الحزب في عمله الدعائي والتنظيمي وفي اثارته الجماهيرية انطلاقـة هائلـة افزعت النظام ، وجعلته يدرك ان حملة يناير لم تحقق ما اراده من شل الحـــزب وافزاع اعضائه الذيـــن لم يلق القبض عليهـم .

وازداد سعار النظام الناصري عقب هزيمة حركة الشواف في الموصل في اوائل مارس ١٩٥٩ وكان قد القى بكل ثقله خلف تلـك الحركة . هزت الصفعة الحكم الناصري من اساسه هزا عنيفا فاتجه لتاميـن نفسه بمزيد من الارهاب ، وشهدت الاسابيع التالية لفشل مؤامرة الشواف اعتف حملة هستيريـة ضـد الشيوعيـة :

فعبدالناصر في سوريا يلقي بمعدل خطابين في اليوم يهاجم فيهمـا الشيوعيين والاتحاد السوفييتي ، والصحف الناصرية تمتلىء بالاكـاذيب والافتراءات عن الشيوعية وتنشط كل الاقلام المأجورة والعميلة التي تتلقى وحيها من دوائر فيما وراء الأطلنطي ، اقلام مصطفى وعلي امين وحسنين هيكل ، والتابعي وانيس منصور وماهر نسيم وعباس العقاد .

وصدرت تعليمـات صريحـة للصحف بعدم مهاجمة الولايات المتحدة

وعدم التعرض للحلف المركزي وازدادت قبضة الرقابة على الصحف وازداد تدخلها في توجيه الصحافة ، فلم تعد تقتصر على مجرد حذف الاخبار او المقالات التي لا تخدم حملة النظام بل تعدت ذلك الى تلفيق اخبار عن العراق وعن الاتحاد السوفييتي وفرضها على الصحف وتحديد المكان والصفحة والساحة ونوع الحروف التي تنشر بها تلك الاخبار .

استدعى انور السادات سكرتير الاتحاد القومي في ذلك الوقت السيد خالد محيي الدين رئيس تحرير جريدة المساء في ٨ مارس ١٩٥٩ فرفض خالد محيي الدين الذهاب اليه في مكتبه، فارسل السادات قوة من المخابرات احضرت خالد محيي الدين شبه مقبوض عليه الى مكتبه .

قال له السادات : ان الرئيس عبدالناصر يطلب منك الكتابة ضد العراق وضد الشيوعية : فلما رفض خالد محيي الدين ، قال له السادات :« ان هذا الرفض يعني انك مستقيل من رئاسة التحرير » فاجاب خالد :« نعم انا مستقيل » . وعين مصطفى المستكاوي وهو احد ضباط المخابرات رئيسا لتحرير المساء .

كان قد اعتقل في حملة يناير ثلاثة من محرري جريدة المساء ولكن ذلك لم يرهب بقية المحررين الشيوعيين والتقدميين في الجريدة بل ظلوا يناوئون الرقابة ويتحايلون عليها ويواصلون تحرير الجريدة وتوجيهها وجهة وطنية ديمقراطية بأقصى ما يستطيعون من جهد . وعلى اثر كلمة لسكرتير التحرير الاستاذ سعد التائه عن ضرورة الوحدة الوطنية وضم الصفوف في مواجهة الاستعمار ، القي القبض عليه هو الآخر في ٧ يناير وسيق الى المعتقل، ولم يرهب ذلك بقية المحررين ، ولم يلق احد منهم قلمه ولم يسلم احد منهم ضميره ، فقامت السلطات بفصلهم جميعا من وظائفهم بالجريدة ، ووضعت مكانهم عددا من الصحافيين التابعين لها .

لقد ظلت تلك الجريدة لمدة سنتين ونصف منارة للفكر التقدمي في مصر ، تسطع على صفحاتها كلمات الكتاب الوطنيين والديمقراطيين ، وعلى اثر محادثة تليفونية بين عبدالناصر من دمشق والمشير عبدالحكيم عامر في القاهرة ، قال له فيها عبدالناصر ان محرري المساء لا يقفون معه وانه لا بد من تطهير تلك الجريدة ، امتد ظل راية مكافحة الشيوعية الاسود اليها وتحولت الى بوق رجعي يردد نفس ما تردده ابواق الدعاية الاستعمارية ضد الشيوعية وضد المعسكر الاشتراكي .

وفي نفس الوقت الذي كان فيه عبدالناصر يصعد حملته على الشيوعيين

في خطبه التي اتسمت بعصبيـــة حادة بعد فشل مؤامرة الشواف ، كانت المباحث العامة في مصر تنظم المظاهرات من الشراذم المأجورين لتجـــوب الشوارع تهتف ضد الشيوعيـــة وضد السلام وضد الاتحـــاد السوفيتي . واخذت الصحف المصريـــة تومىء ايماءات خبيثة باستباحة دم الشيوعيين محرضة على ذبحهم مستعينة على ذلك بفتاوى مـــن بعض رجـــال الديـــن المأجوريـــن ولكن الشعب الطيب الذي عرف الشيوعيين لم يستجب اطلاقا لتلـــك التحريضـــات الاجراميـــة .

وهنا نجدر الاشارة باعتزاز لموقف كليه الاداب بجامعة القاهرة وكلية الفنـــون الجميلة ، اللتيـــن رفض طلبتهمـــا الانضمـــام لتلـــك المظاهـــرات المفتعلـــة . ومما لـــه دلالة خاصة ذلك الحادث الذي وقع للمناضل محمـــد علي فخري في مدينة بني سويف ، حيث نظم بعض المأجورين مظاهرة انجذب اليهـــا بعض البسطاء المندفعيـــن ، وحاصروا منزله ، فخرج اليهم ، وخاط وشرح لهم الى ايـــن يستدرجهم اولئك الاستفزازيـــون المأجورون فانفضت المظاهرة ؛ وفي المساء حضر بعض ممن اشتركوا في تلـــك المظاهرة الـــى منزلـــه واعتذروا له عمـــا بدر منهم .

في ذلك الوقت كان مكتب زكريا محي‌الدين (١) مضاء حتى ساعـــة متأخرة من الليل وهو مجتمع برجال مكتب مكافحة الشيوعية لاعداد القوائم باسمـــاء من يجب القبض عليهـــم .

وفي ٢١ مارس بدء في اخلاء سجن القلعـــة من المعتقلين الموجودين به تمهيدا لاستقبال المعتقليـــن الجدد ، فاطفئت الانوار في منطقـــة القلعـــة باسرهـــا ، وقيد المعتقلون كل اربعيـــن بسلسلة واحدة ، ثم حشروا فـــي سيارات مغلقـــة مغطاة تغطيـــة كاملـــة بستائر من قماش سميك ، وسار ذلك الموكب الاسود تحوطه عربات البوليس المسلحة متجها الى محطة سكة حديد الجيـــزة .

كان الميدان امام المحطة ، قد تحول الى شيء اشبه بميدان قتال . فقد حظر التجول في المنطقة ، واخليت المقاهي من روادهـــا وصدر امر الـــى المنازل باغلاق نوافذهـــا المطلة على الميدان ، واصطف الجنود فـــي ملابس الميدان مسلحين بالبنادق سريعة الطلقات ، ومدافع البرن : جنود ينبطحون

---

(١) وزير الداخليـــة في ذلك الوقت ، وقد اختلف معه عبدالناصر فيما بعد بسبب الاتجاهات اليمينية المتطرفـــة والموالية للغرب التي كشف عنها زكريا محي‌الدين .

مصوبين اسلحتهم ، او خلف مدافع البرن ،في وضع استعداد ،وصفوف من الجنــود اصابعهم على ازندة بنادقهم .

كل شيء كان مهيئا للايحاء للمعتقلين انهم سائرون الى الموت .

وفي قطار خاص ، في عربة مقفلة لا مقاعد فيهــا ولا نوافذ ، اللهم الا كوات مغلقة بانقضبان، قطع المعتقلون تلك الرحلة الطويلة الــى سجــن الواحات الخارجة ، على بعــد تمنمائة كيلومتر من القاهرة فــي الصحراء الغربيــة واقرب نقطة اليه على النيل تقع على بعد ٢٠٠ كيلومتر .

وعلى باب سجن الخارجة الذي وصل اليه المعتقلون في مساء اليــوم التالي ، كــان اللواء اسماعيل همت وكيل مصلحــــة السجون ، وعــدو الشيوعيين رقم واحد في تلك المصلحة ، ينتظر على راس قوة ضخمة مــن الجنود المسلحين وقفوا صفوفا ، وسار المعتقلون بيــن تلك الصفوف الــى داخل السجن ، حيث جردوا من امتعتهم وملابسهم ، والقي بهم كل اربعــة عشر في زنزانة ضيقــة ، فراشهم بطانيتين وحصير رقيق من اللوف (برش) ومتاعهم جردل لمياه الشرب ، واخر للبول ، والزنزانة مغلقة ليل نهار ، لا تفتح الا بضع دقائق في الصباح للذهاب الى دورة المياه .

وفي فجر يوم ٢٨ مارس تحركت قوات الامن المصرية في كل ركن من اركان مصر ، في المدن والريف ، من الاسكندريــة الى اســوان فهاجمت خمسمائة منزل . وبدأ معتقل القلعــة يستقبل افواج المعتقلين الجدد .لقد صدق مــا حذر منه بيــان الحزب الشيوعي المصري في ٩ يناير ١٩٥٩ من ان الحملة ضــد الشيوعية هي حملة ضد كل القوى الوطنية والديمقراطية ، اذ ضمت حملة الاعتقال الاخيرة الى جانب المئات من الشيوعيين ، عشرات وعشرات من العناصر النقابية الشريفــة والشخصيات الديمقراطية وانصار السلام وعددا كبيــرا من الصحفيين الديمقراطيين والتقدميين الذيــن كانوا يعملون بمجلة روز اليوسف والرسالة الجديدة ، وبصحيفتي الجمهوريـــة والشعب ، وكل محرري القسم الخارجي بجريدة المساء ، كما ضمت هذه الحملة ولاول مرة في تاريخ مصر عشرات من الانسات والسيدات ، امهات، وطالبات ، وموظفات زج بهن جميعــا في سجن القناطر الخيرية حيث بقين يعانين الاعتقال دون تحقيق قضائي او محاكمة لمدة اربع سنوات .

ولقد شهدت الشهور التي تلت حملة مارس عملية غريبة لم تشهد بلادنا لها مثيلا من قبل ، تلك هي عمليات الاختطاف .

كانت دوريات المباحث العامة تجوب شوارع القاهرة والاسكندريــة

والمدن والقرى في عربات خاصة وفي كل يوم تنقض هذه العربات على بعض المواطنيـن وتحملهم الى معتقل القلعـة او الى ادارة المخابرات او الى دار المحافظـة حيث يجري عليهم التعذيب بهدف استخلاص اعترافات منهم .

واصبح حتى كل من تصادف في فترة من حياته ان كان يحمـل رأيا سياسيا ذا ميول ديمقراطية يخشى على نفسه ان تنقض عليه احدى تلك السيارات لتختطفه اثناء سيره .

ولقد تم اختطاف عشرات بهذه الصورة . اختطف فيليب جلاب المحرر بالمساء اثناء سيره بشارع النيل في ١٣ ابريل ١٩٥٩ ، واختطف مؤلف هذا الكتـاب وكان محررا سياسيا بجريدة المساء اثناء سيره بشارع رمسيس في التاسعـة من مساء ٢٧ يونيو ١٩٥٩ .

واختطف فخري لبيب ونبيل صبحي من ضاحيـة مصر الجديدة ، واختطف الدكتور حسين كمال الدين المحرر العلمي بجريدة المساء من وسط زوجته واطفاله وهم على شاطىء البحر بالاسكندريـة كمـا اختطف بنفس الاسلوب المناضلون عدلي جرجيس ، ومحمد مختار جمعة ، عبدالله كامل ، منصور زكي ، وعشرات غيرهم .

وفي الاول من ابريل ١٩٥٩ بدأ ترحيل مئات المعتقلين الذين ازدحـم بهم سجن القلعـة الى معتقل العزب بالفيوم ..

الفصل الثالث

أكذوبة

وصل عدد الذيـن ساقتهم اجهزة الامـن الى المعتقلات والسجون فيما بين ينايـر وابريل ١٩٥٩ حوالي سبعمائة مواطن . ومع ذلك فلقد كـان الناس في كل مكـان يتداولون قصة ان اختلفت في تفاصيلها من حي الى حي ، ومن مدينة الى اخرى فانهـا في كل اشكالها تدور حول محور واحد، هو ان عبدالناصر استدعى كبار رجال مكافحة الشيوعية فـي مصر وانهال عليهم تعنيفـا وتوبيخا ، لانه برغم ذلك العدد الهائـل من ابناء الحـزب الشيوعي ومن المناضلين الديمقراطيين والنقابيين الذيـن اعتقلوا ، كـانت منشورات الحزب الشيوعي المصري وبياناته واسعة التداول فـي المدن والقـرى .

لم يكد يمر الاسبوع الاول بعـد حملة ينايـر الا وكان بيـان من السكرتاريـة المركزية للحزب ، والمشهور ببيـان ٩ يناير ، في ايدي ابنـاء الشعب في المدينة والريف يحذر من سياسـة مكافحة الشيوعية ويبيـن ان تلك السياسـة موجهة في الاساس ضد الحياة الديمقراطية وضد حريـات الجماهير بهدف تثبيت النظام الديكتاتوري في مصر وسوريا ، كمـا حذر من ان تلـك السياسـة لا تبدأ الا مـن نقطـة التقاء مع المستعمرين ، ولا يعني الاصرار عليهـا الا الانعطاف نحـو الغرب والتهادن مع الامبرياليين .

ودعا البيان جماهير الشعب : عماله وفلاحيه ومثقفيه وكافـة القوى الوطنية والديمقراطية الى تكويـن جبهـة وطنية ديمقراطية تعمـل مـن اجل ديمقراطية الحيـاة السياسية في البلاد وديمقراطية الوحـدة مـع سوريـا ، ورفع مستوى الجماهير المعيشي والثقافي .

وفي ٢١ فبراير صدر بيان اخر من السكرتارية المركزيـة يرد علـى

الخطاب الذي القاه عبدالناصر في العيد الاول للوحدة ، محملا عبدالناصر مسئولية تدهور حركة التحرير العربية ، ويدعو الى التضامن مع شعب العراق ، والى ديمقراطية الحياة السياسية ممثلة في الغاء حالةالطوارىء والغاء الاحكام العرفية والافراج عن المعتقلين والمسجونين السياسيين ، واطلاق الحريات العامة واطلاق حرية التنظيم السياسي والنقابي ، ووضع دستور ديمقراطي عن طريق جمعية تأسيسية منتخبة انتخابا حرا مباشرا.

وفي النصف الاول من شهر مارس صدر بيان ثالث من السكرتارية المركزية يفضح دور النظام في مؤامرة الموصل ضد شعب العراق ، ويدعو الجماهير للنضال ضد التدخل في العراق بهدف تخريب التطور الديمقراطي لثورة ١٤ تموز .

وفي ابريل صدرت رسالة القاهرة تتحدث عن المعتقلات والسجون والتحقيقات التي تدور تحت اشراف المباحث العامة ، والرهائن من آباء وابناء وزوجات المناضلين الهاربين .

ونشطت اجهزة الحزب المحلية في اصدار المنشورات وكتابة الشعارات على الجدران ، وتضاعفت اعمال الاثارة والدعاية والتنظيم بين العمال والفلاحين ضد تزايد الارهاب .

لم يكن للفلاحين في جلساتهم امام دورهم في المساء ، ولم يكن للعمال وهم منصرفون من مصانعهم ،ولم يكن للطلبة في مدارسهم وكلياتهم ولم يكن للموظفين حينما يجتمعون على المقاهي ليلا ، لم يكن لهؤلاء جميعا من حديث سوى منشورات الشيوعيين ، وحملات القبض على الشيوعيين والانباءالتي يلتقطونها من الاذاعات الاجنبية ـ فشعبنا لم يكن يثق فيما يتعلق بانبائه المحلية بالصحف ولا بالاذاعة المصرية ـ والانذار السوفيتي الذي ردع المعتدين في ١٩٥٦ واكذوبة الاعلام الرسمي حينما قال : ان الانذار جاء بعد ان توقف العدوان .

ان نظام عبدالناصر لم يخنه ذكاؤه بقدر ما خانه حينما انكر دور الانذار السوفيتي ، وحينما هاجم الاتحاد السوفيتي ، فالانذار وصداقة السوفيت حقائق في تاريخ شعبنا ، عاشها وما زال يعيشها .

.. ان عاملا هاما من شعبية عبدالناصر ومكانته لدى الجماهير كان يكمن في صداقته مع الاتحاد السوفيتي وتأييد الشيوعيين المحليين له، وبانهيار هذه الدعامة انهار جانب هام من مكانته في قلوب المواطنين ،فصداقة السوفييت والشيوعيين كانت مطلبا شعبيا عند بداية الحركة الوطنية

بعــد الحرب العالميــة الثانية ، والعداء للشيوعية وللاتحاد السوفيتي لــم يعرفه شعبنــا الا مرتبطــا باسماء السياسيين المعادين للشعب من امثــال اسماعيل صدقي وابراهيم عبدالهادي وعلي ماهــر ومرتبطــا بالنظــــام الاقطاعي وعلى قمته الملك المخلوع فــاروق .

ومن هنا كان حماس الناس لبيانات الحزب الشيوعي ، ومن هنا كان تداولهم في شماتة لقصــة غضب عبدالناصر على رجال مكافحة الشيوعية. ومن هنا كانت ضراوة حملة البحث عن الهاربيــن من المناضلين من اعضاء الحــزب الشيوعــي .

الفصل الرابع

أريد جثة ولدي

وكان العشرات من اعضاء الحزب الشيوعي المصري قـد افلتوا من حملات المباحث العامة في يناير ومارس .. وبينهم عدد من اعضاء اللجنة المركزية واعضائها الاحتياطيين ..

وانطلق رجال المباحث ينقبون عن الشيوعيين الهاربين في كل شبر من الجمهورية العربيـة .. احياء باسرهـا كانت تحاصر بقوات الامن ويجري تفتيشهـا بيتا بيتا ، كانت القرى تحاصر ليـلا بامداد غفيرة من السيارات المسلحـة وبرجال الامن المسلحين بالاسلحة سريعـة الطلـقات ، ويجـري تفتيشها ، كثير من الاباء والابناء والامهات والزوجـات والاخوات كانـوا يساقون الى مراكز البوليس ويلقى بهم هناك اسابيع رهائن تمارس ضدهم اسوأ انواع المعاملة لارغامهم على الادلاء باماكن اقاربهـم مـن المناضليـن الهاربيـن ..

وفي قرية على مقربة من مدينة طنطا استطاعت قوات الامـن أن تلقي القبض على المناضل الشيوعي الهارب محمد عثمـان ، كمـا القت القبض في مكان اخر على عامل النسيج احمد عيد ، وعلى احـد موظفـي وزارة الصحة ويدعى سعيد النحاس ، واقتيد الجميع الى قسم اول بوليس طنطا.

لقـد احيط مكتب مكافحة الشيوعية المركزي في القاهرة علما بالقبض على الرفيق محمد عثمـان فور وقوعه في يد مباحث طنطا .. اذ إن سقوط محمـد عثمـان في يـد المباحث العامة كـان يعني بالنسـبة لرجال مكافحة الشيوعية امرا هامـا .. فمحمد عثمـان هو من الجيل الاول من الشيوعيين المصريين ، هو واحد من الطلائع الاولى التي رفعت رايـة الشيوعية فـي مصر في اعقاب الحرب العاليـة الثانية ، ومن ذلك الوقت ومحمد عثمـان

يناضل في صفوف الطلبة حيث كـان منتسبا بكليـة التجارة ، ويناضل بعد ذلك بين صفوف الطبقة العاملـة ، ويلقى القبض عليه في مايو ١٩٥٤ ، ويقدم للمحاكمـة فيدافع عن الشيوعيـة امام المحكمة ويحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات . يخرج بعدها ليواصل النضـال بين صفوف الطبقة العاملـة متفرغـا للعمل الثوري ، وهـو واحد من الذيـن وضعوا نصب اعينهم الى جوار مهامه النضاليـة اليومية ، النضال بحزم من خلال المنظمة التي كان ينتمي اليها من اجل توحيـد الشيوعيين المصريـن فـي حـزب واحـد للطبقـة العاملـة .

حينما هاجمت البورجوازية الحزب الشيوعي المصري ، الذي تأسس في ٨ ينايـر عام ١٩٥٨ كان هـو احد المسئولين الحزبيين عن منطقة شبرا الخيمة ، ويسجل له بكل تقدير انه هـو ورفيقه الشهيد رشـدي خليـل بادرا باصدار اول منشور حزبي من منطقتهمـا في ٣ ينأير ، اي بعد الحملة بيومين ، موجهين فيه النداء لعشرات الالاف من العمال في منطقـة شبرا الخيمة بالوقوف ضد حملة اعتقالات الشيوعيين ؛ شارحين الاخطار التي يتعرض لهـا الوطن وتتعرض لها حريات المواطنين من جراء رفع رايـة مكافحـة الشيوعية ، وعقب هذا المنشور تحركـات السيارات المصفحـة والدبابات لمحاصرة المنطقة ، وجد البحث عن الشيوعيين فيها وحينما اصبح وجـود الرفيق في هذه المنطقة محفوفا بالخطر انتقل الـى الوجه البحري حيث اسندت اليه اللجنـة المركزية مسئولية التنظيم الحزبي هناك ..

وهكذا يتضح لنـا لماذا كان سقوط محمد عثمان في يد العدو امرا له اهميته بالنسبة لرجال مكافحـة الشيوعية ، وبينمـا علم مكتب مكافحة الشيوعيـة المركزي بذلك كانت تعليمـاته لرجاله في طنطا هي الحصول منه على خريطة التنظيم واماكن الهاربين بأي ثمن ..

ان كلا من احمد عيد وسعيد النحاس ، اللذيـن القي القبض عليهما في نفس المنطقة يحكيان ما حدث لهما منذ القاء القبض عليهما ..

لقد طلب منهمـا البكباشي انور منصور رئيس مباحث طنطا ان يقدما اعترافـا بان محمـد عثمـان هو المسئول الحزبي لهما ، فلمـا رفضا ، ادخلا ، واحدا بعـد الاخر ، الى غرفة مغلقة ، بهـا اثنا عشر جنديا بيد كل منهم هراوة غليظـة انهالوا على كل منهمـا ضربا حتى يعترفـا ، ولكنهما صمدا للضرب ولم يعترفا .

الا ان التعذيب الوحشي المركز كـان من نصيب محمد عثمان ، الذي

استهان بتهديدات رجل المباحث ان لم يدل له باماكن الهاربين ويعطيه خريطة القوات الحزبية في تلك المنطقة ..

ادخل محمد عثمان الى تلك الفرفة ، وانهال عليه زبانية انور منصور ضربا بالعصي الغليظة وبكعوب البنادق والاحذية . وكلما سقط مغشيا عليه القوا على وجهه الماء ليفيق ، ثم يسأله ضابط المباحث ان كان سيعترف فيجيب بالرفض ، فيأمر رجال المباحث باستئناف الضرب ..

واستمرت تلك العملية الاجرامية حتى الرابعة صباحا الى ان فقد محمد عثمان النطق ، فالقوا به في مؤخرة احدى السيارات البوليسية ووضعوا الاثنين الاخرين في سيارة اخرى ، وانطلقوا بهم الى القاهرة، وامام ادارة المباحث العامة في شارع خيرت توقفت السيارتان ، وانزلوا الرفيق الشهيد محاولين اسناده ، ولكنه سقط منهم فجره الحراس من قدميه على الارض حتى وصلوا به الى حجرة في قبو اسفل مبنى المباحث العامة .

وفي تلك الحجرة حاول رجال المباحث العامة ان يعيدوا الى الرفيق وعيه حتى يعاودوا استجوابه ، ولكنه كان قد لفظ اخر انفاسه .. وفي الظلام نقلت الجثة الى مكان مجهول ..

ان الام العجوز المريضة لا تزال تلح عليهم ان يرشدوها الى قبر ابنها .. ولكنهم يرفضون ، بل وهددوها اكثر من مرة باعتقالها ان لم تكف عن الحاحها . وقدمت الام طلبا الى النائب العام تطلب فيه تسليمها جثة ابنها والتحقيق في مقتله ، ولكن النائب العام اشر على الطلب بأن يهمل .. والمحاكم رفضت ان تأمر بالتحقيق في تلك الجريمة . حينما سجل الشيوعيون الذين حوكموا امامها وقائعها طالبوا بالتحقيق فيها .

والام العجوز المريضة لا زالت تسعى بين المباحث العامة ومكتب النائب العام ومقابر المجهولين .. تسأل عن ابنها ..

لقد سلمت جثث الشهداء الذين سقطوا بعد ذلك الى ذويهم ولكن لا زالوا يرفضون الادلاء بكلمة واحدة عن جثة الشهيد محمد عثمان .. والسؤال عند رفاقه الان ، هل اذيبت في الاحماض من ذلك النوع الذي اذيبت فيه جثة الرفيق الشهيد فرج الله الحلو سكرتير الحزب الشيوعي اللبناني ، الذي قتل في احد سجون دمشق تحت وطأة التعذيب بعد ان القي القبض عليه في ظروف غامضة .

هل مزقت جثة محمد عثمان كما مزقت جثة فرج الله الحلو حتى يسهل ذوبانها في الاحماض ..؟

الفصل الخامس

الباستيل الجديد

كان صوته يرتعش وهو يلقي خطابه في احدى فرق الجيش بالعباسية في ابريل ١٩٥٩ ، كانت الكلمات تخرج من بين شفتيه مصطكة وهو يقول : « ساقضي على هؤلاء العملاء ، وسالقن الشيوعيين درسا لن ينسوه . ».

كان الخطاب والرعشة التي خرجت بها كلماته لا يعطيان الا انطباعا واحدا ...

ان جمال عبد الناصر يخوض معركة حياة او موت بالنسبة لنظامه ، انه غير واثق من نتيجة المعركة خاصة وقد خسر جولة هامة فيها وهي انقلاب الموصل الذي كان يستهدف من ورائه اقامة نظام موال له على انقاض الحريات ، وعلى انقاض الحزب الشيوعي والقوى الديمقراطية في العراق .. كان النظام يخوض معركة انتحارية تخلى فيها عن كل عرف وقانون ، كما تخلى فيها عن كل التزاماته الادبية ازاء الراي العام المحلي والعالمي ، ومن كل التزاماته بمقتضى المعاهدات والمواثيق الدولية التي وقعتها الدولة من اتفاقية مونترو الخاصة بالمعتقلين السياسيين واسرى الحرب ، الي وثيقة حقوق الانسان ..

لقد دخل النظام واجهزته تلك المعركة متخليا عن كل ما ينبغي ان يتحلى به نظام متمدين في النصف الثاني من القرن العشرين .

كان عبد الناصر يتجه بخطابه هذا ذي الكلمات المرتعشة الى قوات الجيش ، لانه كان قد نقل المعركة الى داخل الجيش .

لم يكن النظام من الثقة بمركزه للدرجة التي يستطيع بها اجراء عمليات الاعتقال داخل الجيش بصورة علنية ، فاولئك الذين طلبت ادارة المخابرات

العامة القاء القبض عليهم من المجندين كانوا يتمتعون بثقة وحب كافة زملائهم المجندين ، وكانت اية محاولة للقبض عليهم داخل وحداتهم كفيلة باثارة المتاعب .. وكثيرون منهم كانوا نشيطين في كافة المجالات وخاصة في المجالين الثقافي والسياسي ، فلقد قاموا باصدار جرائد حائط في وحداتهم يقدمون عليها تعليقاتهم السياسية على الاحداث وموضوعات تعالج الكثير من المشاكل المحلية الخاصة بالجنود او المشاكل القومية المتعلقة بقضايا الوطن المختلفة . وحينما احس اولئك المجندون ، ان النية مبيتة للقبض عليهم كانوا يتحركون بكل نشاط داخل الوحدات شارحين المخاطر التي يتعرض لها الوطن بسبب سياسة مكافحة الشيوعية ومعاداة الديمقراطية والانعطاف نحو الغرب تحت شعار انتهاء المعركة مع الاستعمار وبدء الحرب ضد الشيوعية ، كما فضحوا الاخطار التي تهدد حركة التحرر العربي بسبب سياسة التآمر على الثورات الوطنية لاخضاعها للنموذج الناصري مثل ما حدث بالنسبة لثورة العراق ، مما كون حولهم رأيا عاما قويا داخل وحداتهم ..

هذا بالاضافة الى الاحترام الذي اكتسبته الاشتراكية كحليف للشعوب المناضلة بين رجال جيشنا وخاصة بعد ان اخذت البلدان الاشتراكية تمد جيوش البلاد المناضلة ، ومن بينها جيش بلادنا بالاسلحة الحديثة . هذا الاحترام تأصل في النفوس بحيث لم يكن من السهل تقبل هذا التحول المفاجىء في سياسة عبد الناصر .

لكل هذه الاعتبارات وجدت المخابرات العامة ان مهمتها في اعتقال رجال الجيش الموضوعين في قوائمها السوداء لن تكون بالامر الهين وانها لا بد وان تلجأ الى الخديعة لانجاز تلك المهمة .

١ ــ الوجه الآخر

استدعي الجنود الذين طلبت المخابرات اعتقالهم الى مكاتب قادة الوحدات ، وابلغوا انه قد صدرت اوامر بنقلهم الى وحدات اخرى وعليهم ان يحزموا امتعتهم استعدادا للانتقال الى الوحدات الجديدة .

لم تتوجه السيارات التي اقلتهم الى الوحدات الجديدة التي قيل انهم قد نقلوا اليها ، ولكن ذهبت بهم الى ادارة المباحث الجنائية العسكرية في ميدان قصر عابدين .

وتحتل تلك الادارة مبنى بديعا مهذبا يوحي مرآه انه قد مسته اخر لمسات المدنية . ولكنه من الداخل شيء بشع .. ان مجرد ذكر اسم تلك

الادارة يثير الفزع ، او هذا ما تريد اجهزة القمع ان تدخله في روع الناس، اذ تروج بين افراد القوات المسلحة اقاصيص شتى حول تلك الادارة ، كلها تشير الى ان من يدخلها متهما لا يخرج منها حيا . . .

وصلت الدفعة الاولى من المجندين المعتقلين وعددهم عشرة، فاستقبلهم ضابط تحيط به جماعة من الجنود ضخام الاجسام ، وبادرهم قائلا : انتم لسه عايشين ، حظكم كويس ، الدفعة التي قبلكم اعدمت بالرصاص في الصحراء . كان المقصود بذلك طبعا هو ارهابهم قبيل التحقيق ، ثم سيقوا فورا الى قبو في اسفل المبنى حيث اجبروا على مشاهدة بعض الجنود ممن ارتكبوا جرائم مختلفة كالهروب من الخدمة تمارس عليهم انواع مختلفة من التعذيب . وصراخهم يدوي بين جدران القبو . وجرى تفتيش المعتقلين وسط مظاهرة هستيرية ، فلدى العثور على اية ورقة عادية ، خطاب عائلي مثلا او مذكرة ما تصايحوا « لقد وجدنا الخطة الصهيونية » او « هذا هو الدليل على انه جاسوس اسرائيلي » او « ها هي خطة الانقلات في الجيش » ثم يعقبون « لقد وقعتم ولن تخرجوا احياء » .

القي بكل واحد من المعتقلين في زنزانة اسفل المبنى يحرسه من الداخل جنديان ومن الخارج جنديان مسلحون بالبنادق سريعة الطلقات والصرخات المتقطعة تنبعث من غرفة التعذيب ؛ ومن حين الى اخر يرتفع صوت من خارج الزنازين صائحا : « ان من يقدم اعترافات كاملة هو الذي يضمن الخروج حيا من هنا » .

استدعي المعتقلون واحدا اثر الاخر الى غرفة المدير العام للمباحث الجنائية العسكرية ، البكباشي حسين عرفه ، والذي جلس الى مكتب فاخر وامامه يقف المعتقل بين مجموعة من الجنود فارعي الاجسام ضخامها ، يرتدون ملابس خفيفة تكشف عن عضلات قوية لا يكفون عن استعراضها ... وتبدأ اسئلة البكباشي حسين عرفه : « هل في اسرتك او معارفك واحد من الشيوعيين او انصار السلام ؟ » ، « هل قابلت في حياتك واحدا من الشيوعيين ؟ » ، « هل انت شيوعي ؟ : « هل تحب روسيا ؟ »، وباشارة من البكباشي حسين عرفه ينهال اولئك « الفتوات » ضربا على المعتقل اذا لم ترق اجاباته لمدير المباحث الذي يختتم استجوابه بقوله : « لا تظن انكم ستخرجون احياء ... سنرسلكم الى مكان حتى الذباب لا يعرف اليه طريقا ، واذا قدر لاحدكم ان يخرج حيا فلكي يرى اخر شيوعي في العراق وهو يموت » .

ان هذا البكباشي الدموي ، حسين عرفه ، مدير المباحث الجنائية العسكرية واحد البارزين في مخابرات النظام والذي يجري هذا التحقيق الكارثي ، هو بعينه الذي اوفده النظام الناصري رئيسا لوفد مصر في مؤتمر الشباب العالمي بوارسو عام ١٩٥٥ ، وهو احد المشرفين على تجارة مصر الخارجية ، والقصص كثيرة في الاوساط المالية عن عمليات تهريب واسعة النطاق يقوم بها لصالحه ولصالح من يدفع الثمن .

قضى المعتقلون العشرة على هذا النحو عشرين يوما ، الزنازين مغلقة عليهم ، ليل نهار ، الصراخ ينطلق بلا انقطاع من غرفة التعذيب . الشتائم والكلمات الاستفزازية .. الضرب في كل مرة يستدعى فيها المعتقل للتحقيق ... احد الضباط يلقي بمسدسه للمعتقل ويصيح به « انتحر ، فالانتحار اهون عليك من المصير الذي ينتظرك » .

ورغم كل هذا انتهت هذه الجولة بفشل رجال المباحث الجنائية العسكرية اذ لم ينطق واحد من المعتقلين بكلمة ...

في هذه القلاع التي ، رغم مظهرها المتمدين ، تعيش من داخلها اساليب العصور الوسطى ، حشد النظام لممارسة التعذيب والارهاب جنودا تلقوا تدريبات خاصة تنتزع منهم كل المشاعر والنوازع الانسانية ولكن حتى في هذه البقع حالكة السواد كان هناك رجال لم يستطع النظام ان يجردهم من طباع شعبنا وسماحته ، وحبه وتقديره للذين يواجهون الاهوال كرجال .. بل كان هناك ايضا من يحملون للشيوعيين ما يحمله شعبنا لهم من تقدير ... في وسط هذا الظلام كانت هناك ايد طيبة تمتد خلسة في المساء للمعتقلين بالطعام الذي منع عنهم ، او بالماء .. بكلمة تشجيع .. باخبار ما يبيت لهم .. او يحكون لهم عن اعجاب الجنود الذين يعملون في الادارة بشجاعتهم وصمودهم ..

وكانت لحظة لن ينساها هؤلاء الرفاق ، حينما فوجئوا بحراسهم الذين كانوا يبدون غاية في الغلظة يحتضنونهم ، ويعتذرون عما بدر منهم من تصرفات عنيفة ، فالاوامر والارهاب يجعلون الناس ، يعيشون بطبيعة غير طبيعتهم .. وبعد ذلك الوداع السريع ، اقتيد المعتقلون خارج زنازينهم وسار بهم حرس مدجج بالسلاح الى الخارج .. وعلى طول طرقات المبنى كانت هناك عيون تطل عليهم بنظرات الاسى ، ومن هنا او هناك كان هناك من يلوح بيده من الحراس خلسة ، وبحركة خفية مودعا ومشجعا ...

ومن بعيد ، وفي ركن قصي وقف بعض الحراس يلوحون بايديهم خلسة

لرفاقنا العشرة وهم يصعدون الى سيارة حربية كانت تنتظر امام الادارة، كان الحراس يحاولون التزود بنظرة اخيرة من المعتقلين قبيل رحيلهم الى مصير لا يعلمونه ، كان من بينهم من لم يستطع ان يحبس دموعه، ورآهم رفاقنا وهم يرفعون مناديلهم الى عيونهم ليخفوا قطرات دمع تساقطت منها .. كل شيء كان يشير الى ان المصير الذي يسيرون اليه مصير رهيب جعل اغلظ الحراس يودعونهم بنظرات حزينة .

انطلقت السيارة تخترق شوارع القاهرة ، ورفاقنا يلتهمون باعينهم كل ما يمرون عليه .. الشوارع ، الواجهات الزجاجية .. الاعلانات الكهربائية .. الحدائق والناس .. الاطفال والنساء .. فلقد تملكهم شعور انهم لن يروا من كل ذلك شيئا .. والحراس الذين معهم في السيارة يرقبون كل ذلك ويتألمون ولا يملكون الا كلمات التشجيع .. « شدو حيلكم » .

خرجت السيارة من القاهرة ، واطبق رفاقنا اعينهم على اخر صورة منها ، والسيارة تنعطف بعد العباسية الى داخل الثكنات ، وتظل تتجول بهم من ثكنة الى اخرى مدة ساعتين ، تخرج بعدها الى الصحراء .

وظلت تسير ، ولا يبدد السكون سوى صوت المحرك .. وفي داخل العربة قلق .. وترقب .. واعصاب متوترة .. وافكار شتى تراود اذهان المعتقلين العشرة .. وصور كثيرة تتراءى لهم .. وتلح على خيالاتهم دورهم التي خلفوها ، بها ام او اب .. واخوة واخوات .. واماكن ارتادوها مع اصدقاء او خطيبات .. ورفاق هاربون .. يناضلون في اقسى الظروف ويوصلون كلمة الشيوعية بكل وسيلة الى الناس في بلادنا .. حتى يؤكدوا ان الشيوعية لم تمت ولن تموت في ارضنا ... وبعد بضعة كيلومترات مرت السيارة ببوابة عسكرية عليها حراسة مشددة ، وبعد فترة اخرى مرت ببوابة ثانية .. ثم ثالثة ورابعة .. وادرك رفاقنا الى اين يساقون .. فامام البوابة الاخيرة توقفت السيارة ، واستطاع الرفاق ان يقرأوا في اعلاها لافتة كبيرة كتب عليها بحروف كبيرة .

(٢ ـ السجن الحربي)

هاتان الكلمتان لم تكونا لتعنيا اي شيء غير عادي قبل يوليو ١٩٥٢ فلم يكن السجن الحربي سوى سجن كغيره من السجون ولكنه مخصص لرجال الجيش الذين تصدر ضدهم احكام من المجالس العسكرية .

ولكن منذ جاء الناصريون الى الحكم في ٢٣ يوليو اكتسب هذا السجن

سمعة سيئة في طول البلاد وعرضها . فلقد غدا بالنسبة لمصر بعد ٢٣ يوليو كما كان الباستيل بالنسبة لفرنسا ما قبل الثورة . لقد غدا هـذا السجن مكانا يمارس فيه النظام عمليات التأديب والانتقام ضد كل معارضيه .

لم يكن قد مر على ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ اكثر من شهرين حينما سيق الى هذا السجن اعضاء اللجنة التحضيرية لاتحاد عمال مصر في سبتمبر ١٩٥٢ على اثر العدوان الوحشي على عمال كفر الدوار وشنق العاملين البطلين مصطفى خميس ومحمد البقري ، على اثر الاضراب الذي قام به عمال كفر الدوار من اجل مطالبهم .. وفي ذلك السجن مورست عمليات التعذيب على اعضاء اللجنة التحضيرية لاتحاد عمال مصر لانهم احتجوا على اعدام خميس والبقري .. ولاثنائهم عن المضي في تكوين الاتحاد .. والى هذا السجن سيق الصحفيون المعارضون للنظام ، ففي مارس ١٩٥٤ سيق احسان عبد القدوس رئيس تحرير مجلة روز اليوسف انذاك الى السجن الحربي لتأديبه على اثر مقال كتبه عن « العصابة السرية التي تحكم مصر » منددا باتجاه مجلس قيادة الثورة غير الديمقراطي ، ومن يومها القى احسان عبد القدوس بكل ثقله خلف النظام وتخلى عن كل آرائه السابقة .

والى هذا السجن ايضا سيق عبد الرحمن الشرقاوي الكاتب المعروف لما لمسوا فيه من اتجاهات مناوئة لهم عام ١٩٥٤ ، وفي اعقاب محاولة احد اعضاء جماعة الاخوان المسلمين اغتيال جمال عبد الناصر في اكتوبر ١٩٥٤ سيق الى هذا السجن ما يزيد على ٨٠٠ من اعضاء هذه الجماعة، ومورست عليهم عمليات التعذيب الجماعي راح ضحيتها عشرات منهم دفنوا سرا .لقد كان في السجن الحربي يومها الصول محمد مختار جمعة تحت التحقيق لنشاطه الشيوعي . وقد شهد هجوما وحشيا بالسناكي والقضبان الحديدية على معتقل الاخوان المسلمين بعد ان قيدوا كل واحد منهم من خلف بقيد حديدي ، ومات يومها متاثرا بجراحه ستة من هؤلاء الاخوان واصيب حوالي ثمانون بجراح خطيرة ، وكان ذلك كله انتقاما منهم لان احدهم وهو يوسف طلعت المتهم في قضية الجهاز السري تجرأ على ان يسجل امام محكمة الشعب العسكرية تفاصيل التعذيب الذي مورس ضده ...

اما الصول محمد مختار جمعه فقد جلد على قدميه اكثر من الف جلدة ، وبات ليلتين في زنزانة محكمة عاريا وسط مياه تصل الى صدره، وكوي جسده بالاسياخ الحديدية المحماة لدرجة الاحمرار ، واطفئت اعقاب السجائر في اجزاء مختلفة من جسمه وربط بين لوحين من الثلج حتى ذابا،

وعلق من قدميه وضرب بالسياط .. ومنع عنه الماء لمدة يومين .. كل ذلك لكي يوقع على قائمة اعدوها وقدموها له تحوي اسماء عدد من الضباط يريدون التخلص منهم ، وذلك باجباره على التوقيع تحت اسمائهم بانهم اعضاء شبكة شيوعية داخل الجيش ... ورفض ..

ان السجن الحربي معرض لكل اساليب التعذيب البدني والنفسي تقف على راسها ما يسمى « طاقية الثورة » وهي عبارة عن طوق حديدي تحاط به رأس الضحية ثم يقفل بمفاتيح زمبركية حتى يضغط تماما على الراس وهنا تبدأ المساومة مع الضحية فاما الاعتراف او مزيد من احكام الطوق وتزداد لفات المفتاح حتى يكاد ذلك الطوق ينفرس في عظام الجمجمة، ان كل من مورست ضده هذه العملية البشعة انتهى امره بالجنون ..

والكلاب الوحشية المدربة التي تطلق على الضحية فتلقيه ارضا وتأخذ في نهش لحمه .. والكي بالكهرباء .. لقد تحول هذا السجن الى مكان تنبعث منه على الدوام رائحة الارهاب ، ولم تعد هذه المعاملة الهمجية قاصرة على الخصوم السياسيين بل حتى على الجنود المحكوم عليهم بعقوبات يقضونها في السجن الحربي ، حيث ينهال الضرب والتعذيب على كل منهم لدى وصوله السجن الحربي ، ولا يتوقف الا اذا اختار لنفسه اسم انثى لكي ينادى به طول اقامته في السجن ...

ان العمليات الانتقامية تصل الى حد اجبار الجنود المعاقبين على التخلي عن رجولتهم ...

في عام ١٩٥٤ تمكن ثلاثة من هؤلاء الجنود من الصعود الى سطح السجن وظلوا هناك الى ان حضر الصاغ حمزه البسيوني قائد هذا السجن فالقوا بانفسهم من سطح السجن الى الارض وسقطوا جثثا هامدة احتجاجا على ما لاقوه من معاملة مخزية ...

وفي عام ١٩٥٩ وبينما كان رفاقنا الشيوعيون في ذلك السجن تمرد الجنود الذين يقضون عقوباتهم به .. وتم اخماد تمردهم بكل وحشية وسقط من الجانبين في ذلك الصدام عشرات من القتلى .

ان هذا السجن هو الباستيل الذي يحلم الشعب بتحطيمه كاعلان عن نهاية الارهاب في مصر ...

نزل الرفاق العشرة من السيارة ، وتعانق ضباط الحرس المرافق لهم مع ضباط السجن الذين كانوا في الانتظار ، وارتفعت ضحكاتهم وتعليقاتهم كلها استخفاف واشمئزاز ... ثم بدأت « حفلة الاستقبال » ...

و « حفلة الاستقبال » هذه هي احد المراسيم التي لا بد من القيام بها عندما يصل وارد جديد الى السجن الحربي ، وهناك فرقة خاصة مكونة من ستمائة جندي مخصصة لهذه « الحفلات » .

حينما خطأ رفاقنا العشرة باب السجن برز عشرات من الحراس فارعي الطول ، ضخام الاجسام وانهالوا على الرفاق العشرة بكرابيج من السلك المجدول وبالعصي الغليظة .. ضربا .. ضربا متصلا ، على الوجه ، على الراس ، على الرقبة ، على الصدر ، على اي مكان بلا تمييز ، كانوا يضربون وكأن ضرباتهم لا تهوي على أجساد بشرية لها طاقتها المحدودة على الاحتمال .. ومن كان يسقط ارضا كانت تنهال عليه ركلات الاحذية العسكرية الثقيلة، في وجهه ، وبطنه ، ومن فقد الوعي كمن لم يفقده .. لا يعفيه هذا من سيل الضربات المنهمر .. وينادي الحراس المكلفين بالاستقبال زملاءهم ليشاركوهم ذلك الحفل .. ومن كان يمر من الحراس ويشهد ذلك الحفل كان يتقدم متطوعا للمشاركة فيه ، ففي هذا المكان تجري عملية من اخس ما عرفه التاريخ . ان النظام يشتري من الحراس آدميتهم ويمنحهم ما يسمى «علاوة اجرام » زيادة على راتبهم الشهري ، وتزداد قيمة تلك العلاوة بقدر ما تتزايد شراسة الحارس ، وبقدر ما يشهد له رؤساؤه ، بغلظة الطباع وقسوة القلب ... سباق في التخلص من الطبيعة الادمية من اجل بضعة جنيهات تساعد هذا الحارس او ذلك على اعالة اسرته ...

وتنتهي الفقرة الاولى من برنامج الاستقبال بالمعتقلين وقد تمزقت ملابسهم وتمزقت من تحتها جلودهم ، وتكسرت من تحتها ضلوعهم ... وسالت دماؤهم ، وفورا ودون ان يمنح الضحايا لحظة واحدة يستردون خلالها انفاسهم تبدأ الفقرة الثانية من الاستقبال .. مرحلة الضرب المنظم .. يلتف عدد من الحرس بالضحية ، ويلقونه ارضا ، وبما يسمى بالفلكة ترفع قدماه عاريتين ليضرب عليهما لا خمسين ، ولا مائة ،بل ثلاثمائة ، واكثر من ضربات الكرباج المصنوع من السلك المجدول .. ان الحارس الواحد لا يستطيع ان يضرب اكثر من خمسين كرباجا يتخلى بعدهالحارس اخر ، والمعتقل المسكين مفروض فيه ان يتحمل مئات الضربات ..

والفلكة هذه عبارة عن عصا غليظة يتدلى من وسطها حبل مربوط بهما من طرفيها بحيث يتدلى فيما يشبه نصف الدائرة ، تدخل قدما الضحية فيها ثم تبرم العصا حتى يحكم وثاق القدمين جيدا بالحبل ، ويرفع العصا من كل من طرفيها احد الحراس فترتفع معها القدمان

مما يضمن بقاءهما في وضع ثابت تحت الكرباج ، واسم الفلكة اسم شائع في بلادنا منذ عهد بعيد ، ولا يتحدث مؤرخ عن الاضطهاد الذي لاقاه فلاحونا طوال القرون الا ويذكر الفلكة والكرباج . فايام المماليك حينما كانوا يعهدون لمن سموا في ذلك الوقت بالملتزمين بتحصيل الضرائب من الفلاحين ، كانت الفلكة والكرباج هي وسيلة اجبار الفلاح على الدفع ، او عقابه ان عجز عن الدفع .. وحينما وزع سعيد باشا الاراضي الزراعية على اقربائه ومعاونيه ، وبدأ هؤلاء يبنون القصور في الريف كان بكل قصر قبو تمارس فيه عمليات الجلد بالفلكة والكرباج لتأديب اي فلاح يأتي ما من شانه اغضاب السيد سواء بالتقصير في العمل ، او بالامتناع عن تقديم زوجته او ابنته او اخته له . .

انتشرت الفلكة والكرباج بحيث لم تعد قاصرة على السادة اصحاب القصور بل انتقلت العدوى الى اغنياء الريف وعمد القرى ، فلجاوا الى وسيلة تأديب الفلاحين بالفلكة والكرباج .. ورغم القضاء على الكثير من اثار العصور الوسطى في بلادنا فما تزال الفلكة والكرباج باقيتين ، وكما كان السادة الاقطاعيون والعمد يؤدبون الفلاحون بهما في افنية القصور او في الدوار الملحق ببيوت العمدة ، كان النظام الناصري يؤدب معارضيه بهما . لقد ظل عمالنا يتحدثون طويلا عن ذلك اليوم من عام ١٩٥٣ حينما القي القبض على حوالي ٤٠ نقابيا كانوا قدموا عريضة يطالبون فيها باصدار قانون للتامين ضد البطالة ، وذهب بهم رجال الامن الى وزارة الداخلية حيث علقوا جميعا واحدا بعد الاخر بالفلكة في فناء وزارة الداخلية ، وضربوا على اقدامهم تحت اشراف محمد وفاء حجازي ضابط المخابرات ومما يدعو للسخرية ان محمد وفاء حجازي هذا اصبح ممثلا لمصر في مكتب العمل الدولي التابع للامم المتحدة — ثم اخلي سبيلهم .

وبانتهاء الفقرة الثانية من حفل الاستقبال — اي الفلكة والكرباج — يزحف كل من المعتقلين الى زنزانة عارية تماما ، ولا يكاد يلقي بنفسه على ارضها الحجرية حتى يقفز الى داخلها وحشان .. كلبان ضخمان مدربان ، ما يكاد الحارس يهوي بسوطه على راس السجين حتى ينقض عليه الكلبان يعملان في جسده التمزيق ويأمر الحارس السجين بخلع كل ملابسه حتى يصير عاريا تماما . . أن قصص الاعتداء على رجولة من يلقي به حظه التعس الى هذا السجن كثيرة ، ولذلك فقد رفض الرفاق بكل

اصرار خلع ملابسهم ، فينهال الحارس بسوطه وتثور ثائرة الكلاب على صوت السياط ، وتنقض مسعورة على السجين انتعس الى ان يرقد كومة لحم داميــة لا حراك فيها .

وهكذا ينتهي حفل الاستقبال .

ان المعتقل ليس له بعد ذلك ان ينام نهارا او ليلا ، فكل نصف ساعة اثناء الليل ينادى على اسماء المعتقلين واحدا واحدا ، وعلى كــل منهم ان يجيب بأعلى صوته « افندم » انــا في زنزانة رقم .. وويل لمن يغلبه النوم ولا يــرد ... الحارس والسوط والكلاب مرة اخرى ..

اما النهار فيبدأ بفتح الزنازين في الصباح ، وجبة الفطور كما يسميها الحراس ، هي جولة اخرى من الحارس ،والسوط والكلبين .. وبعد ذلك يساق المعتقلون بالخطوة السريعــة حاملين كل امتعتهم الى فناء السجــن تطاردهم سياط الحراس ، ويصطف المعتقلون ووجوههم الى ســور الفناء واقفيــن في وضع « انتباه » ،ثماني ساعات ، من الثامنة صباحا حتــى الرابعــة بعد الظهر ، تحت الشمس المحرقة ؛ والجروح التي لم تضمد ولم تحظ حتى بمن يغسل عنهــا ما علق بهــا من اتربة .. وبالملابس العسكرية الثقيلــة .. ومن حيــن الى اخــر يمر بهم من الحرس من يفاجئهــم بضربات من سوطه ، وويل لمن يتحرك ..

كان سعيد الحظ من يقع منهم مغشياً عليه ، فعلى الرغم من انذلك كان يجلب له اثنيــن من الحرس ينهالون عليــه ضربا بالسياط وركــلا بالاحذيــة الا ان ذلك كان يعطي عضلات جسده ، فرصة ان تسترخي ولو للحظات بعــد ان تصلبت بسبب تلك الوقفة .. ويمر بهم من يقول : ليس هنا ابطال .. البطل هو من يعترف ويقدم معلومــاته ، كــل مــن يعترف يخرج .وتكافئه بالمال ايضا . لقــد بلغ عدد من حشدوا في السجن الحربي من المجندين المعتقليــن سبعين مجندا ،وكان بينهم من تهاوى تحت وطأة هذا التعذيب المركــز ..

كانوا يأتون باولئك الذيــن انهاروا ليقفوا الى جانب الاخرين ، ولكن يسمح لهم بالوقوف في وضع « استرح » .. ان مجرد تلك الوقفة كانت تمثل حلمــا للذيــن يقفون « انتباه » . فالواقف طوال تلك الساعـــات الثمانيــة يوميــا لا يفكــر في شيء .. لا في الحياة ..ولا في الشارع.. لا يفكــر في اهله ولا في اصدقائه ولكــن تتركز كل إحلامهوخيالاته فــي دقيقة ، بل في ثانيــة يريح فيهــا عضلاته بالاسترخاء في وقفته كما يقف

اولئك المنهارون .. وطبقا للتعليمات يتحدث اولئك المنهارون ، ويصل صوتهم الى الرفاق كفحيح الافاعي.. « لماذا تضحي بنفسك .. لماذا تحاول ان تكون بطلا ؟. لقد سمعت ان الكثيرين اعترفوا ونجوا بجلدهم .. اعترف .. اعترف .. ان الحياة حلوة .. لم يعد هناك امل .. لقد اعتقلوا الجميع .. ليس هناك امل .. لقد انتهى كل شيء ..وسنموت من اجل لا شيء .. لماذا تضحي بنفسك .. اعترف .. اعترف ... »

يقول رفيقنا الذي يروي قصة السجن الحربي : « لم يكن يمنعني من ان ابصق في وجه ذلك الذي يصدر هذا الفحيح الا ان لعابي قد جف تماما فلا ماء طوال تلك الساعات الثمانية ، بل لا ماء طوال اليوم كله الا نصف كوب كنا نشربه ونحن نؤدي خطوة تنظيم عسكرية سريعة مما يجعل الماء يتناثر ولا ينال الواحد منه سوى قطرات ، ومن تسقط كوبه من يده فلا ماء له طوال اليوم ، طوال الاربع والعشرين ساعة بكل ما فيها من اجهاد واعياء .. كان هناك من استبد به العطش فتبول في حذائه وشرب بوله ...

وبعد ايام جاء رجال المخابرات للتحقيق مع المعتقلين على راسهم اليوزباشي شمس الدين بدران مدير مكتب المشير عبدالحكيم عامر . . وجيء بالمعتقلين فوقفوا صفا في حديقة امام مبنى ادارة السجن ، بها زهور جميلة ، بنفسج ، وقرنفل ، واركاديا ، وبها ورود يختلط اريجها برائحة الزهور بهواء الصباح الرطب .. لقد اخذ الرفاق يملأون صدورهم من كل ذلك .. وكان له فعل السحر .. وكأنه اشبع جوعهم .. وكأنه روى ظماهم .. وكأنه غسل جروحهم من كل ما تجمع عليها من صديد ودم واتربة .. وواحدا بعد الاخر يدخلون المكتب ويخرجون ، انهم طبعا يرفضون الكلام فيلقى بالواحد منهم بين تلك الزهور والورود ، لتنقض عليه الكلاب تمزق جسده ، وصوت يصيح : « الموت لمن لا يعترف » ، « لا شيوعية في بلادنا .. سنقضي على كل الشيوعيين هنا وفي العراق.. سنذبحهم ..» . ان الامر يحتاج الى صلابة غير عادية حتى يواجه المرء ذلك التعذيب دون ان يفتح فمه .. ولكن المجند محمد طه ، وهو مثقف ريفي من الدقهلية ، حينما يأتي دوره يواجه شمس الدين بدران قائلا : « انني احتج على هذه الاعمال الاجرامية .. انكم تنسبون للعراق كل الجرائم التي ترتكبونها هنا .. انكم تدعون ان هناك سحلا وذبحا في العراق ، بينما تمارسون انتم ذلك هنا .. » ويجن جنون شمس الدين

بدران ورجاله .. فهذه اول مرة تقريبا يسمعون فيها كلمات مثل هذه في السجن الحربي .. ولا يجب ان تمر في سهولة ، فان هذا يعني ان سمعة السجن الحربي كمكان لاذلال اشجع الرجال ستتدهور ...

لقد كان يوما من الايام المعدودة في السجن الحربي .. حيث عربدت كل قوى الشر ، وانطلقت تعبث باجساد المجندين السبعين وينال محمد طه النصيب الاوفى ، اذ يضرب ثلاثمائة كرباج ثم يطرح ارضا ليركل بالاحذية ثم تطلق عليه اربعة كلاب ، ويقف شمس الدين بدران ،وحمزة البسيوني قائد السجن ، وحسن طاهر رئيس الامن الداخلي بالمخابرات يرقبون المنظر حتى اذا احسوا انهم قد غسلوا الاهانة يأمرون بالقائه في زنزانته .. كتلة من اللحم تنزف دما وصديدا ، ولحظات رهيبة تلك التي عاشها بعد ذلك .. « حينما استطعت تحريك احد ذراعي اخذت اتحسس جسدي، فاذا بالجزء الذي لم يصب بجرح قد تورم ، واذا بالجرح الذي ينزف دما ينزف صديدا » .

« كان الالم يشتد بي لدرجة الجنون . وكنت اتطلع حولي فأرى بقع الدم تلطخ ارض الزنزانة وجدرانها ، دم ما زال حارا نزف مني، ودماء قديمة سالت من تعساء ساقهم حظهم قبلي الى هذا المكان .. كنت اعلم انهم سيستدعونني بعد ساعتين او ثلاثة للتحقيق ، رغم ما بي ، وكنت اعلم انهم سيعاودون التعذيب . .كان الصوت الذي يشبه فحيح الافعى يطن في اذني « الحياة حلوة .. لم تضح بنفسك ؟ ستموت ، ولن يذكرك احد، فلم يعد هناك احد ، لا امل .. اعترف .. اعترف ..»

وتبرز امام عيني صور العالم فيما وراء الاسوار .. شوارع القاهرة مليئة بالحياة .. النيل والكازينو الجميل عند اسفل الكوبري .والانوار تنعكس على صفحة الماء .. والاطفال والرجال والنساء .. واهلي .. وبلدتي .. وشبح كوب من شراب بارد .. ووجبة دسمة .. وسيجارة ، ويعود الطنين .. « الحياة حلوة » .

ولكن اذا ما خرجت . .ويقول كل من رآني اني اشتريت الحياة بضميري .. وبحياة الاخرين الذين اعترفت عليهم .. اني زحفت الى الحياة تحت اقدام من يكنون لي الكراهية والعداء ، هل ستكون هذه حياة حلوة .. والذين منحوها لي هم احط المخلوقات ؟ . واصدقائي ورفاقي .. الذين عشت بينهم دائما رجلا .. هل ستكون الحياة

حلوة ، وانا اعيشها بينهم مهزوما .. ستكون هذه حياة وانا اموتها كل لحظة .. اموتها كلما سألني انسان كيف نجوت بحياتك من السجن الحربي ؟. اموتها كلما سألني انسان عن السجن الحربي فاطرق برأسي ولا استطيع ان اقول له كيف خرجت منه .. وماذا كان الثمن .. وكلمات التشجيع التي سمعتها من الحراس في ادارة سجن المباحث الجنائية .. هل اخذل تلك الكلمات .. لن تكون هذه حياة ،بل ستكون موتا متكررا وضيعا ، الموت هنا خير منها ، فهو على الاقل هزيمة لاولئك الذين يبقونني على حافته حتى اتكلم .. ولكن طالما انني لن اعترف ، وطالما سيستمرون في تعذيبي الى ان اموت ، فلماذا لا اسارع بالموت .. فكرت في الانتحار وبحثت جديا عن وسيلة انتحر بها ، الا ان خاطرا عاد فأقعدني عن الانتحار .. اذا مت من ذا الذي سيحكي للعالم تلك الجرائم .. من الذي سيكشف للعالم وجه النظام الدموي ،من ذا الذي سينتقم .. وقررت الا اموت ، وان اقاوم ... وان اتشبث بالحياة .. حتى استطيع ان احكي للعالم عن تلك العصابة الدموية ..»

٣ ـ في ادارة المخابرات

واذا كان من العسير على المرء ان يتصور ذلك الذي حدث في السجن الحربي ، فسيكون اكثر عسرا ان يتصور ان مرحلة اخرى كانت تنتظر الرفاق .. فلقد توقف التحقيق في السجن الحربي ، لينتقل الى ادارة المخابرات بكوبري القبة ، كان المعتقلون ينتقلون من السجن الحربي الى ادارة المخابرات جماعات حيث يجلسون القرفصاء في دائرة ، وكل بدوره ، يعلق الواحد من قدميه ويربط في سقف الحجرة بحيث يتدلى جسده كذبيحة وراسه الى الارض وينهال الضرب على كل جزء من جسمه ، ثلاث ساعات او اربع ، وعلى زملائه الجالسين القرفصاء ان يظلوا شاخصين بابصارهم اليه ، ومن اشاح بوجهه ، او خفض بصره يرده كرباج يهوي على رأسه الى الوضع المطلوب .. ثم تفك الضحية بعد تلك الساعات الطويلة من الضرب، وتؤخذ الى الفناء حيث يربط الى ساق شجرة ويظل هكذا حتى صباح اليوم التالي ويوكل به الى احد الحراس ليذيقه من حين لاخر بعض السياط. حتى اذا كان الصباح يجر من قدميه الى مكتب ضابط التحقيقات ، ويطلب منه الاعتراف ، وبصمت ، وكثيرون هم الذين صمتوا ، فتأتي الوان اخرى من الكي بالكهرباء في الاماكن الحساسة من الجسد .. ويعاد الى السجن الحربي ، ثم يعود الى ادارة المخابرات في اليوم التالي ، وتتكرر العملية

الاجراميــة بالنسبة للجميع ..

ان السجن الحربي بكلابه المتوحشة وكرابيجه وكل ما به ، كان بمثابة الراحــة للمعتقليــن بيــن كل مرة واخــرى يذهبــون فيهــا الى ادارة المخابــرات .

كثيرون كانوا يضربون رؤوسهم في جذوع الشجر الذي ربطوا اليــه محاولين الانتحار ، كثيرون من الديــن تركوا ملقون على ارض الفناء عاجزين عــن الحركة .. كانوا يملأون افواههم بالرمل والحصى على امل ان يؤدي ذلك الـــى موتهـم ..

ان كل واحد من السبعين معتقلا على استعداد ان يؤكد هذه الجرائم البشعة .. المجند محمد طه .. المجند عاطف بسيوني ، فــوزي عطية ، محمد فوزي عبدالحي ، طه محمد طه ، عبدالخالق خضير ، حلمي العطار، صفوت العباسي وعشرات غيرهم . .البعض ذهب التعذيب بصوابه ،واصيب بالجنون .. البعض تهشمت جمجمته وتعفنت جراحها وانتشر فيها الدود..

الجندي المتطوع محمد هلال ذاق كل مراحل التعذيب هذه ، وبترت ساقه بعد ان اصيب بالغرغرينا ، لم يكــن شيوعيا ، ولم يكــن لـــه اي نشاط سياسي ، كل جريمته ان اخاه شيوعي ، وتمكــن من الهرب ، فالقي القبض عليه رهينة وذاق كل هذا التعذيب انتقامــا من فرار اخيه .

٤ ــ عمــلاق من الصعيد .

مثل الالاف من ابناء الصعيد ، هاجر من قريته في مديرية جرجا ،هربا من الفقر ، لكي يبحث عــن عمل في القاهرة ، وانتهى به المطاف الى احــد مصانع النسيج ، وهناك تلقى اول دروسه في الصراع الطبقي، رأى الآلــه تعتصر دمه ودماء الالاف ذهبا تصبه في جيوب الراسماليين ، ورأى الدولة تقف الى جانبهم ضد العمال بقوانينها وقضاتها ، وبوليسها وجيشها ،وشاهد الدبابات تحاصر المصانع حينمــا يضرب العمال من اجل مطاليبهم ،ومن خلال كل ذلك ادرك اهمية التنظيم السياسي للبروليتاريا ، فانضم الى احــدى المنظمات الشيوعية التي تكون من مجموعهــا الحزب الشيوعي المصري فيما بعد ، وظل يناضل وسط العمال لربط حركتهم بالحركة الاشتراكية ،الــى ان طلب لاداء الخدمة العسكرية . وذات ليلة وبعد ان عاد الى وحدته فــي الاسكندرية من زيارة زوجته الحامل ، القي القبض عليه ، وجيء به الى ادارة المخابرات في القاهرة ، في ٢ يوليو ١٩٥٩ ، كانت عمليات التعذيب ما زالت

مستمرة ضد المجندين المعتقلين من اوائل ابريل ، وفي ادارة المخابرات مورست ضده كل صنوف التعذيب المركز، حتى يعوضوه مافاته طوال الشهرين الماضيين ، لقد دهش حراس السجن الحربي حينما نقل الى هناك من ادارة المخابرات اذ رأوا اثار التعذيب بصورة لم يكونوا يتصورونها، فهم كما قال احدهم لم يكونوا يتصورون ان هناك في اماكن اخرى قوما اشد منهم اجراما .

وفي اليوم التالي أعيد الى ادارة المخابرات حيث علق من قدميه ، واستمر ضربه لمدة اربع ساعات ، ثم انزل وسئل ان كان سيعترف فاجاب في كل اباء ابناء الصعيد : « لن تأخذوا مني كلمة واحدة » فعلق في شجرة بالفناء وواصلوا ضربه ، ثم توقف الضرب ليسألوه ان كان سيعترف فكرر اجابته ، انهم لن يأخذوا منه كلمة .. فربطوه في مؤخرة سيارة جيب ، وواصلوا ضربه حتى فقد وعيه ، فالقوا به ارضا الى جوار زميل له هو المجند فوزي عطية الذي سمع حشرجات تصدر منه وتنم عن انه يحتضر، فجاهد بقدر ما سمحت به حالته ، وكان هو الاخر قد انتهى من جولة تعذيبية ، حتى اسند راسه الى صدره واخذ يهش عن وجهه الذباب ..ولم تمض لحظات حتى لفظ المناضل الرفيق مصطفى شوقي البهنساوي نفسه الاخير على صدر زميله .. فمدده على الارض ..

وحضر ضابط المخابرات فضربه بحذائه على رقبته قائلا : يا ابن الكلبة لا تتصور انك ستخدعنا بتظاهرك بالموت فسنقتلك حقيقة .. وانهال عليه هو وبعض الحراس ضربا .. الى ان اكتشفوا انه قد مات حقا ، فحملوا الجثة بعيدا ، ودفنت سرا ...

الفصل السادس

الموتى يشهدون

كانت السيارة تعلو وتهبط مع مرتفعات الطريق الصحراوي ومنخفضاته الكثيرة ، ومع كل مرتفع كانت الانوار الامامية للسيارة يتسع مداها فيستطيع المرء ان يرى جزءا من الصحراء على جانبي الطريق ، حتى اذا استوى الطريق ضاق ذلك المدى وانحصر الضوء في الطريق الاسود ، ومع الصعود والهبوط ، ومع اتساع مدى النور وضيقه ، كان المرء يحس وكأن غربانا ذات اجنحة هائلة ترفرف بأجنحتها وتنشر ظلالا سوداء على كل شيء .. حتى صوت المحركات غدا ، بفعل رتابته ،اشبه باطار لتلك الصورة المقبضة من الظلام والصمت .. مائة وعشرون مواطنا ، كل اربعين مقيدين في سلسلة واحدة ، حشروا في ثلاث سيارات نقل كبيرة مغلقة وتقدم القافلة سيارتان من سيارات البوليس المسلحة وفي مؤخرتها ثلاث سيارات مماثلة، يخلفون وراءهم القاهرة في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، يخلفونها هادئة صامتة ، هدوءا وصمتا لا كذلك الذي تأتي به تلك الساعة المتأخرةمن الليل ، ولكن هدوءا وصمتا من ذلك النوع الذي يحل بجسد انتزع منه القلب ، ولقد كانوا قلب الحياة ، ولقد انتزعوا منها حتى تعربد المأساة ، وتعمل التمزيق في ذلك الشعب الحبيب ، دون ان يستطيع المقاومة وقد جردوه من قلبه . .كانت الصحراء تبتلعهم بصمتها وظلامها ، الى مصير مجهول ، والعيون تتشبث بآخر خيط من اضواء القاهرة ، فلا احد يدري متى يراها ثانية .. ولكن ابدا سيظل القلب ينبض .. مهما كان عدد الذين اعتقلوا من ابناء الحزب ، فهناك رفاق ما يزالون بين صفوف الشعب، ومهما كان ظلام المأساة ، فالشيوعية لم تمت ولن تموت .

ولقد خلف الشيوعيون خلفهم في وجدان الشعب رصيدا هائلا من

الاعزاز والحب ومن الوعي بحقيقة من يعادون حق الشعب في ان يكون سيد نفسه ، رصيدا هائلا من الثقة بالشعب وقدرته على ان يقول كلمته في مقدراته ، رصيدا ستصطدم به كل المحاولات لفرض الوصاية على ذلك الشعب العملاق .. وبهذه وغيرها من الكلمات كان الرفاق يتحدثون بعد ان غابت القاهرة تماما عن الابصار ، وانطلقت الحناجر من العربة الاولى ...

الحزب الشيوعي المصري
نبنيه بعزيمتنا
وندك الاساس خرسانه
من وحدة ارادتنا
وتتعالى الحناجر من السيارتين مرددة نشيد الحزب :
من بين الجموع بنيجي
ولبين الجموع بنعود
وننظم عتر (١) طبقتنا
في جيش الطليعة جنود

ويصدر امر بان تتوقف القافلة وينزل الجنود من السيارات البوليسية ويحتاطون بالسيارات التي تقل الرفاق ، ويصيح احد الضباط المسئولين عن الرحلة بالحراس الذين في السيارة : « مش عاوز اسمع صوت ، اللى يرفع صوته اضربه بكعب البندقية في وشه » .

اذن فهم يريدون ان يفرضوا علينا الصمت كما فرضوه على بلدنا.. ولكن لا .. وترتفع الحناجر متحدية ملتهبة حماسا تستمد تحديها من عظمة شعبنا الذي قاوم الطغيان اجيالا .. ومن عمال دار السلام الذين تجمعوا امام قصر الجمهورية يوم الخميس ٢٧ مارس ، قبل ان تبدأ الاعتقالات بيوم واحد ، يهتفون ورصاص النظام ينهال عليهم « يسقط الطغيان .. تسقط الديكتاتورية » وترتفع الحناجر منتشية بفعل حملة الاحتجاجات الغاضبة التي اجتاحت كل الاوساط التقدمية في العالم على الحملة ضد الشيوعية والشيوعيين في مصر ، وترتفع الحناجر شامخة وكلمات خروشوف في المؤتمر الواحد والعشرين تدوي مدافعة عن الشيوعيين العرب :

---

(١) العترة بالمصرية الدارجة تعني الفتى الشجاع المقدام .

القيد اللي كـان بيكتف
والسجن اللي بابه حديد
والظلم اللي قام يتحكم
من تحته الاساس بيميد
شيوعيـة تضامن اممي
حريـة ونصر اكيـد
خروشوف الرفيق اتكلم
من موسكو ومد الايد

وكان على الضباط المرافقين للرحلة ان يختاروا بين واحدة من اثنين .. ان يغامروا بمعركة في ذلك الطريق المهجور وسط الصحراء ويتحملوا مسئوليـة كافـة ما يترتب عليهـا من نتائج ، او ان يحنوا رأسهم للعاصفة، وينجزوا مهمتهم المحدودة بتسليم هؤلاء المعتقلين الى حيث صدرت الاوامر بترحيلهم وهناك فليتكفل مسئولون اخرون بمهمة تعويدهم الصمت ..

ان البيروقراطية الرهيبة التي تسيطر على اجهزة الحكم في بلادنـا تلقي في النفوس خوفا لا حدود له من المسئولية ،ولذا فانها ظاهرة عامة في اجهزةالنظام الناصريمما دونعبدالناصر وجماعته. ان كل موظف كبر اوصغر يحاول دائمـا ان يلقي بمسئوليـة البت في امر مـا من امور عمله علـى موظف اخر . وهكذا اختار الضباط المرافقون للرحلة ان يلقوا بمهمة تأديب هؤلاء المعتقليـن والزامهم الصمت للاخرين الذيـن سيتسلمون القافلة . وصدر الامر بان تسير القافلة .. وامتلأ الليل وامتلأت الصحراء بـدوي الحناجر تردد نشيد الحزب ...

من بيـن التاريخ بيدوي
من فوق التاريخ اعصار
والدنيـا بتولد دنيـا
مصنوعة بايديـن ثوار
بالناس القويـة الحرة
بدراع الاسى والنـار
نفحت تربة الرجعية
وتكفن في الاستعمـار
الحزب الشيوعي المصري
نبنيـه بعزيمتنـا

ونلك الاساس خرسانه
من وحدة ارادتنـا

ومالت القافلة من الطريق الصحراوي الى طريق جانبي بين المزارع التي ظهرت لاول مرة منذ ساعات ، ومن ذلك الطريق الجانبي دخلت السيارات مدينة الفيوم في الهزيع الاخير من الليل ، فاخترقتها الى طريق اخر سـار نحوا من خمسة عشر كيلومترا ، حينما لاحت الصحراء مرة اخرى ، وعلى مبعدة بانت مصابيح كهربية مثبتة في اعمدة خشبية مرتفعـة ظهرت علـى ضوئهـا اسوار مـن الاسلاك الشائكـة تعلوها ابراج وقف بها جنود يحملون بنادقهم في وضع استعداد ، واضواء كشافة في الاركان الاربعة ترمي بدوائر كبيرة من الضوء القوى تتحرك من داخل الاسوار الى خارجها وتقـوم بدورة واسعـة في المنطقـة المحيطة ..

الفجر يغمر المكان بأضوائه الاولى المترددة ، وواضح انه لم تكن هناك ضرورة عملية للانوار الكشافة ،بيد انهم كانوا يريدون استخدام كل المؤثرات الممكنة بحيث يضفون على المكان رهبة تصدمنا في اول نظرة تقع منا عليه .

ثلاثمائة جندى او يزيد كانوا يقفون صفوفا في الفضاء الواقـع امـام السجن منهم من يحمل البنادق ، ومنهم من يحمل العصي الغليظة ،والوجوه جامدة ، بليدة ،وجوه مصرية من اعماق الريف ، فيها شحوب وهزال ،وعيون باهتة النظرات .. هل حقا يحمل هؤلاء الرجال لنـا نفس الحقد الـذي تعبر عنـه خطابات عبدالناصر الاخيرة ؟ وطابور اخر من جنود سلاح الحدود، ضخام الاجساد اشداؤها ، سـود البشرة بنادقهم معلقة في اكتافهم خلف ظهورهم ، وسياط مطويـة في ايديهم ، ومن الصعب ان يلمس المـرء فـي تقاطيع وجوههم القاسية اي شيء ، سوى نظرات خاوية ، ولكن هؤلاء على وجـه التحديد هم الذين كانـوا مصدر القلق ، فلطالمـا استخدمتهـم الحكومـات الاستبدادية ضد شعبنا ، ولو انهم من اقليم النوبة في جنوب مصر الا انهم نظرا لسـواد بشرتهم الداكن، عرفوا بيـن شعبنا بالعسـاكـر السودانيين ، وقد سرت المواويل الشعبيـة تحكي فيبعض مقاطعها عـن قسوتهم ودمويتهم ، والموال الشعبي يلقي عليهم مسئوليـة قتل ياسين ،وهو بطل شعبـي من ريف الصعيد ، قتل لانه كان يقـاوم ظلـم الاقطاعييـن للفـلاحيـن .

يـابهيـة وخبرينـي
ع اللـي قتـل ياسيـن

قتلـوه السـودانيـة
من فـوق ظهـر الهجين (١)

احاطت العين بذلك المنظر المعد في اتقان لحظة ان توقفت السيارات امام بوابة المعتقل وقد كان لفراملهـا صرير كئيب انقبضت له النفوس ،فلقد كان اشبه بانين يشكـو فيـه الفجر ذلك الجرح الذي اصابته به تلـك الاستعدادات الدمويـة .

وكم من فجر اثخنه النظام بالجراح ..

لقد طعنوا فجر النصر على العدوان الثلاثي بحل لجان المقاومةالشعبية، وفصل الطلبة الذيـن ايدوا الحكم الوطني في الاردن ضد انقلاب ابريل١٩٥٧ وحرمان الشعب من اختيار ممثليه الحقيقيين حينمـا اصـدر عبدالناصر قرارا بشطب اسمـاء المرشحيـن الشيوعيين والديمقراطيين لمجلس الامة فـي يونيـو ١٩٥٧ .

وفي فجر الوحدة المصرية السورية امتدت مخالبهم لتدمـي سوريـا الوطنية الديمقراطية بابعاد ضباط الجيش السوري الوطنيين وعلى رأسهم الفريق عفيف البزري من مناصبهم ، وفجـر العام الجديـد عام ١٩٥٩ ، اثخنوها جراحا بحملتهم البوليسية على الشيوعيين ، وفي فجر ٢٨ مـارس تركوا في كل بيت جرحا حينمـا جرى اعتقال زوج ، او ابن ، او اخ ، او اخت ، او زوجـة ،وفي فجر ذلك اليوم السادس من ابريل ١٩٥٩ ها هي الانياب والاظافر مشرعة في الفجر امام بوابة معتقل العزب .

كان هناك بعض رجال في ثياب مدنية انيقة ، وقفوا يدخنون في هدوء وكأن هذا الذي يجري الاستعداد له شيئا لا يثير اهتماما لديهم . فهم مـن رجال المباحث وبطبيعة الحال قد تركوا مهمة التنفيذ لقائد المعتقل ، ذلـك الرجل الضخم ، ذو الراس الكبير يمتد اسفل منها بوجـه متغضن قميء ، تبدو تقاطيعه وكأن كلا منهـا قد صنعت على عجل من صلصال رديء، ثـم لحمت الى بعضها البعض دون عناية .

كان الشعر الابيض الذي كسا فوديه متناقضا مع النسر الذي يحمله على كل من كتفيه دليلا على رتبته كصاغ فهذه الرتبة بين العسكريين يصـل اليهـا المرء قبل تلـك السن بوقت طويل ، ولربمـا كان هذا احد دوافـع مشيته المليئة بالاهمية ، واصداره التعليمـات بمنجهيـة وخيلاء مبالـغ

(١) الهجين هو اسم الجمل الذي يستخدم للركوب ..

فيهما ، كان رجال المباحث يبتمسون لذلك في سخرية وكان يظنهم يبتسمون رضا .

فيما وراء صفوف الجنود كان سور من الاسلاك الشائكة ، تليه منطقة محرمة ، ثم سور اخر من الاسلاك الشائكة ، ثم اربعة عنابر يفصل بين كل منها ممر عرضه حوالي ثمانية امتار ، والى يمين البوابة الرئيسية كان مكتب الضابط النوبتجي،ثم مبنى الادارة وهو اشبه باكواخ المستعمرين في مزارع وسط افريقيا . .وفي الجانب الاخر من المعتقل اربعة عنابر اخرى في محاذاة العنابر الامامية يفصلها منطقة اخرى محرمة محوطة بالاسلاك الشائكة . . المباني القديمة للعنابر ، يوحي مرآها بحظائرالماشية في قرانا المصرية .

الى اليمين ، على مبعدة ، كان مبنى قديم تهدمت بعض جدرانه ،انهدير قديم ، وعلى مقربة منه مقابر ارتفعت فوقها بعض الصلبان ، وفيما وراء المعتقل كانت تبرز بعض القباب مما يشير الى وجود مقابر للمسلمين ، وبعد ذلك الصحراء .

الموتى يحاصرون المكان . . والعنابر اشبه بمقابر هائلة سيغيب فيها المئات ، نزلنا من السيارات ، كل اربعين في سلسلة يسمونها «الحجلة» ولم تكد اقدامنا تلامس الارض حتى بدأ ترويضنا على الاقامة في تلك المقابر : شتائم ، وكلمات بذيئة تتناول الاب والام والجدود . . وصفان اخران من الجنود على جانبي البوابة ينهالون علينا بالصفعات واللكمات ونحن نمر بينهما مظللين . . ونقف لتفتيش امتعتنا ، رجال المباحث يفتحون الحقائب ويفحصون الملابس ثم يلقونها على الارض ، واثناء ذلك يتم فك من تم تفتيش امتعته من « الحجلة » فينحني لالتقاط ملابسه ، واللكمات والصفعات ، والركلات تتوالى عليه ، ويأتي مسرعا كلب عقور ، يحمل حبلا مجدولا من الاسلاك الكهربائية ينهال به علينا واحدا واحدا على الراس والرقبة والوجه . .انه محمد غطاس الامباشي المكلف بالاشراف على النظام داخل العنابر .

بعد ان تم توزيع المعتقلين على العنابر دخل القائد يحمل بيده كرباجا ، وخلفه ذلك الغطاس بوجهه الذي يشبه كثيرا وجه « البول دوج » وقال : «انا هنا جمال عبدالناصر ، جمال عبدالناصر اعطاني سلطات كاملة لعمل اي شيء معكم مفهوم ؟ ».

كانت الاوامر ان يلزم كل منا مكانه ولا يغادره ، لا تجمعات ، لا حركة

داخل العنابر ، لا حديث .. الصمت .. كصمت المقابر المحيطة .. والكرباج يحمي ذلك الصمت ، ويفرضه .. لا تطل من خلال قضبان النافذة،لا تلقي بتحيـة الصباح لرفيق لك في عنبر اخر اذا ما لمحته وانت في طريقك الى دورة المياه ..لا تومىء برأسك ، بل حذار ان ترفع يدك لتسوي شعرك بعد غسله ، انهم يفسرون ذلك على انه اشارة ما لسكـان العنبر القريب من‌دورة المياه .. وكل يوم كان عدد من الرفاق يقتادون الى الادارة ليجلدوا لمثل تلك الاشياء اربعيـن جلدة او خمسين لكل منهم ..

وتتوالى الدفعات من الرفاق قادمين من معتقل القلعة ، وتزدحـم والعنبر ضيق ؟ لا يجب ان‌تشكو للادارة فردها « النوم »«ناموا زي‌ماتناموا، العنبر ضيق ؟ لا يجب ان تشكو للادارة فردها « النوم » ناموا زي ما تناموا، انشاالله ما نمتوا ».ليس بالعنبر سوى اناء فخاري يتسع لثلاثة جرادل من ماء الشرب سرعان ما كانت تنفد ونبقى نعاني العطش ونتناول الوجبة تلـو الوجبة من‌نفس الاواني دون غسلها ،ليس بالعنبر دورة مياه ،مجرد جردلين وسط العنبر للتبول تتصاعد منهمـا الابخرة والروائح الكريهة ليل نهـار ، والذيـن تمتلىء امعاؤهم ، عليهم ان يظلوا يتلوون الما طول الاربع والعشرين ساعة حتى يفتح العنبر لبضع دقائق في صباح اليـوم التالي ، ولا تكـاد تدخل دورة المياه حتى يفتحها الحراس عليك بالكرابيج مجبرين اياك على الخروج والعودة الى العنبر قبل ان تكون قد فرغت من قضاء حاجتك ،انهم يطاردونك بالسياط الى داخل العنبر كما يطـاردون قطيعا من الماشيـة ، ويغلق الباب .. الصمت .. والعزلة .. الباب مغلق .. والنوافذ محرمة .. وسور بعده سور .. واميال شاسعـة بينك وبين ذويك ، لا صلة لك بالحياة .. لا صحف ولا اذاعة .

كان معسكر العزب هذا الذي نقلنا اليه من القلعة ، معتقـلا لاسرى الحرب الايطاليين اثناء الحرب العالمية الثانية ، وتحول بعد ذلك الى معتقل لتجـار المخدرات .

صحيح ان السلطات الناصرية اعدت ذلك المعسكر كمكان للارهـاب والتجويع ولكن كان هناك عامل اخر يدفع بادارة المعتقل الى الابداع في‌تنفيذ تلـك الخطة . فالادارة الحاليـة هي ذاتهـا التي كانت تشرف على المكـان اثناء وجود تجار المخدرات ، وكانت لديهـا وقت وجودهم فرص هائلـة للاثراء ، هذا ما كـان يحكيه لنـا الجنود الذيـن عاصروا المعتقل في‌عهديه.

كان تجار المخدرات يلقون من الادارة كل التسهيلات اللازمة للاشراف على تجارتهم من داخل المعتقل ، فكان القائد والضباط يأتون لهم بمعاونيهم الى داخل المعسكر ليناقشوا معهم امور تجارتهم ، كان الواحد من هؤلاء التجار يخرج مع القائد او الضابط في سيارة المعتقل بعد تمام المساء ، ويذهب الى بيته ، ان كان من سكان المنطقة او الى احد بيوت الدعارة في الفيوم حيث يقضي وقتا طيبا ثم يعودون عند الفجر .

وفي مقابل ذلك كانت هناك هدايا تقدر بمئات الجنيهات للقائدوضباطه، وكانت لهم رواتب شهرية من تجار المخدرات ، كما كان هؤلاء يتخلون للقائد وضباطه عن المبلغ الذي رصدته وزارة الداخلية لاطعامهم معتمدين في غذائهم اليومي على اموالهم الخاصة . ولا شك ان اخلاء المعسكر من هؤلاء الذين كانوا يضعون البيض الذهب كل يوم للادارة وضياع تلك الثروة كان دافعا لحقد اسود على اولئك السياسيين القادمين من القلعة والذين يضمون بين صفوفهم مئات من العمال والمثقفين وصغار الموظفين والفلاحين الذين لا يملكون شروى نقير ولا يبشرون باي فائدة مادية يمكن ان تعود على ادارة المعتقل .

رصدت المباحث العامة مبلغ ٥٦ مليما لكل فرد لتقديم الوجبات الثلاث يوميا ، وتبدو تفاهة ذلك المبلغ اذا ما قيس بما كان يخصص لكل فرد من المعتقلين في معسكرات الاعتقال اعوام ٩٤٨ ، ٩٥٢ ، ١٩٥٤ ، فقد كان مخصصا لكل فرد يوميا مبلغ يتراوح بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ مليما ، وبرغم تفاهة المبلغ المخصص في معسكر العزب كانت ادارة المعتقل تتحايل بحيث لا تقدم للواحد منا طعاما طوال اليوم الا في حدود ٢٥ او ٣٠مليما، ومعنى ذلك انه بجانب الخبز لم يكن يقدم عمليا سوى بضع حبات من الفول صباحا تسبح مع عديد من الحشرات في بعض الماء الساخن ، وفي الظهيرة بعض الحساء وقطعة من اللحم لا يزيد وزنها بضع جرامات تقدم ثلاث مرات في الاسبوع ، وفي المساء قطعة هزيلة من الجبن لا تكفي غموسا للقمتين .

كان معظم الرفاق يشعرون بالدوار كلما وقفوا على اقدامهم ، وكان عليهم اذا ما اراد الواحد منهم ان ينهض ان يفعل ذلك بحذر وتؤدهخشية ان يصاب بدوار او اغماء فالجميع قد اصيب بالانيميا بدرجة او باخرى.

كثيرة هي القصص التي كان الرفاق يتهامسون بها عن الحساء النازيه ومن معتقلات بوختنوالد وداخاو ، ولكن معتقل بلسن وما تردد عنه اثناء

محاكمات نورمبرج كان يحظى بالجانب الاكبر من احاديث الرفاق ..

كان معسكر بلسن مخصصا لقتل المعتقلين ايام النازي بالجوع ، وبتركهم فريسة للامراض دون علاج ، وكل الدلائل كانت تشير الى ان بعض رجال النظام قد عكفوا على دراسة الاساليب التي اتبعت في معتقل بلسن ، ويعمدون الان الى تطبيقها على الشيوعيين والديمقراطيين المصريين .

ان سوء المكان من الناحية الصحية ، والباب المغلق طوال الساعات الاربع والعشرين ، وعدم توافر الامكانية لانتظام عمليات الافراز ، وتشبع جو العنبر برائحة البول وبخاره ، وسوء التغذية ، كل ذلك ادى بسرعة الى ظهور كثير من الامراض كالدوزنتريا ، والتهاب القولون ، والسل ، والجيوب الانفية ، واحتقان اللوزتين ، وانتشار البثور على الجسم، والانيميا الحادة ، والبواصير والتهابات اللثة والحلق ...

وحينما طلب بعض المعتقلين عرضهم على طبيب، استدعى المامور المرضى الى مبنى الادارة وامر بجلدهم .

البولدوج غطاس يعربد بين العنابر ، ما من مرة رايته وهو يسير بقامته الفارعة وجسده الضخم ، الا وعادت الى ذاكرتي صورة جوليفر في ليليبوت ، بلاد الاقزام ، حيث كانت خطوة واحدة منه تنقله من اقصى المدينة الى اقصاها والاقزام المساكين يتطلعون الى ذلك الشيء الهائل ويسارعون بالعدو هربا منه ولكن الى اين ؟ ان جوليفر يمد يده فيلتقط غددا من تلك المخلوقات يرفعها الى مستوى وجهه حتى ينظر اليها فتتملكها الرعدة ، وتخاله سيلتهمها ، واذا حانت منها التفاتة الى اسفل اصابها الدوار لانها ترى انها قد ارتفعت عن الارض ارتفاعا شاهقا ، لو سقطت منه لدقت اعناقها . كان جوليفر الذي صنعه جوناثان سويفت في روايته « رحلات جوليفر » رجلا طيبا محبا للخير وللناس اما هذا الجوليفر الذي رماه علينا النظام ، فكان بهيمة انانية ، كان يخطو بين العنابر فاذا بالاصوات قد خفتت ، والكل يترقب ،من ذلك المنكود الذي سيلتقطه غطاس ؟ كان غطاس يعود من جولته بثلاثة رفاق او اربعة ليجلدوا : هذا كان يطل من النافذة وذاك كان يتحرك في العنبر .. وهكذا ..

كان لغطاس هو الاخر اهداف من وراء عربدته ، فلقد كان يلتقط بعض الاثرياء من المعتقلين ، المستقلين على وجه التحديد ، ويفرض عليهم اتاوة مقابل عدم التعرض لهم ، فاما ان يرسله الواحد منهم الى ذويه برسالة شفوية ان يمنحوه نقودا وهدايا ، أو يتخلى له عن ساعته الذهبية ،ولقد

اجبر بعضهم على ان ينزعوا خواتم زفافهم الذهبية ويقدموها له رشوة مقابل اعفائهم من الجلد .

والصمت مفروض .. صمت كصمت المقابر المجاورة ، والكرباج حارس على ذلك الصمت ويجب ان ننام يوميا وفرقعات الكرباج ملء اسماعنا .. علينا ان نكفن بالصمت ونستسلم لحقيقة اننا قد هيل علينا التراب في مقبرة كتلك التي تحيط بنا في منطقة العزب .. او هكذا كانوا يريدون .

وكان لا بد من تحطيم الاسوار واحدا .. واحدا .

الحراس المعبأون ضدنا ..كم لاقينا منهم اهانات وشتائم وضرب .. ولكنا اصررنا على محاولة التفاهم معهم .. هل تصدقون حقا اننا عملاء ؟.. بيننا مئات من العمال مثلكم .. ولقد كنتم تعملون في المصانع ،وتعلمون ماذا يعانيه العمال .. ولم نأت الى هنا الا لاننا نريد ان نرفع عنهم ذلك الاضطهاد .. وكثيرون منكم من الريف ،ترك وراءه اسرة تعاني البؤس والعوز .. ونحن هنا لاننا نريد لهم حياة افضل .. ليس صحيحا انكم تحقدون علينا ، ولا تحقدون على الذين انتزعوكم من ارضكم ودوركم كي يستخدموكم جلادين على زملاء لكم مقابل جنيهين شهريا ..

والعساكر السود ، هؤلاء الذين لا تستطيع ان تميز في ملامحهم شيئا غير القسوة .. بعد الحاج، ومخاطرة ، خاطبناهم واستمعوا لنا .. لماذا تعادوننا ؟ لماذا تضربوننا بكرابيجكم ؟ عشرات السنين والحكام الطغاة يستخدموكم ضد الشعب لا يضربون بايديهم ، ولكن يضربون بايديكم انتم .. ومع كل هذا فما زلتم كما كنتم ، وما زال لكم ابناء لا يستطيعون دخول المدارس او اتمام تعليمهم كما يفعل ابناء السادة الذين يحرضونكم علينا .. وما زال الواحد منكم يواجه مأزقا خطيرا اذا مرض له طفل .. هل حدث مرة ان مرض طفلك واستطعت الذهاب به الى طبيب ؟ لماذا .. ان الذين يستخدمونكم ضدنا يحتفظون بطبيب خاص لاطفالهم .. بل باكثر من طبيب . وبطبيب خاص لكلابهم وقططهم .

وبصبر واناة ومن خلال قضبان النوافذ المحرمة يذوب الجليد ، ويلين ذلك الجدار من القلوب الغليظة التي كانوا يحيطوننا بها .

والان فلنكسر الصمت ..

ونتجمع .. ونغني لسيد درويش :

بلادي .. بلادي .. بلادي

لك حبي وفؤادي

بصوت هادىء ، ولكنه حار ومخلص .. ويتسمع الحراس له ،
ونغنـي :
ما تيـلا يا عمـال
دي الثورة ثورتنـا
نهزم راس المال
ونبني دولتنـا ...

ويبدو راس الحارس خلف النافذة ، ونتوقف ، ويطمئننا .. ويطلب منا ان نستمر في غنائنا ، لانه يريد ان يسمع .. لقد لعب النظـام الناصري بمشاعر الناس حينما لجأ الى الهجوم على راس المـال ، والراسمـاليـة المستغلة ، والحديث عن تخليص المواطنيـن من استغلالها ، ولكن المواطنين ومنهم الحارس هذا مـا يزالون يعانون شظف العيش ويرون باعينهم الاغنياء يزدادون تخمة ويركبون العربات الامريكية الفاخـرة ويسكنون القصور ويطردون العمال مـن المصانع ، ويصادقون المحافظيـن ورجـال الادارة ويستخدمونهم ضد المواطنين البسطاء من عمال وفلاحين .. لقـد اكد لهـم عبدالناصر ان الراسماليـة والراسماليين يستغلونهم ولماذا اذن يعتقل هؤلاء الذين يعادون الراسمالية ، انهم هم هؤلاء الذيـن يريدون جديا هزيمة راس المال واقامة دولة العمال والفلاحين .. هذا ما فهمه حارسنا ، وهذا مـا دفعه الى الطرب لاغنيتنا ، وبعد مدة يضرب بيده على النافذة في رفـق هامسـا : تفرقوا .. الضابط قادم .

وبلغت العربدة في معتقل العزب حدا كان فيها قادة المعتقل ومساعدبهم يجدون في عملية الجلد تسلية لهم ،بل وحدث ذات مـرة ان كـان احـد القروييـن المسنين يتجول بالقرب من المعتقل ، ولما كان الرجل لم يسمع في حياته شيئا عن معتقليـن ولا معتقلات فانه لم يكن يعرف ما هي تلك المبانـي المقامة في ذلك المكـان المهجور ، وتصادف لسوء حظه ان كانت العربة التي تاتي بالطعام تدخل المعتقل في ذلك الوقت فتصور الرجل انه يستطيع ان يجـد لدى هؤلاء القوم من يبيعه بعض السجائر ، واخذ يقترب من بوابـة المعتقل ، وبلا تحذيـر او اي شيء يفهم منه الرجل ان المكان محرم علـى المدنيين ، انقض عليه جنديـان وسحباه الى الضابط حمدي نصار الذي امر بان يعلق في الفلكـة وهو الشيخ الذي جاوز الخامسة والاربعين وان يجلـد اربعين جلدة حتى دون ان يساله عـن سبب اقترابه ، والرجل يصيح ويصرخ ولا من يسمع له ، حتى اذا انتهى الجلـد شيعـوه بالصفعات والركلات ،

والشيخ يهرول وهم يهرولون وراءه ويفرقعون بالكرباج وضحكاتهم الهازئـة تملأ الجـو .

كان المتبع ان يخرج من كل عنبر عند استلام اية وجبة اثنان مـن المعتقليـن لحمل الطعام من المطبخ الى العنبر ، وذات يوم عند الظهـر فتح غطاس باب العنبر وطلب اثنين لحمل الطعام ..

وتقدم منه رفيـق :
ـ احنـا ممتنعين عن الطعـام .
ـ انتم ايـه يا روح امـك ؟
ـ احنا ممتنعين عن الطعام وعاوزين نقابل القائد .
ـ يعني ايه فهمنـي
ـ يعني مش حنستلم الاكل ..

ويبدو ان غطاس لم يفهم جيدا ما المقصود بذلك فقد اغلق الباب قائلا : « انشاالله ماكلتم .. » ولكن دهشته زادت عندمـا تقدم منه رفيق في العنبر التالي وكرر عليه نفس الشيء واندفع غطاس بدافع الفضول الى العنبر الثالث ليرى ماذا سيكون هناك وتزايدت دهشته عندما سمع نفس الشيء في العنابر الاربعة ، وانطلق عبر المنطقـة الحرام الوسطى الى العنابر الاربعة في الجانب الاخر من المعتقل، ان هناك منطقة محرمة بين العنبرين ولا يمكن ان يكون ثمة وسيلة لكي يحذو المعتقلون في هذا الجانب حـذو المعتقلين فـي الجانب الاخر ، ولكنه ذهل اذ سمع تقريبا نفس الكلمـات في كل من العنابر الاربعـة الاخـرى .

اسرع غطاس الى القائد ، وتجمع الضباط حولهمـا ، لم تكن المسالة التي تشغل بالهم ان المعتقليـن ممتنعون عن استلام الطعام ، ولكن المسالـة التي حيرتهم جميعـا هي كيف تمكـن هؤلاء الشياطين ان يتفقوا في كـل العنابر وهي مغلقـة عليهم وعلى كل منهـا حصار شديد يفرض عليه العزلة التامة عن كل العنابر واذا جاز بشكل ما او باخر ان يكـون سكان العنـابر الاربعـة التي في الجانب الامامي من المعتقل قد استطاعوا الاتصال ببعضهم، فكيف توصلـوا الى الاتفاق مع سكان العنابر الاربعة الاخرى في الجانب الخلفي من المعسكر على كل شيء : على العمل ، والموعـد ، والمطـالب ، بل وبنفس الكلمـات .

وكانت مشكلـة امام القائد وضباطه ، كيف برغم كل ذلك الارهـاب

والحصار والتضييق يواجهون السلطات باربعمائة وخمسين معتقلا قد اتفقوا فيما بينهم على ذلك العمل الجماعي ؟ ودارت في اذهانهم اسئلة .. ان الفشل قد يتسبب في اتيان ادارة اخرى وتضييع فرص النهب ؟وتلك السرقات التي يقومون بها ، كيف يكون رد فعل السلطات لو تحدث عنها المعتقلون ؟ واسئلة اخرى كثيرة .

توجه القائد الى العنابر ، ربما كانت تدفعه الرغبة في تلمس كيف استطاع هؤلاء الشياطين ان يتصلوا ببعضهم البعض ويديروا هذا العمل ،وفي كل عنبر سمع نفس الكلمات تقريبا بحرف واحد :

اننا نحتج على الجلد ، ونطالب بوقفه ، كما نطالب بزيادة الزمن المقرر لنا في الفسحة ،وان يكون ذلك صباحا ومساء ، ونطالب بطبيب يعالج المرضى ،ونريد الاطلاع على الصحف والاستماع للاذاعة ، كما نطالب بتحسين الطعام.. ونريد الاعتراف بمندوبين عن كل عنبر يستطيعون التفاهم مع الادارة في كل وقت حول مشاكلنا ومطالبنا ..

ويعود القائد الى مكتبه وقد تزايد احساسه بالهزيمة ويطلب من كل عنبر ان يعين له مندوبين ، ويذهب المندوبون ، ويعد القائد بزيادة الفسحة الى ساعة في الصباح ، وبوقف الجلد الا في المخالفات الصريحة ، وباحضار طبيب للكشف على المرضى ، وفيما يتعلق ببقية المطالب فانه سيعرضها على المسئولين ..

وفي المساء يسمع احد رفاقنا ممن كانوا يقضون فترة عقوبة في التأديب الى جوار مبنى الادارة ، حديثا بين القائد ووكيله عن ذلك الامتناع ويتحيران في الوسيلة التي اتبعت في تنظيمه بين كل العنابر ، ويقول اليوزباشي عبدالمنعم التونسي وكيل القائد « دول جن ازرق ، دوخوا كل الحكومات اللي فاتت على البلد ، مش حيدوخونا احنا ؟ » .

ومن الواضح ان خطة اخرى قد اتبعت بعد بحث الامر مع السلطات، فلقد جاء طبيب ، فحص المرضى واوقف الجلد ، واكتفى بعقوبة الحبس الانفرادي ، وشددت الحراسة بين العنابر ، وثبتت على باب كل عنبر ساعة تتوقف كل خمسة عشر دقيقة لكي يقوم الجندي المكلف بالحراسة ليلا بملئها ضمانا لاستمرار يقظته ، ونشطت عمليات التجسس ..

استطاع الرفاق ان يتحركوا بحرية داخل عنابرهم وان يسهروا حتى ساعة اطفاء النور ، وان يتجمعوا للعب الورق الذي كان يصنع من علب السجائر بينما تجري اجتماعات حزبية في ركن اخر من العنبر ، وتكررت شكوى المندوبين من قلة الطعام عن الكميات المقررة ، ورفضوا استلامه من

المطبخ الا بعد وزنه وتلك الاخيرة كانت تقض مضجع القائد لانها تنتقص من سرقاته ..

كانت المباحث قد انتقت ٥٩ رفيقا من بين العنابر بعد ذلك الامتناع ورحلتهم الى الواحات الخارجة باعتبارهم اخطر العناصر بين المعتقلين والذين بابعادهم ـ كما كانت تعتقد ـ يمكن السيطرة على المعسكر .

ولقد تمت اثناء ترحيلهم في ٢١ يونيو ١٩٥٩ تلك المأساة التي هزت وجدان شعبنا ، كان المعتقلون المرحلون مقيدين في حجلتين ، ثلاثون منهم في واحدة ، وتسع وعشرون في الثانية ،ووقف قطار الصعيد الذي يقلهم في محطة المواصلة جنوبي سوهاج ، ونزل الرفاق المقيدون في الحجلة الاولى وبدأ المقيدون في الحجلة الثانية في النزول الى الرصيف . كان عشرة فقط هم الذين نزلوا حينما تحرك القطار ، جارا خلفه الرفاق العشرة، وارتفع الصياح ، ولكن كانت العربة في المؤخرة، بينها وبين القاطرة ثلاثة عشر عربة ولم يسمع السائق شيئا ، وزاد القطار من سرعته ،والحجلة اللعينة تجر الرفاق العشرة على القضبان وتكسرت الضلوع .. وتمزقت الاجساد .. وانكسرت عظام الاذرع والسيقان .. وكان منظرا مثيرا .. عشرة آدميين يجرهم قطار خلفه ، تصطدم ضلوعهم ورؤوسهم تارة بالقضبان وتارة بالارض ، والرفاق الاخرون المقيدون فينفس الحجلة ، والذين لم يكونوا قد غادروا العربة بعد ، يتشبثون ببابها حتى لا يتساقطوا واحد بعد الاخر .. كانت العربة معزولة عن اجهزة الانذار وغير مزودة بالفرامل الهوائية .

واطلق ضابط كان يقف على الرصيف اعيرة نارية فتنبه السائق واوقف القطار ، وبذلك توقفت مأساة الحجلة عند حد تمزيق اجساد هؤلاءالرفاق.. لقد بلغ الموقف من الهول والبشاعة درجة جعلت ضابط المباحث الذي كان ينتظر تلك الدفعة في محطة المواصلة يخر مغشيا عليه ..

ظن القائد ان الامر استتب له بعد ان تخلص من هؤلاء التسعة والخمسين ، وبعد ان اطمأن الى ان الحراسة مشددة بدرجة لا تسمح باي اتصال بالعنابر ، بدأ ينفذ خطته في العودة الى الارهاب ، رفض مقابلة المندوبين ورفض السماع لاية شكوى خاصة ما يتعلق بالطعام ، واختلقت مشاجرة بين اثنين من المعتقلين في احد العنابر تبين فيما بعد انهما عميلين للمباحث العامة فاقتيدوا الى الادارة حيث جلدوا ، وكان ذلك ايذانا بالعودة الى سياسة الجلد ، كما توالت على المعسكر دفعات جديدة من رفاق اعتقلوا

في يونيو ويوليو ، واغسطس ١٩٥٩ ، وكان لا بد من زيادة عمليات الارهاب حتى لا يكون في مجيء الدفعات الجديدة حافزا لمعطيات مقاومة اخرى ، خاصة وانه من بين الذين جيء بهم اخيرا الى المعتقل مناضلون تعتقد السلطات ان وجودهم في اي معتقل كفيل ان يسبب لها المتاعب .

زاد عدد الجلدات الى مائة ثم الى مائتين ، وقمنا ببعض المناوشات كانت تاتي بنتائج مؤقتة ولكن سرعان ما يعود الارهاب اعتى واشد ، وبلغ الامر بهم حد حرمان الذين يقضون عقوبة التاديب في زنزانة انفرادية من الذهاب الى دورة المياه لقضاء الحاجة .

بلغ الارهاب ذروته حينما عثر مع احد المعتقلين على رسالة مكتوبة على ورقة صغيرة ، وتحت اشراف رجال المباحث العامة تم جلده مائتي جلدة فانهار وادلى باسم واحد من المعتقلين .وهو المهندس فوزي حبشي باعتبار انه هو الذي سلمها له ، فاقتادوه الى مبنى الادارة وطلبوا منه ان يدلي بمعلوماته عن التنظيم السري في المعتقل ، ولما لم يتكلم ، انهالوا على جسده العاري بالسياط ، حتى تمزقت على جسده ست كرابيج، وكلما اغمي عليه القوا على جسده المثخن بالجراح ماء مشبعا بالملح .. الى ان يفيق فيستانف جلده ..

والمرء لا ينسى للعساكر السود انهم رفضوا اعطاء كرابيجهم لرجال المباحث ليواصلوا بها ضرب المهندس الجريح بعد ان تمزقت الكرابيج التي كانت في حوزة الادارة ..

وبدات المعركة الفاصلة ..

في الثاني عشر من سبتمبر ١٩٥٩ اعلن المعتقلون جميعا رفض استلام الطعام ، وطلب المناضلان عدلي جرجس ومحمد علي فخري من سكان العنبر رقم ٤ وهو اقرب العنابر الى مبنى الادارة مقابلة القائد، فاستدعاهما القائد حيث امر الجنود بالاعتداء عليهما اعتداء بشعا بالضرب ، ومن الطريف ان المتعهد الذي يورد الطعام للمعتقل ، وشريك القائد في سرقاته كان حاضرا وقتذاك فشارك في الاعتداء على المناضلين ، اللذين تعالت اصواتهما احتجاجا « يا مجرمين يا قتلة » ووصلت اصوات احتجاجهما للعنابر فضجت وعلا فيها الصخب .

استدعى القائد ، ازاء الموقف الجديد ، مندوبين عن العنابر لمقابلته وابلغه فخري لبيب اننا نرفض التفاهم معه لانه هو وسياسته واسلوبه موضع الشكوى واننا نطلب حضور احد كبار المسئولين لعرض شكوانا عليه، اصفر

وجه القائد ، وارتعشت شفتاه ، ولا بد قد دارت في ذهنه سرقاته التي لا بد وستكون موضع الشكوى ، ولا بد سيفضح المعتقلون امام المسئولين تواطؤه مع المتعهد ، ثم الفشل مرة اخرى على السيطرة على المعسكر ، وكيف سيواجه المسئولين بهذا العمل الجماعي الذي دبر من تحت انفه .. وحاور، وداور ولكن المندوبين تشبثوا بموقفهم .

ومر النهار ، والوجبات الثلاث مكدسة في المطبخ لم يتسلمها احد وفي المساء حضر وكيل حكمدار مديرية الفيوم ، وقامت مظاهرة ارهابية ، فجمع قوة الحراسة كلها المكونة من ثلاثمائة جندي ، والقى فيهم كلمة بصوت عال تعمد ان يصل الى سكان العنابر ، قال لهم : « ان هؤلاء الشيوعيين اعداء للوطن، واعداء للثورة ، واعداء للعروبة ، وانهم خونة يستحقون الاعدام » ، وطلب منهم الا تأخذهم بهؤلاء الاعداء رحمة ، واستشهد في كلمته بآيات من القرآن ، نطقها مغلوطة ، لم يجد حفظها وهو يستعد لتلك المناسبة ثم سلم جنيهين مكافأة للجندي الذي امسك بالرسالة المهربة .

وجاء اليوم التالي ، ووفدت على المعتقل عدة سيارات محملة بالجنود لابسي الخوذات الحديدية ، البعض مسلح بالبنادق والبعض مسلح بالقنابل اليدوية والبعض الاخر بالقنابل المسيلة للدموع ، واخرون يحملون عصيا غليظة .

نزل هؤلاء الجنود واخذوا طريقهم الى منطقة العنابر ، وامام عنبرنا قاموا بمظاهرات ارهابية .

واخرج سكان عنبر (١) الى الفناء بين صفوف الجنود الذين وقفوا ببنادقهم وقنابلهم وعصيهم في وضع استعداد ، وتقدم حكمدار مديرية الفيوم قائلا : من يريد ان يتسلم طعامه فليتقدم خطوة .. ولم يتقدم احد .

فعاد يقول : الممتنعون عن الطعام يأخذون خطوة الى الخلف ..

وخطا الجميع الى الخلف .. لم تفلح مناورته الارهابية في تفتيت وحدة المعتقلين .. وتصدى له واحد من المعتقلين فاضحا سياسة السرقات .. سرقات القائد ، وسرقات غطاس .. وقال : ان الارهاب كله مقصود به التغطية على تلك السرقات والاستمرار فيها ..

وبهت حكمدار الفيوم .. ووقف بعض رجال المباحث صامتين .. لم يستطع احد منهم ان يواجه التهم التي وجهت الى قيادة المعتقل ..وادخل سكان العنبر .. واخرج سكان عنبر (٢) وغالبيته من العمال .. كان الحكمدار يتصور بعقليته البورجوازية ان هؤلاء العمال سيرهبون رتبتـه

العسكرية ، فهو كثيرا ما راى فقراء الفيوم يعملون لممثلي السلطة الف حساب .. وتقدم بكل شراسة الى المناضل محمود عطاالله رئيس نقابة عمال النسيج بكفر الدوار الذي كان في مقدمة سكان العنبر وقال له في لهجة آمرة : اطلع استلم اكلك ..

ورد عليه المناضل النقابي : احنا ممتنعين عن الطعام ولينا شكاوى ..

فرفع الحكمدار يده وانهال بصفعة قوية على وجه المناضل محمود عطاالله .. فصرخ هذا في وجهه صرخة اذهلت الحكمدار : « احنا ممتنعين لاننا بنحتج على الاعمال الاجرامية دي » .

واحس الرجل انه امام طينة اخرى من البشر . .وانسحب الى مكتب القائد وسحب جنوده ، وطلب مندوبين عن المعتقلين .. وشرحت له كل الامور : السرقات في الطعام .. والاتاوة التي يفرضها محمد غطاس على المعتقلين .. ومطالبنا في الصحف والاذاعة .. وفتشت على الفور الخيمة التي يقيم فيها محمد غطاس وعثر فيها على بعض المقتنيات الخاصة بالمعتقلين ، فامر الحكمدار بالقاء القبض عليه .. وصدر امر بوقف عقوبة الجلد نهائيا .. وبعدم صرف اي طعام من المطبخ الا بعد وزنه .. ووعد بالنظر في باقي المطالب ..

حقا انهم انتقوا اربعين رفيقا اخرين وابعدوهم الى الواحات ولكن معتقل العزب كان قد تمزق وانهارت سياسة الارهاب فيه وتعالت هتافات الرفاق واناشيدهم تودع الرفاق المرحلين ، وتعالت هتافاتهم واناشيدهم بعد ذلك في ذكرى بدء العدوان الثلاثي ، وفي ذكرى اول نوفمبر يوم بدات ثورة الجزائر، وفي ذكرى الانذار السوفيتي وهزيمة المعتدين ..

وفي ٧ نوفمبر ذكرى ثورة اكتوبر العظمى ..

هل تمزقت سياسة الارهاب ؟ ام تمزق فقط معتقل العزب ، ولم يعد المكان المناسب لتنفيذ سياسة تصفية الشيوعيين ؟

الفصل السابع

من يحاكم من (١)

على مشارف الاسكندرية ، وفي اعقاب الفجر ، والصيادون يندفعون فرادى ، او جماعات قليلة العدد الى خارج المدينة ، وقد حملوا على ظهورهم معدات الصيد ، كانت قافلة السيارات تدخل المدينة ، سيارات صغيرة لكبار الضباط وللاسلكي ، وسيارات كبيرة مليئة بالجنود ، وكنا نحن جلوسا في سيارات كبيرة مقفلة ، مكبلين بالاغلال الحديدية ، وقد جلسنا متساندين ، وعلى ارض السيارات تكدست الحقائب ، واكياس الملابس ، والجنود باسلحتهم .

كنا قد قضينا الليل باكمله في السيارات ، وبعد مغادرتنا سجن القاهرة في الليلة السابقة . وطوال الطريق الصحراوي لم نلتق بأحد ، سوى سيارات البوليس والحراسة . كان الطريق مقفلا في تلك الليلة ، وحالة الطوارىء معلنة في القاهرة ، فان اثنين وستين من قادة الحزب الشيوعي ، وكوادره ، وعناصر نقابية وديمقراطية في طريقهم للمحاكمة .

لقد كان من بيننا من له في الاسكندرية نضال وتجارب كفاحية ولكن غالبيتنا كانت الاسكندرية بالنسبة لهم ذكريات حلوة ، وايام ممتعة ، كانت الاسكندرية بالنسبة لكثيرين منا هي الشاطىء الساهر ، وحدائق النزهة ، وانطونيادس والاجازة الصيفية مع مجموعة من الرفاق والاصدقاء .

ولكننا اليوم نصل الى الاسكندرية ، من اجل ان نقف وجها لوجه مع

---

(١) كاتب هذا التقرير عن المحاكمة هو الرفيق اسماعيل ، وكان هو المسئول السياسي للجنة المركزية داخل السجن ، وفيما بعد فانه كان من المتحمسين لحل الحزب ، وكان من اوائل من قبلوا اعضاء في الاتحاد الاشتراكي .

النظام الناصري ، ومن اجل ان ننوب عن شعبنا في التعبير عـن رفضـه وادانته لتلـك السياسـات المعادية للديموقراطية .

ولم يكن احدنا قد نام اكثر من لحظات ، كان كلا منا يسند راسه على كتف جاره ، ويذهب في اغفاءة قصيرة تنتهي باهتزازة من السيارة .

وبالرغم من الارهاق والسهر ، كـان يسيطر علينا انفعـال وحماس كبيران ، كنـا في السيارات الكبيرة ، وعلى بعد عشرات من الكيلومترات من القاهرة ، ومع ذلك كانت آذاننا تمتلىء بالهتافات المدوية ، التي ودعنا بها الرفـاق ونحن نغادر سجن القاهرة .. انها صيحات جنود شجـان لتحية رفاقهم المسافرين الى الجبهـة .

ان مواجهة المجلس العسكري الذي سيحاكمنا ، والادعاء الذي يريـد ادانتنـا ، ونحن من جانبنا نريد ادانـــة سياسات النظام والدفاع عـن سياستنـا .. وقد تحدد لكل واحد دوره في ذلك .. كل هذا جعل رحلتنا الى الاسكندرية بالفعل اشبه بالسفر الى خط القتال .

وكانت الايام السابقة للسفر ، حافلة بكل ما يحرك المشاعر والاحاسيس لقـد التقينا بعائلاتنا لاول مرة منذ اعتقالنا ، وزارنا المحامون ، ومع هؤلاء وهؤلاء ، اخبار واشاعات وامال وتأكيدات . كان الجميـع ينظرون للامـر ببسـاطة متناهية ، لم يكونوا يدركون حقيقة ما نحـن مقدمون عليه ، كانوا يتحدثون عن طيبة رئيس المحكمة وشخصيته الجادة .

لم يكن في ذهن المحامين سوى خططهم لاخراجنا ، بينما نحن كنا نفكر في الطريقة التي تمكننا من القبض على خصمنا ، ووضعه في قفص الاتهام .

وفي منتصف اغسطس ، بدأت مشاهد المسرحية التي اعدت بكل عناية لقد دبر لنا النظام اكبر عمليـة ارهاب تحت ثيـاب ووقار رئيس المحكمـة وابتسـامته الحانيـة .

ولكي يتم اخراج المسرحية في ابهى صورها ، كان لا بد ان نبـدو امام الجماهير في مظهر مناسب ، ملابسنا نظيفة مكوية ، وذقوننا حلقت فـي الصباح الباكر ، والكشف الطبي قد وقع علينا للتاكد من قدرتنا على احتمال المحاكمة والمحكمـة تستهل اعمالهـا بتقرير علانية الجلسة ، لكنهـا علنيـة بالقدر الذي يتحمله النظام ، العلنية في حدود رجال المباحث ، والمحامين ، والعائلات التي تحصل على بطاقات . وحتى هـذه العلنية قد اسدل عليهـا ستار غليظ من السرية ، وعدم النشر في الصحافة المحلية ، ولم يسمـح لمندوبي الصحافة والاذاعة العالمية بحضور المحاكمة التاريخية .

ان الحكومة حريصة على حجب الحقائق البشعة عن انظار القوى المحبة التقدم والديمقراطية ، التي كانت تعبر عن مشاعر العطف والتضامن مع المناضلين المصريين، الذين يواجهون البطش ، والتي عبرت برسائلها وبرقياتها وبياناتها عن استنكارها للمحاكمة الارهابية ، وطالبت بوقفها واطلاق سراحنا . كانت اللحظات الاولى من المحاكمة حافلة بمشهد فريد : القاعة تعج باجهزة الاذاعة ومصوري الصحف ، والمحامون يفدون بملابسهم التقليدية ، وكل منهم يخاطب متهما او اكثر ورجال المباحث والجنود اكثر من المتهمين وعائلاتهم ، وتندفع من الباب المؤدي الى ردهة المحكمة الى الداخل النساء والاطفال ، والزوجات والامهات والخطيبات والرجال الطاعنون في السن .

ولكن على بعد امتار من الباب ، وقبل الوصول الى القفص بامتار هناك ايضا سياج غليظ من الجنود ، ورجال المباحث يمنعون الاقتراب منا .

وفي مثل هذه اللحظات التاريخية التي قل ان يتكرر حدوثها في حياة الانسان ، لا يمكن لانسان ان يكبح فكره او خياله .

كم شهدت هذه القاعة من احداث ومحاكمات .

كم هم ابناء الشعب الذين مروا من هنا على اختلاف ارائهم واسلوبهم في الكفاح . لقد وقف في هذا القفص نفسه بعض الشبان ، الذين ظنوا ان اغتيال هذا الزعيم او ذلك العميل ، هو طريق القضاء على العملاء ، ووقف اخرون ظنوا ان القاء القنابل ، واغتيال الجنود الانجليز السكارى هو الطريق الافضل لارهاب الامبراطورية وارغامها على الانسحاب . ووقف هنا عمال اضربوا وتظاهروا ، ووقف طلاب وزعوا منشورات واتهموا ذات يوم بالعيب في الذات الملكية . ولكن المتهمين الواقفين اليوم في قفص الاتهام نوع اخر من الرجال وعجينة خاصة من المناضلين ، انهم حركتنا الوطنية في تطورها ومستقبلها ..

ان المتهمين خليط عجيب من الناس ، جاءوا من مختلف قطاعات الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في بلادنا ، كان بينهم الاستاذ الجامعي والطالب ومدير الشركة والعامل والمحامي والمهندس والمناضل الجماهيري والزعيم الطلابي والقائد النقابي ، ومن بينهم مناضلون قدامى عاشوا اجيالا من الكفاح ، ومناضلون شبان في مستهل حياتهم النضالية، كان بينهم العازب والمتزوج ، وكان بينهم ايضا والد السبعة اطفال ، وكان احدهم جدا .

ومنصة القضاء ايضا .. لقد جلس عليهـــا قضاة انجليز وفرنسيون ومتمصرون ثم اجلسوا من بعدهم اذنابا وعملاء .. وشيئا فشيئا ، وكرسيا بعد اخر ، احتل قضاة وطنيون ، ثائرون كطبقتهم في مستهل ثورتها ،سجلوا احكاما مشرفة دفاعا عن الحرية والديمقراطية وضد الاستعمار والاستبداد، حينمـــا كانوا يناضلون هم انفسهم من اجل السلطة .

واليوم يجلس عليها قضاة يحكمون باسم طبقة عاتية لا تفهم القانـــون الا مـــن وجهة نظر مصالحها هي . ان ثوار الامس لا يقبلون اليوم الحديث عـــن الحرية والديمقراطية وحقوق الشعب .

ان الحرية عندهم هي الاستغلال وتكديس الثروات ، والديمقراطيـــة هي حق لهم وحدهم .

اما جماهير الشعب . اما رفاق الطريق الذيـــن ثاروا معهم بالامس فهم اليوم هدامون ، مكانهم السجون والمنافي ، لانهم يرفضون ان تقف الثورة ، ويقولون ان توقفها يعني انتكاسها .

وشيئا فشيئا تتلاشى هذه الصور ويعود المرء الى القاعة وضوضائها. وخلف سياج الجنود والضباط كانت عيون الاهالي .. كانت نظراتهم المليئة بالعطف والاشفاق تحوطنا.. وكان الهم الاكبر للمحامين هو بعث الطمانينةفي نفوسنا ، وتأكيد النوايا الحسنة لرئيس المحكمة ، ورسم صورة مشرقة عـــن امكانيات الدفاع على اساس قانوني . كانت كلماتهم تختلط بتوسلات بعض العائلات ، والرجاء في اعينهم والاشفاق في نظراتهم .

كان المحامون يظنوننا وديعـــة في ايديهم ، وان مصيرنا ومستقبلنا رهن بجهودهم البارعـــة في تفنيد ادعاءات المباحث والنيابة ، وبين بعضالاهالي والمحاميـــن جهود مشتركة من اجل بذل جهد للتاثير في المتهمين . ولكـــن احداث المحاكمة ذاتها اخذت تتوالى على نحو لم يكن في حسبانهم اطلاقا ، بل ولا في تصورهم . فبالرغم من ان الجلسة الاولى لم تكن سوى جلسة اجراءات شكليـــة الا انهـــا لم تمر دون فضح لحقيقـــة المحاكمـــة . وبـــدا القتـــال فعـــلا .

وطبقـــا للخطة المقررة ، اعترض المتهمون عـــلى المحاكمة العسكريـــة ، وسجل بعض الرفاق ان عبدالناصر اصدر حكمه مسبقا في هذه القضية فهو الخصم والحكم والضابط الامر بتشكيل المجلس العسكري ، والحكم لا يعلن الا بموافقته . وواصل باقي المتهميـــن الاعتراض على المحاكمة .

وكما كشفت الجلسة الاولى عن معدن الرجالالواقفين في قفص الاتهام

فانها ايضا كشفت عن حقيقة المحاكمة .

لقد كان يتعين على المتهمين في مثل هذه القضية الهامة ان يعتمدوا اساسا على انفسهم في الدفاع ، وفي تحويل القضية الى قضية سياسية فعلا ، حاولوا ان يحصلوا على ملف القضية ، حاولوا الحصول على ورق وقلم لتسجيل الملاحظات .

حاولوا مناقشة الشهود مباشرة . ولكن المحكمة رفضت كل هذا .. وباصرار . وبدأت مشاهد المحاكمة تتوالى . رجال المباحث يتقيأون اكاذيبهم .. ويفرغون احقادهم ، ولكن الحقيقة المؤلمة تتضح تماما . ان معلوماتهم الاساسية هي تلك التي يقدمها لهم عملاؤهم في داخل الحزب ، وحقيقة اخرى لا تقل اهمية .. ان اسرار الحزب اصبحت في متناولهم . كانوا يلتقطونها من المقاهي خلال الفترة التي انقسمت فيها المجموعة اليمينية على الحزب في منتصف ١٩٥٨ .

ان فرسان المباحث يحصرون جهودهم في اثبات ادلة الاتهام القانونية .. ولا يجرؤون على تبني الافتراءات التي يغذون بها الصحافة والاذاعة .

ان حسن المصيلحي رئيس مكتب مكافحة الشيوعية مثلا يقر امام المحكمة انه لا معلومات لديه عن مصدر تمويل الحزب ومكتبه هو الذي غذى الصحف بقصص مختلقة عن تمويل الحزب من الخارج .

وخلال المحاكمة تتكشف لنا حقائق اخرى كريهة .. هي صورة لواقع بلادنا في تلك الفترة .

لقد بدت المحكمة العليا ،مجرد لعبة صغيرة في ايدي رجال المباحث .

ان المباحث تعبث بهيئة المحكمة ، وتخفي عنها اوراقا رسمية وببساطة تامة ، عندما تفضح هذه العملية تعتبرها المحكمة خطأ من فرد ،وليس جريمة من جهاز .

ومظهر اخر من مظاهر بوليسية النظام والفسام الذي استشرى ـ خبير الخطوط ـ وهو صيدلي كبير بمصلحة الطب الشرعي ، ينسى مهمته الاصلية ويتحول الى ضابط ـ ينسى جلال العلم ، وشرف المهنة ليمارس مهنة ضابط مباحث نشيط ، يجمع الاستدلالات دون دعوى من احد .

ولكن هذا النوع من الشهود لم يكن هو كل الشهود . لقد جاء شهود

اخرون لم يخشوا المباحث ، ولم يرتعدوا من هستيريا النظام ، جاؤوا بناء على طلب بعض المتهمين ، وكانوا بشكل عـام ، على درجة كبيرة من الجراة والتماسـك والتعاطف مع المتهميـن ..

المحكمـة تناقش الشهود مناقشة توحي لمن يتتبعهـا انهـا مناقشة دقيقة جدا .. مناقشة تتناول كيف دخل الضابط المنزل .. كيف فتش .. من الذي كان موجودا .. الخ .. من هذه التدقيقات القانونية .. كان حرص المحكمـة واضحا ان تجعل جوهر المحاكمة هو : هل نحن شيوعيون ام لا ؟ وكنـا نحـن نقاتل من اجل تحطيم هذا الاطار . كنا نريد ان نرفع المحاكمة الى المستوى السياسي ، نحولها الى قضية سياسية ، الى قضية شيوعية ، الى ابراز دور الشيوعيين ، وما قدموه لبلادنـا ،وشرح مبادىءالشيوعيين وشعاراتهم ومواقفهم ، وتأكيد حق الحزب في الوجود ، وكذلك فضحموقف الحكومة وسياستها .

ويدخل شاهد جديد هو رئيس مباحث طنطا ، وهـو نفسه الضابط الذي اغتال الشهيد محمد عثمـان قبل ذلك باربعة شهور ، وبعد ان انتهى من شهادته يسأله الاستاذ احمد البديني المحامي عن محمد عثمان .

ان الضابط صاحب الجسم الطويـل ، العريض الكتفيـن يرتعش كالعصفور . ان ظهره يهتز كالمصاب بالحمى . لا يجسر علـى الالتفات نحـو المتهمين ، الذيـن تعالى صياحهم ، وتناثرت منهـم الاتهامات والاهانات ، ويشتد اضطرابه وتلعثمه وتفشل النيابة في محاولة انقاذه بالتستر عليه. ويضطر رئيس المحكمـة الى رفع الجلسـة .

وبينمـا نجد الاستاذ البديني المحامي يثير قضيـة محمـد عثمان ، تعذيبه وقتله ، ويتحدث عن الشيوعية التي تحكم نصف العالم وفي طريقها الى حكم النصف الاخر . وبينمـا يقرأ الاستاذ ماهـر محمد علي المحامي فقرات من منشورات الحـزب ويصفها بانها اهازيج وطنية ، وبينما يصف الدكتور سعد عصفور المحامي المتهمين بانهم « الرجال الاشداء المؤمنيـن بمبادئهم فيشجاعة » .. وبينما يتجاوب هؤلاء المحامون مع الموقف النضالي للمتهمين ، ويدركـون المستوى الذي يتعين عليهم التقدم نحوه في مثلهذه القضية نجد محاميـا اخر اسمه علي صالح ، من ذلك النوع الـذي يلقي في الوحل شرف المهنة وكرامتها ، ويعمل طوع امر رجال المباحثوالمخابرات، ويصبح هو نفسه جزءا من جهاز القهر الـذي كنـا نواجهه في شخص المحكمـة ، نجـد مثل هذا المحامي يستهل دفاعه بالطعـن في الشيوعيـة

والشيوعيين ، ويثور احد الزمـلاء ويحاول منعه من مثل هذا الكلام وينتهي بتنحيه عن الدفاع ، ويتضامـن كل المتهمين في الانسحاب من القفص .

لقد اثبتت التجربة مع المحاميـن ان موقف المتهمين هو العامل الحاسم الذي يقرر مصير القضيـة والذي يحدد خط سير المحامين انفسهم . ان المحاميـن الذيـن كانوا في البداية يسعون لاقناعنا بعدم الاعتراف بعضوية الحزب اصبحوا هم يقاتلون الى جانبنا . كمـا اثبتت التجربة ايضا خطـر المحاميـن الرجعيين الذيـن تمتلىء مواقفهم بالجبن والنفاق البورجوازي .

وينتهي الشهود ... ويأتي دور المتهمين في الدفاع عـن انفسهم . وتشهـد قاعـة المحكمـة مظاهرة سياسية ضخمة .. يتوالى غالبية المتهمين ، واحدا بعـد الاخر ، يناقشون سياسـة الحكومة ، ويحذرون من نتائجها الوخيمة . وعندمـا يقول احد المتهمين عن نفسه انه شيوعي ، يوجه رئيس المحكمة سؤالا قد يبدو غريبا وشاذا ان يسأل في مثل تلك المحاكمة !

ـ هل هناك حزب شيوعـي ؟

ـ نعم يوجـد حزب شيوعي .

ـ اين هـو ؟

ـ الحزب موجود في المصانع والمزارع والاحياء .

وكانت هذه لحظة تحول في القضية كلها .

ثار الاهتمام والفضول المزوج باشفاق في باديء الامر ، ثم تصاعد الاهتمـام وتحول الى تأييد حماسي وتقدير عميق من جانب المحامين والاهالي .

اما المحكمة فقد لبست ثياب النمر الغاضب ، وكشرت عن انياب الغدر ، واخذت في المقاطعـة والتضييق ، والمحاولات الفاشلـة لحصر الكلام حول « هل انت شيوعي ام لا ؟ » .

اما نحـن فقد مضينا في طريقنا ، واصررنا على خطتنا ، اننا هنـا لنحاكم البرجوازيـة .. اننا هنا لنعرض الصفحـة المشرقة للشيوعيين ، كفاحهم وتضحياتهم ، مبادئهم واهدافهم ، لتأكيـد حق الحزب في الوجود . ويتوالى غالبيـة الرفاق واحـدا بعد الآخر يعلنون عضويتهـم في الحزب الشيوعي ، او يقدمون دفاعا ديمقراطيا ، يدافعون فيه عن الشيوعيـة طبقا للخطة المقررة .

وتتوالى كلمات المتهمين ودفاعاتهم . المحكمة تضيق الخناق ، والمتهمون يصرون على السير قدما ، على عرض صفحتهم كاملة .. يصرون على فضح البورجوازيـة وسياستها ، ويرسمون خريطة الغد ، ويحذرون من احداث المستقبل القريب . الاحداث التي تحققت ، والخريطة التي رسمت فعلا ،

والحصاد الذي جناه نظام عبدالناصر من جراء سياسته ، وكما قلنا تماما . .

ويسير الصراع بين خطة المحكمة وخطتنا حتى نهايتـه ، ونفـرض اسلوبنـا .. وتقره المحكمـة .

لم يترك المتهمون مشكلـة سياسية او اقتصادية او ناحية من نواحي القضية الوطنية الا وتناولوها . وكل يوم يمضي انما يضيء قفص الاتهـام ويزهو ، والمتهمـون ترتفع رؤوسهـم ، والمحكمـة تتضاءل وتستسلم ، والمحامون يجيئون الينا بنظرة جديدة ، نظرة ملؤها الاهتمـام والتقديـر وانسحق كبار المحاميـن الرجعيين تحت وطأة المقاطعة والاحتجاج ، وعجزهم عن الارتفاع الى مستوى الموقف وكل يوم وبعد نهاية الجلسات ، وفي اسفل السلم المؤدي من قفص الاتهام الى بدروم المحكمـة ، نجـد اذرع واحضان وقبلات الجنود المكلفون بالحراسة ، في انتظار الرفاق الذيـن كـان عليهم الدور في الدفاع عن حقوق الشعب الكادح .

وفي مواجهـة الحملات المتصاعدة ضد العراق وثورته ، وخاصـة عنـد تنفيذ حكم الاعدام فـي بعض العنـاصر المعادية للثـورة هنـاك ، اخذ المتهمون على عاتقهم اعلان تضامن شعبنـا مع شعب العراق فـي وجه تهديدات باشد الاجراءات الانتقامية . وعندما تهرب ، تحت ضغط المتهمين، محامو الدفاع جميعهم من الاشتراك في مظاهرات العداء للثورة العراقية ، عجزت مخابرات النظام عـن ايجاد محام واحد من هيئة الدفاع لتنفيذخطة مجلس نقابة المحاميـن الموالي للحكومة والتي كانت تقضي بمقاطعة الجلسة في اليوم المحدد لتنفيذ احكام الاعدام في الطبقجلي ... جاءوا بمحام غيـر عضو في هيئة الدفاع يحيطه عدد من رجال المخابرات ليعلن قـرار مجلس ادارة النقابة المتباكي على الحريات المهدورة في العراق . وفضح سعدرحمي نفاق مجلس النقابة الذي لم يقل كلمة عن المحاكمات الجائرة التي تجري في مصر مخالفـة لاوليات القانـون والمشروعية ، واعلن المتهمون صائحيـن تضامنهم مع الشعب العراقي واستنكارهم لتدخل النظام المصري فيشئونه مردديـن شعار « ارفعوا ايديكم عن العراق » .

★ ★ ★

مشهد لقاء سعد رحمي بزوجته ، وقد فقدا وحيدتهما عزه ، التيكانت قبل ايام في ايدينا في القفص .. وساد القاعـة صمت رهيب لا يقطعه ، لاكثر من نصف ساعة ــ سوى صوت زفرة مـن سيدة ، او حركـة اخراج منديل لتجفيف دمعة ، وسعد وفوزية يمسكـان بايدي بعضهمـا ، ويشجع

كل منهما الاخر بكلمات متقطعة ..

ومشهد اخر لا ينسى ، هؤلاء المتهمون الذين يحاكمون في اكبر قضية سياسية شهدتها البلاد .. الرجال الذين وقفوا وقفة الند للند امام عبدالناصر .. مشهد هؤلاء الرجال يحملون طفل احدهم في عيد ميلاده ،وهم يغنون جميعا وسط دهشة الحاضرين اغنية عيد ميلاد الاطفال « يالا حالا بالا » .

وبين المتهمين جميعا ، وبين العائلات جميعا تذوب كل الحواجز . وكل يوم في لحظات الاستراحة تتفجر كل المشاعر كما لو كان الجميع اسرة واحدة . اذا تخلف احد الاشخاص لاحظ ذلك كل الناس . واذا ظهر شخص كان متغيبا بعض الجلسات هلل الجميع يحيونه .

ومن المواقف ذات الدلالة العميقة موقف المتهم حسن بخيت الذي كان قد انهار امام البوليس والنيابة فور القبض عليه فادلى باعترافات اساءت الى بعض المتهمين والى الحزب. وقد بنت المباحث والنيابة على ضوءاعترافات حسني بخيت جزءا كبيرا من خطتها في القضية. وظلت السلطاتمن مباحث ونيابة واعضاء هيئة المحكمة تساوم حسني بخيت مقدمة له البراءة في مقابل الاستمرار في موقفه وعندما جاء دورهفي الكلام كانت زوجتهالشابة في مقاعد الجمهور تتابع تصرفاته وتشجعه على ان يقف الموقف الذييصون سمعته ويسترد شرفه . فانطلق حسني بخيت يتحدث مدة ساعتين لم يستطع رئيس المحكمة مقاطعته . فسحب جميع اعترافاته ، وادان اول ما ادان نفسه على ما اتخذه من موقف وصفه بانه مخز واستنكر موقفه السابق الذي نسبه الى جبنه وتخاذله ، وعبر عن عمق اسفه لما تسببه من اساءة الى من وصفهم بانهم انبل ابناء الشعب المصري ، مختتما دفاعه قائلا:

« انني اعلم ان موقفي هذا سيجر علي نقمة المحكمة ولكنني الان مرتاح الضمير اذ اقدر ان السنوات التي سأقضيها في السجن لن تكون عقوبة على نشاطي السياسي ولكن ستكون نتيجة على موقفي المتخاذل الاناني وعلى الاساءة البالغة التي الحقتها بمن هم انبل واشرف ابناء الشعب المصري » .

وبهذه العبارة ختم حسني بخيت دفاعه وسط بكاء عديد من افراد العائلات الجالسين في مقاعد الجمهور والمتهمين ، بل وبعض المحامين وصغار رجال الشرطة .

وفي الايام الاخيرة للمحاكمة ، قدم المتهمون بيانين سياسيين ، واحدا

وقعه التسعة المعترفون بعضوية الحزب ، واخر وقعه جميع المتهمين . وتضمن البيانان كافة القضايا التي اثارها المتهمون في المحاكمة . لقد كانت العبارة الاولى في البيان « اننا نكتب هذا قبل ان نغيب في احد المعتقلات ويسدل علينا ستار غليظ » .

وقد كان ..

لقد انتهت المحاكمة في يوم ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٥٩ ، وفي يوم ٧ نوفمبر كان المتهمون الذين انتهت محاكمتهم .. ولم يعد باقيا سوى اصدار الاحكام. كانوا يجردون من ملابسهم ، رتنهال عليهم العصي الغليظة من اوردي ليمان الي ابي زعبل » . (١)

وبعد عشرين شهرا كاملة في الاوردي ، وفي ظهر الخميس ٦ يوليو ١٩٦١ وفي حجرة مأمور الاوردي الصغيرة ، العارية من الاثاث سوى مكتب قديم كالح ، استمعنا واحدا بعد الاخر للاحكام الهمجية .. الاحكام التي صدرت قبل ذلك بعشرين شهرا وبقيت في درج المصيلحي يساوم بها ، ويستعملها في معركة التصفية ، ولكنها كانت سلاحا فاسدا ..

لقد كشفت الاحكام الستار عن حقيقة عدالة المحكمة ، وحيائها وطيبة رئيسها ودموع عضو اليسار ..

وان المعركة مستمرة .. ولم تنته فصولها ..

---

(١) الواقع ان اللجنة المركزية تتحمل جانبا كبيرا من مسئولية تصعيد اساليب التعذيب في الاوردي كما سيلي ذكره ، وذلك لانها لم تبد اية مقاومة للاسلوب الذي استقبلت به هناك، ولو انها قاومت ، حتى ولو بسقوط ضحايا لاحبطت كل خطة التصعيد فيما بعد .

الجزء الثاني

على حافة الموت

الفصل الأول

القافلة الغامضة

الهدوء يسود معسكر العزب في الفيوم وقد آوى بعض المعتقلين الى فراشهم وظل اخرون يقراون الصحف التي سمحوا لنا بها بعد معركة سبتمبر ، بينما انشغل البعض في لعب البريدج .

خطوات الحارس خارج العنبر هي كل ما يمكن سماعه في سكون الليل . ومن حين لاخر كان يؤنس وحشته باغنية ريفية جميلة يقف تحت نافذة العنبر ويرددها ...

يا عزيز عيني انا بدي اروح بلدي
يا عزيز عيني السلطة اخذت ولدي

لقد انبعثت تلك الكلمات اثناء الحرب العالمية الاولى حينما كانت سلطات الحماية البريطانية تغير على القرى وتختطف الفلاحين لترسلهم الى الجبهة الفلسطينية لمواجهة الجيوش التركية . وهناك سقط عشرات الالاف من ابناء ريفنا ، وظلت ارضهم تنتظرهم ، وظلت امهاتهم تنتظرهم ، ولم يعودوا .

ومنذ هزيمة الزعيم عرابي في عام ١٨٨٢ ، تميزت تلك الفترة بانتفاضة كانت عناصرها تتجمع في وجدان الشعب المصري .

كانت كلمات « يا عزيز عيني ... » تتردد ، وتعبر في كل مرحلة عن الاعزاز العميق الذي يكنه فلاحونا لقائد من قادة الثورة الوطنية الديمقراطية، كان « عزيز عيني » قبل الحرب العالمية الاولى هو البطل احمد عرابي الذي كانت قلوب ملايين الفلاحين تخفق له بعد ان هزمت الخيانة ثورته في ١٨٨٢ ، واعتقل ونفي الى سيلان ، وظلت قصته في الريف تتردد كما تتردد

اساطير المأساة ، قصة الابن الذي انتزع من امه من مصر والقي به بعيدا لا لشيء الا لانه احبها ... وكانت « عزيز عيني » تعني ايضا الزعيم محمد فريد زعيم الحزب الوطني بعد مصطفى كامل ، والذي ظل مبعدا عن مصر الى ان مات في المانيا ، لانه كان يقود الحركة الوطنية الديمقراطية في مستوى متقدم : النضال لاجلاء المستعمر ، ومن اجل دستور ديمقراطي ، والنضال من اجل حق العمال في تكوين نقاباتهم ... كان « عزيز عيني » في العشرينيات والثلاثينيات هو سعد زغلول والذي نفي الى مالطه ثم سيشل .

وحينما تردد قرانا تلك الاغنية في هذه الايام فعزيز عيني هو ذلك الشاب الذي انتزعته السلطات لتلقي به في المعتقلات .. وما من قرية في ريفنا الا واختطف احد ابنائها ، او احد ممن ينتمون اليها ، في الحملة المعادية للديمقراطية .

وحينما كان ذلك الحارس يردد : « يا عزيز عيني » لم يكن حاله يختلف كثيرا عنا .. فهو ايضا انتزع من بضعة القراريط التي كان يفلحها . وانتزع من جاموسته التي كان يرعاها ، وانتزع من امه وزوجته واخوانه الذين كان يعولهم ، ليقضي ثلاث سنوات مجندا في فرق الدرجة الثانية مقابل جنيهين كل شهر . ولم يكن عسيرا والوضع هكذا ان تنمو بينه وبين اولئك الذين قام على حراستهم مشاعر عميقة من الود .. وتزدحم عيناه بكل معاني التعاطف حينما ينظر الينا من خلال الشبكة السلكية التي تغطي النافذة ويردد ..

يا عزيز عيني السلطة اخذت ولدي ...

وتوقفت الاغنية فجاة وانتبه الحارس ، ثم ابتعد عن النافذة بعد ان احس نشاطا غير عادي في مبنى الادارة ..

لقد وصل قائد المعتقل وضباطه ومدير مباحث المنطقة ، واستدعيت قوة الحراسة المكونة من ثلاثمائة جندي من خيامها ، وبعد قليل بدأ القائد وضباطه يمرون على العنابر وينادي من قائمة في يده اسماء مائة وعشرين من المعتقلين ، واصدر تعليماته لهم بحزم امتعتهم . لقد اتسم صوته تلك المرة بالفلظة والخشونة اللتين كان قد تخلى عنهما . وصلت اربع سيارات كبيرة مغلقة تصحبها مجموعة من السيارات البوليسية المسلحة ، وسمع صليل السلاسل . كل شيء كان يشير الى ان الذين نوديت اسماؤهم سيرحلون الى مكان جديد .

جاءت تلك « الترحيلة » عقب وصول خبر مقتل المناضل الشيوعي محمد عثمان وعقب وصول انباء اختطاف سكرتير الحزب الشيوعي اللبناني فرج‌الله الحلو ، واغتياله في دمشق ، فاشعلت غضب المعتقلين وانطلقت هتافاتهم ضد الارهاب وتعالت اصواتهم تهدد ...

لا الليمان ولا التشريد يرهبنا ناره
احنا جوا السجن حديد احنا ثواره
احنا طليعة شعب مجيد وكفاحنا كفاحه
وانتصار الشعب اكيد وسلاحنا سلاحه

وتستمر الانشودة تحكي عن كل تجارب شعبنا المريرة مع النظام الناصري وعلى الاخص شنق البطلين مصطفى خميس ومحمد البقري ، بعد محاكمة عسكرية صورية في كفر الدوار لاتهامهما بقيادة اضراب عمال شركة مصر للغزل والنسيج بكفر الدوار في اغسطس ١٩٥٢ .

البقري وخميس مشنوق بايدين العسكر
يهتف بالصوت المخنوق والدم الاحمر
دم بيشعللها نار في طول الوادي
نار كفاح ، كفاح ثوار ، من اجل بلادي

نجمعنا نحن الذين صدر الامر بترحيلنا في المنطقة الحرام ، يحيط بنا الجنود ، شاكي السلاح ، والحجلات تطبق على معاصمنا ويساق كل ثلاثين منا الى احدى السيارات المغلقة ، فنحشر فيها حشرا والاصوات الهادرة من داخل العنابر تدفع الدم حارا في عروقنا ، فيتبدد برد ذلك الليل الثامن من نوفمبر ...

لا الليمان ولا التشريد يرهبنا ناره
احنا جوا السجن حديد احنا ثواره

وتنطلق بنا السيارات في تلك الرحلة الغامضة ، واخر ما تعيه ذاكرتنا من الفيوم هو هتافات الرفاق تودعنا :

عاش الحزب الشيوعي المصري

دارت السيارات دورة واسعة قبل ان تخرج الى الطريق الصحراوي وحينئذ بدأت تظهر اول معالم الرحلة الجديدة ، لقد عرفنا على الاقل اننا لسنا متجهين الى بني سويف حيث يتم من هناك ترحيل المعتقلين الى الواحات الخارجة بالقطار ، وانما كنا في الطريق المؤدي الى القاهرة ..

وبدأ اعضاء مجموعة خليل (١) المنقسمة على الحزب يهللون ويتصايحون : « اننا ذاهبون الى القلعة تمهيدا للافراج عنا » .. وابتسمنا في رثاء ... ان رحلات الافراج لا يمكن ان تتم تحت جنح الظلام وتحت الحراسة المشددة ، وليس هناك في الجو السياسي ما يشير الى اي تراجع من جانب عبد الناصر في حملته ضد الشيوعية .. بل العكس فأبواق الدعاية ما زالت تواصل حملتها المسعورة ، وقبيل ترحيلنا بايام كانت هناك حملة اخرى اعتقل فيها حوالي عشرون شيوعيا ...

« ولكنهم كانوا يرددون في سذاجة : ان الصاغ صلاح سالم في موسكو ، وهذا دليل على ان العلاقات مع المعسكر الاشتراكي بدأت تعود الى سابق عهدها وهذا بداية الانفراج » .

كنا قد تعدينا غابة اوشيم ، وبذلك اختفت اخر قطعة من الارض الخضراء ولم يعد المرء يتبين الا جبالا من الظلام الفاحم على حدود ضوء المصباح الامامي للسيارة .

وتوقفت تلك المناقشة على نغم ريفي حزين ، كان يغنيه احد رفاقنا الاتين من قرى الدلتا ...

يا ليل يا ليلي يا ليلي .. يا ليل يا ليل يا ليل
زعق الوابور ع السفر
انا قلت رايحين فين ..

---

(١) خليل هو الاسم الحركي لمحام مصري تزعم الجماعة المعروفة باسم الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني (حدتو) بعد طرد قادتها وهم من الفرنسيين والايطاليين الذين كانوا يعيشون في مصر الى خارج البلاد . ومنذ اللحظات الاولى لحركة ٢٣ يوليو كانت هذه الجماعة تؤيدها تاييدا مطلقا وغير مشروط مما ادى الى حدوث انقسامات كثيرة فيها احتجاجا على هذا الموقف . وبعد ان انضمت الجماعة للحزب الموحد ، عاد خليل لقادها للانقسام على الحزب في منتصف ١٩٥٨ لانه كان من رايه ان اعضاء الحزب الشيوعي جميعا يجب ان ينخرطوا في الاتحاد القومي (حزب الحكومة) بينما كانت الاجنحة الاخرى في الحزب تعارض ذلك ، وعقب اجراءات التاميم عام ١٩٦١ خرجت هذه الجماعة بنظرية ان السلطة الناصرية على راسها مجموعة اشتراكية وان واجب الثوريين هو الاندماج فيها ، وبعد ان حلوا تنظيمهم رسميا عام ١٩٦٤ انضم قادتها واعضاؤها للتنظيم الطليعي (السري) الذي تولى امانته شعراوي جمعة ، ثم عاد بعضهم ينشط مؤخرا ويصدرون مجلة سرية يسمونها الانتصار لبرر السياسات الرسمية الحالية .

رايحين تغيبوا سنة
واللا تغيبوا اتنين ..
وسرحت الخواطر بعيدا ...

وهمس احد اعضاء مجموعة خليل : « ليه بيغنوا الاغنية الحزينة دي ... كاننا رايحين مش راجعين .. احنا حنطلع قريب ، لازم يغنوا حاجة فيها فرح .. » .

كان فنانا كبيرا له مكانته المرموقة بين افراد شعبنا ، وليس بين المثقفين فحسب ، فكل صورة من صوره ، طوال مراحل نضالنا الوطني كانت في قوة المنشور السياسي .. وكان ايضا من هواة الفولكلور المصري ..

ـ واجبته ..

ـ غني انت اغنية فرح .. رفاقنا ما بيفكروش بطريقتك ، ما فيناش واحد يثق في النظام زيكم .. علشان كده ما حدش مصدق ان فيه افراج .. وصمت ... وبعد قليل بدأ هذا الفنان يدندن تلك الاغنية الشعبية التي تحكي قصة مقتل احد ابطال ابناء الصعيد على ايدي العساكر النوبيين الذين طالما استخدمهم صدقي باشا ضد جماهير شعبنا المعادية للاستعمار والاقطاع ...

يا بهيه وخبريني
عاللي قتل ياسين
قتلوه السودانيه
من فوق ظهر الهجين
وياسين رايح في دمه
وخايف منه الحكيم
واحكم بالعدل يا قاضي
قدامك مظاليم
عوج الطربوش على شجه
وحكم باربع سنين
وتوقف فجاة .. وكان عقربا لسعه .. وهو يقول :

« اربع سنين .. مش معقول اربع سنين .. علشان ايه تقعد اربع سنين .. هو ـ اي عبد الناصر ـ محتاج لنا برده .. احنا خارجين .. مش معقول .. » وصمت .. وتركته يعيش مأساته .. فمنذ اللحظة

الاولى وقادته يقنعونه بان اعتقالهم امر مؤقت .. وان في الامر خطأ ما ، وانهم لا بد مفرج عنهم قريبا ، فليست هذه سوى ازمة عابرة بين عبد الناصر وبينهم ، وسرعان ما يستعيدون ثقته ويفرج عنهم ...

كانوا يكررون له هذا ، وكان يكرره لنفسه ، حتى يقتنع به ، ولكنه احيانا ما كان يضيق ذرعا بتلك الاكذوبة التي يحاول ان يفرضها على ذهنه ، ... اكذوبة الازمة العابرة التي سرعان ما تنتهي ، حينئذ كان يثور ويسب .. انه ما زال حتى هذه اللحظة : (١) ورغم ما حاول ان يقنع به نفسه عن الازمة العابرة ما زال ملقى في معتقل الفيوم والطريق الوحيد الذي تفرضه عليه المباحث الناصرية للخروج الى الحياة .. هو ان يكتب استنكارا للشيوعية ويقدم اعترافات مكتوبة عن كل علاقاته السياسية ..

الثالثة صباحا .. دخلت القافلة مدينة القاهرة ، وعلى طول طريق الهرم انتشر رجال البوليس السري .. كما انتشرت الكازينوهات .. وما زالت اصوات الموسيقى الخافتة تنطلق منها ، والبورجوازيون يلهون فيها، فقد اصبحت القاهرة ملكا خالصا لهم ، ولم يعد هناك ما يخشونه في ظل تلك الحملة على الشيوعيين .. فلم لا يعربدون ..

عبرت القافلة كوبري الجامعة ثم جسر القصر العيني ، وبدلا من ان تنعطف يمينا .. في اتجاه القلعة .. انعطفت يسارا .. ونظرت الى صاحبي الفنان .. وفهم ما اريد فقال : معلهش .. نبقى رايحين القناطر استعدادا للافراج عنا ..

كانت المدينة كلها نائمة في تلك الساعات من الصباح ، ومع ذلك ضاعفت السيارات من سرعتها ، وكأنما تخشى ان يستيقظ من اهل المدينة من يشهد تلك القافلة الغامضة وهي تسير الى وجهتها المجهولة ... كانت المدينة نائمة وادعة .. ومع ذلك كان سجانونا يخشونها ..

وحينما انعطفت القافلة شمالا بشرق وهي تخرج من القاهرة على نهاية حي شبرا .. نظرت مرة اخرى الى صديقنا الفنان .. الذي اجاب وان كان في صوته رنة غير واثقة ..

« يظهر اننا رايحين ابو زعبل .. دا معتقل كويس ، احنا سيبناه

---

(١) لحظة كتابة هذا الجزء من الكتاب ـ اي بعد ذلك بحوالي عامين ـ حيث قضى هذا الفنان عشرة شهور في معسكر التعذيب في اوردي ابو زعبل ، ثم نقل الى سجن الواحات الخارجة ، ثم الى معتقل الفيوم ثانية .

سنة ١٩٥٦ . وكان فيه راديو وصحف ، وكان مسموح لنا فيه بالزيارة .. واعتقد ان احنا منقولين هناك عشان يدونا حق الزيارة من اهالينا .. لان الفيوم بعيدة عليهم ..

وابتسمت .. وقلت له :

ـ لكن ابو زعبل داهو اللي دخل عليكم فيه همت سنة ١٩٥٦ بجنوده وضربكم بالشوم وانتم مضربين عن الطعام في اليوم التاسع ..

فبان عليه الضيق وهو يجيب ..

ـ انتم متشائمين ، ما بتشوفوش الامور الا من جانبها الاسود ..
وساد الصمت وسهام من الريح البارد تنفذ من فرجات في ستائر العربة لتصيبنا بما يشبه الرعشة تشمل البدن باكمله ..

ومرت حوالي الساعة بعد خروجنا من القاهرة ، ثم مالت القافلة من الطريق الرئيسي الى طريق جانبي ضيق تتعانق في اعلاه قمم اشجار الكافور المصطفة على الجانبين .. ولم تكد السيارة الاولى تقترب من نهاية ذلك الطريق حتى تعالت في الجو صيحات عسكرية ، واوامر سريعة ، وقرقعة سلاح ، وعلى اضواء الفجر الاولى بانت معالم المكان ...

كان الطريق يفضي في نهايته الى بوابة ضخمة كتب في اعلاها : « اوردي ليمان ابي زعبل » . وعلى جانبي البوابة وقف صفان من رجال البوليس الحربي في وضع استعداد ببنادقهم سريعة الطلقات ، وعلى بعد امتار الى يسار الداخل كان مكتب مأمور السجن ، وضعت امامه منصة ، وعلى بعد خطوات الى يسارها استقرت الالة الكريهة التي تعرف في السجون المصرية باسم « العروسة » وهي عبارة عن قاعدة خشبية يرتفع فوقها ما يشبه الصليب ، يربط اليه الانسان بسيور جلدية ، وهو مفرود الذراعين عاري الظهر ، ليجلد بسوط ذي حبائل من جلد خاص كل منها معقود ثماني عقد ..

ونظرت الى صديقنا الفنان .. كان يدخن سيجارته في عصبية ...

الفصل الثاني

استقبال

لم تتوقف السيارات امام بوابة الاوردي ، بل واصلت السير الى مكان خرب يبعد حوالي ٣٠٠ متر ، وهناك صدر لنا الامر بالنزول من السيارات لنجد انفسنا محاصرين باعداد غفيرة من الجنود المسلحين باسلحة خفيفة ، وبالعصي الغليظة ...

جلسنا القرفصاء في ذلك المكان العاري ، في برد الصباح النوفميري. حتى اذا كانت الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم ـ التاسع من نوفمبر ١٩٥٩ ـ تعالى صوت « البروجي » معلنا وصول اللواء اسماعيل همت وكيل مصلحة السجون وبصحبته عدد من اصحاب الرتب العسكرية العالية من مصلحة السجون ، ومن وزارة الداخلية ، ومن ادارة المباحث العامة ، وادارة المخابرات العامة .

واللواء همت هذا كان ضابطا بمخابرات الجيش ، وبعد حركة ٢٣ يوليو ابعد من الجيش لمسائل تتعلق باخلاقياته ، وبعد توسلات ووساطات الى عبد الناصر ، الحق ضابطا بسجن القاهرة ، وكان من عادة النظام ان يلجأ الى هؤلاء الذين اذلهم ، فيعيد اسناد مهمات معينة لهم مطمئنا الى انهم سيتفانون في خدمته بعد ان ادبهم ، وعليه فحينما احس النظام بحاجته الى رجل دموي لمصلحة السجون لتاديب معارضيه وخاصة الشيوعيين ، اظهر همت كفاءة منقطعة النظير مما جعله يرقى بسرعة الى وكيل مصلحة السجون .

واخذ الجميع مكانهم الى المنصة امام مكتب مأمور السجون ..

ولقد اشتهر همت بكراهيته العميقة للشيوعيين ، كراهية ملأت عليه

كل حياته حتى انه على حد تصريح له لاحد اصدقائه .. لم يعد يعرف كيف يحب ابناءه ، ورجال مصلحة السجون يحكون اقاصيص كثيرة عنه تتعلق بحياته الخاصة وما فيها من انحرافات ..

لقد حظي اسماعيل همت برضاء كبار المسئولين في النظام ، وكلما اعرب له هؤلاء عن اعجابهم بالاسلوب الذي يتبعه مع كل معارضي عبد الناصر المودعين في سجونه كلما تمادى هذا في دمويته طلبا للمزيد من اعجاب سادته ..

كانت الكلمة الاولى والاخيرة في مصلحة السجون للواء همت باعتباره ضابط مخابرات لانه مقرب من عبد الناصر ، حتى مدير مصلحة السجون لم يكن يستطيع ان يعترض على امر يريده همت ، وبلغ من سطوته انه كون لنفسه فرقة خاصة من عتاة جنود مصلحة السجون ، واكثرهم شهرة بغلظة القلب والشراسة ، مهمتها تأديب اي فريق من المسجونين يرى الحكام ضرورة تأديبهم .. ان كل كبار المسئولين في مصلحة السجون يقومون بجولاتهم التفتيشية على السجون بمفردهم ، فيما عدا همت الذي لا يزور سجنا الا مصحوبا بالفرقة التي عرفت باسمه .. فرقة همت ..

ولعل الاسلوب الذي دبر به همت « حفل الاستقبال » لنا على بوابة الاوردي يلقي ضوءا على طبيعة هذا الرجل ..

كان المعتقلون ينادون خمسة بعد خمسة .. بشكل عادي ، وهم يحملون امتعتهم الى حيث يتوارون عن اعين زملائهم ، وفجأة تصدر لهم الاوامر بالجري ولا مجال للتردد اذ حالما تصدر الاوامر تنهال العصي الغليظة على اكتافهم وظهورهم ، وطوال الطريق يطاردهم بعض الجنود بالعصي ، وضابط على ظهر جواد ، وعصيهم تهوي على ظهور الخمسة الذين يجرون متعثرين في امتعتهم ..

وحينما يصل الخمسة الى بوابة الاوردي ، امام العصابة الدموية بزعامة همت تتلقف كل منهم مجموعة من الجنود باللكمات والصفعات والعصي الى ان يخر على الارض امام رجل امسك بادوات الحلاقة فيزيل له شعر رأسه تماما ولا يسلم اثناء ذلك ايضا من الركل والعصي .

كان على الواحد منا بعد ان يفرغ منه الحلاق ، ان يخلع كل ملابسه ويقف عاريا تماما في مواجهة اسماعيل همت بين اللكمات والصفعات الى ان يستمتع اللواء الدموي . ومن حين الى اخر كان همت يشير الى البعض

منا فيجرون الى « العروسة » حيث يجلدون .

ويتقدم اثنان من الجنود ليجرا الواحد منا وهو عار تماما من اذنيه الى بوابة الاوردي حيث تستقبله عصابة اخرى من الجنود مسلحين بالعصي الغليظة ، وبعصي من الخيزران السميك ، والرفيع ، وبفروع النخيل وبسياط من الجلد ، وعلى راسهم الضابط السفاح عبد اللطيف رشدي ، هنالك يستوقف الواحد منا مرة اخرى لينهال عليه الضرب من كل ناحية. لقد نظموا انفسهم بحيث يذيقوننا طعم كل ادوات الضرب ..

ثم يمر الواحد منا بين صفين من الجنود حاملين عصيا من الخيزران تنهال على جسده العاري الى ان يصل الى باب العنبر فيدمع به احد الجنود الى الداخل ثم يغلق الباب .

كان من بيننا مرضى القلب ، ومن كانت آلام الروماتيزم تغري مفاصلهم ، كان بيننا مصدورون ، وكثيرون يعانون من الانيميا الحادة ، كما كان هناك كثيرون ممن تجاوزوا الخمسين من عمرهم ، ولم يعف هذا واحدا منهم من ان يمر بنفس الشوط ، كل ما هناك ان من كان يسقط منهم مغمى عليه ، كان يلقى به في قناة ينصرف فيها ماء ري الحديقة الموجودة امام السجن لكي يفيق ، ومن لا يفيق يجر من قدميه الى داخل الاوردي حتى يلقى به في احد العنابر ..

كانت خطة الاستقبال مصممة بحيث تعطينا جرعة مركزة من الهوان قبل ان تطأ اقدامنا ارض السجن الجديد .

كانت العصي الغليظة في ايدي الحراس الذين احاطوا بنا فور نزولنا من السيارات تثير في النفس مشاعر الضيق والاشمئزاز والغثيان، فالمرء يشعر بنوع من الاعتزاز حينما يكون تحت حراسة جنود مسلحين بالبنادق او المسدسات ، او اي نوع من الاسلحة النارية ، فهذا يرسل في النفس على الاقل شعورا بان الخصم لا يستطيع السيطرة عليك الا مستعينا باسلحة حديثة ..

اما تلك العصي الكريهة فكان مرآها يبعث في الذهن صورة قبيحة ظلت تلح عليه طوال تلك الفترة التي جلسناها القرفصاء في انتظار وصول همت ، صورة مطاردي الكلاب الضالة من الجنود التابعين للمجالس القروية وقد اخذوا يجوبون ازقة القرية والعصي الغليظة ساكنة فى ايديهم حتى اذا ما لمحوا واحدا من تلك الكلاب انقضوا عليه واحاطوا به وانهالت

عصيهم على ظهره وراسه حتى يخر تحت اقدامهم ، ومن راى عملية المطاردة يستطيع في سهولة ان يدرك اية صورة ارادوا بعثها : فبعد ان ينادي على الخمسة من المعتقلين ثم تصدر عليهم الاوامر بالجري تحت ضربات العصي بحيث تشل المفاجاة ارادتهم تماما ، تستطيع ان ترى صورة طبق الاصل من الصيد في البراري . المعتقلون الخمسة يجرون كما تجري حيوانات الصيد والجنود خلفهم بالعصي وبسيل من الصراخ والسباب المختلط غير المفهوم تماما ككلاب الصيد حينما تنطلق بنباحها خلف الفريسة ، والضابط يتابع المطاردة على ظهر حصانه ، تماما كاحد اللوردات الانجليز اثناء رياضة الصيد .

وحينما يقع معتقل في النهاية بين يدي الجنود امام اللواء همت ينقضون عليه ، واحد يحلق له شعره ، والاخر ينزع ملابسه ، وعدد اخر ينهال عليه ضربا ، ويعلو السباب والصراخ ، فان المنظر لا يختلف كثيرا عن منظر الفريسة حينما تقع في النهاية بين مخالب كلاب الصيد لتعمل فيها انيابها واظافرها وزمجرتها الدموية تملأ الجو .

ان تعرية المعتقلين السياسيين من ملابسهم كاسلوب في الاذلال لم يستخدمه من قبل الا جنود نابليون الذين غزوا مصر في اواخر القرن الثامن عشر ، ويحكي الجبرتي في تاريخه كيف اقتحم الفرنسيون الازهر لاخماد ثورة القاهرة الاولى ، وكيف اعتقلوا المناضلين الذين كانوا بداخله ونزعوا عنهم ملابسهم وضربوهم على باب الازهر .

كان من الصعب تبين تلك المخلوقات الغريبة التي تقف الى جوار الحائط ، فالمرء لا يفيق من صدمة الاستقبال حتى يفاجأ بصورة جديدة . ان اولئك الادميين الذين كان يعرفهم من لحظات قد تغير شكلهم تماما : وجوه ملتهبة دامية او متورمة ، مليئة بالكدمات بحيث غابت ملامح الوجه المالوفة . شعر الرأس قد ازيل تماما ، وارتدى كل واحد طاقية من القماش اشبه بالكاب ، وكانت مفارقات : هذا طاقيته من الضيق بحيث تتارجح على قمة الرأس ، وذاك طاقيته من الاتساع بحيث تغطي الرأس والاذنين وجزءا من الوجه وملابس السجن الفضفاضة او الضيقة مصنوعة من نسيج رديء ابيض .. كانت هناك مفارقات غريبة في الملابس لتكون في مجموعها عددا من الاوضاع الكاريكاتيرية لم يملك كل منا نفسه من الضحك حينما يتبين ملامح رفيق له في واحدة من هذه الكاريكاتيرات .

همس احد الرفاق لنا ونحن وقوف ووجوهنا الى الحائط حسب

التعليمات .. « هونوا عليكم ... لولا احساسهم بالضعف لما فعلوا ذلك » .

وهنا فتح الباب ، وقذف من خلاله برجل اسمر فارع الطول متقدم في السن ، عار تماما ، اخذ مكانه الى جانبي وهو يقول بصوته المبحوح : « مش معقول يتعمل فينا كده في بلدنا » .

وعرفته .. كم حدثنا عن « بروميثيوس » الذي عز عليه ان يبقى الانسان في ظلمة الجهل فسرق له النار المقدسة . نار المعرفة من السماء ، وغضبت عليه الآلهة فحكمت عليه ان يصلب مدى الدهر على جبل آسيا ، وان تأتي النسور كل يوم لتنهش كبده حتى اذا جاء الصباح نمى له كبد جديد حتى تعاود النسور نهشها ، كم حدثنا عن « بروميثيوس » ونحن ندرس على يديه في الجامعة ، وكم حدثنا عنه ونحن في معسكر العزب ، بل هو اول من نقل اسطورة « بروميثيوس » الى العربية ، هو الذي ترجم رائعة شيلي « بروميثيوس طليقا » الى العربية وعرف كل قرائها بمأساة ناقل النور والمعرفة الى البشر .

ما كدت اراه حتى تذكرت « بروميثيوس » .. حتى رايت في كل منا بروميثيوس وقد صلب في الاوردي ، وجاءت نسور الناصرية تنهش اجسادم .. وكان الذي عرفنا بمأساة « بروميثبوس » يعاني هو نفسه في مصر الناصرية ما عاناه بروميثيوس في الاسطورة الاغريقية .

لم يكن شيوعيا ، بل ربما اختلف مع الشيوعيين في كثير من الامور الاساسية خلافا يجعله من الناحية الفكرية على طرفي نقيض مع الشيوعيين ... ولكن الناصرية لم تنس له انه كان بين الموقعين في عام ١٩٥٤ على مذكرة من اساتذة جامعة القاهرة بضرورة عودة الجيش الى ثكناته والغاء مجلس الثورة وعودة الحياة النيابية ، وانتخاب جمعية تاسيسية تضع دستورا ديموقراطيا للبلاد ، ويومها طرد من الجامعة ما يقرب من المائة من اساتذتها ومدرسيها .

ولم اكد انتهي من مساعدته على ارتداء ملابسه حتى فتح الباب واندفع الى الداخل شاب عار تطارده العصي وهو يصيح ملوحا بيده . .

« لن ترهبنا معتقلاتكم سننتقم ! »

كان عامل نسيج وعضو مجلس ادارة نقابة عمال نسيج القاهرة وكان كغيره من العمال الشيوعيين يتمتعون بثقة الكتل العمالية ، رشحه العمال مرة في مارس ١٩٥٥ لعضوية مجلس ادارة النقابة ، وكان وقتها معتقلا

في نفس المكان في الاوردي ، وانتخبته الجمعية العمومية عضوا لمجلس الادارة . واعترضت السلطات على ذلك الانتخاب والغت الجمعية العمومية للنقابة ثم عادت الجمعية العمومية في يونيو عام ١٩٥٥ فاعادت انتخابه وهو معتقل . تم دخل فتى في حوالي التاسعة عشر من عمره وهو يصيح متسائلا :

هل صحيح ان روسيا اطلقت سفينة الى الفضاء ؟

كان طالبا في كلية الاداب بجامعة عين شمس .. لم يكن شيوعيا وانما ظل رجال المباحث يذكرون له انه كان واحدا ممن نظموا المؤتمر الوطني لكلية الاداب في ابريل ١٩٥٧ لمناصرة شعب الاردن ضد الانقلاب الذي قام به حسين بمعاونة المستعمرين ضد حكومة الجبهة الوطنية برئاسة النابلسي .

كان المسكين حائرا بين حقيقتين ولا يدري ايهما يصدق .

فقبل حضورنا الى الاوردي بقليل كان الاتحاد السوفيتي قد اطلق اول سفينة فضاء وسجل بذلك طفرة هائلة في التقدم البشري . ومن ناحية اخرى كانت هناك تلك البقعة من مصر الناصرية التي تخلف فيها الضمير البشري قرونا حتى وصل الى القرون الوسطى .. وبالفعل كان من الصعب على المرء ان يصدق ان هناك مكانا تواجه فيه العقيدة بمثل تلك البربرية التي عومل بها المسيحيون الاول على يد اباطرة روما في ذات الوقت الذي بدأ فيه الانسان يغزو الفضاء ... مضى الوقت بطيئا ثقيلا والمعتقلون في هذا العنبر من عنابر الاوردي الست يقفون ووجوههم الى الحائط ، ومن حين لاخر يفتح الباب ليقذف منه بمعتقل جديد ... ولا بأس ايضا ان يندفع خلفه الجنود فيتقاطرون داخل العنبر ككلاب مسعورة ليوسعوا الواقفين ضربا بعصيهم دون تمييز ؛ على الراس على الرقبة او على الظهر كيفما اتفق . وحوالي الثانية عشر ظهرا ساد السكون وتوقف صوت الضرب بالخارج ، لقد انتهى « حفل الاستقبال » .

وفتح الباب فجأة ودوى صوت جهوري .
انتباه :

دخل اشخاص كثيرون الى العنبر ، ثم سمع صوت ناعم ذو رنة انوثية يقول :

كويس اوى .. لازم تعلموهم عسكرية مضبوط ..

يرد صوت لا يقل نعومة :
احنا حنجننهم ، حنعلمهم بالكرباج ...

كان الصوت الاول هو صوت اللواء اسماعيل همت ، انه نفس الصوت الذي كان يقهقه ضاحكا ونحن عراة امام عنبر البوابة ويقول « الله .. دول شبه الهنود الحمر اللي بنشوفهم في السينما » .

اما الصوت الثاني الذي رد عليه فكان صوت الصائغ حسن منير مامور سجن الاوردي ، انه الاخر ضابط صغير السن ، رقي بسرعة لما عرف عنه من عداء للشيوعية ، وهو واحد من الضباط الذين اوفدوا الى الولايات المتحدة الامريكية ليتلقوا برنامج تدريب على مكافحة الشيوعية ، كانت هذه البعثة في امريكا عام ١٩٥٦ في ذات الوقت الذي كان الشيوعيون يقاتلون ضد قوات العدوان الثلاثي ؛ انه الآن يشرف على تعذيب عبد المنعم شتلة وسعد رحمي وعشرات غيرهم من ابناء الحزب الشيوعي الذين كانوا يقودون المقاومة المسلحة السرية في بورسعيد في الوقت الذي كان هو في امريكا يتدرب على ايدي خبراء مكافحة الشيوعية الامريكان ..

الفَصْلُ الثالِث

دوار الريس

الساعة حوالي الواحدة ظهرا ، كنا قد بدانا نعي الواقع الذي نحن فيه .. ودارت المناقشات حول ذلك الذي حدث .. مناقشة هامسة ، فالكلام ممنوع .. والحركة ممنوعة .. وانه لمن الواجب ان نعترف ان ما حدث كان مفاجاة لنا فرغم بشاعة الحملة الهستيرية التي شنها النظام ضد الشيوعية ، لم يكن المرء يتصور ان نصل الى حد اعادة بوخنوالد ، وحينما بدأ ترحيلنا ، كان كل ما تبادر الى ذهننا ، انهم سينقلوننا الى معتقل اخر تكون ادارته اشد حزما ، ويكون من السهل فيه التضييق علينا بعد ان عجزت ادارة معتقل الفيوم عن مواجهة مقاومتنا ، وحينما وصلنا الى الاوردي ورأينا فرقة همت تنتظر على بوابته ، توقعنا مظاهرة تهديدية من نوع تلك المظاهرات التي استقبل بها ممن اعتقلوا في اول العام حينما رحلوا الى الواحات ، وبعد ان مررنا « بحفل الاستقبال » كان من الصعب على المرء ان يتنبأ بتفاصيل ما سيعقب ذلك .

قال البعض ، انهم لو كانوا يريدون عملية تعذيب طويلة المدى لذهبوا بنا الى السجن الحربي كما فعلوا باعضاء جماعة الاخوان المسلمين عام ١٩٥٤ وعليه فقد اتجه هؤلاء الى انها عملية تأديبية من نوع تلك العملية التي قام بها همت ضد الشيوعيين في نفس ذلك المعتقل عام ١٩٥٩ ، وتوقع البعض ان تنتهي تلك التكديرة في خلال اسبوعين ، وتوقع اخرون ان تنتهي خلال شهر ، او شهرين على الاكثر .

الا انه بشكل عام لم تكن كل تلك التوقعات لتجد صدى كبيرا في النفوس .. كان هناك احساس عام بان النظام قد انتقل الى مرحلة جديدة

في مقاومة الشيوعيين ، ومن جديد بدأت ترن في الآذان كلمات عبدالناصر في اوائل ابريل في خطابه بالقوات المسلحة .

« سأقضي علـى هؤلاء العملاء ، وسألـقن الشيوعيـين درسا لن ينسوه » .

كثيرون لم يكونوا قد سمعوا تلك الكلمات لانهم كانوا قد اعتقلوا قبل ابريل ، ولذلك كانوا يشكون كثيـرا فـي ان يستطيع عبدالناصر ان ينفـذ هذا التهديد ، وكـان السؤال « هل يستطيع ان يواجه الرأي العام العالـمي بمثل هذه الاعمال » ؟.

اما اعضاء المجموعة المنقسمة على الحزب . فقد كان لذلك الاستقبال اثره في تزايد معدل تدهورهم (١) .. في الفيوم ، كانوا يركزون موقفهم في طرافة ،انها ازمة عابرة بين عبدالناصر والشيوعيين ، وانه حالمـا يهـدأ الموقف مع العراق ، فستعود المياه الى مجاريها ، وعليه فقد كانوا يتوقعون ان يتم الافراج في ٢٣ يوليو ، فلما انقضى ٢٣ يوليو دون ان يتم الافراج بداوا يتطلعـون الى ٢٣ ديسمبر ، عيـد النصر ، وحينما جاءت اخبار نوفمبر

---

(١) نأسف اذ نجد انفسنا مضطرين الى تتبع مواقف تلك الجماعة في هذا الكتاب ، انهم يعيشون معنا نفس المأساة ، ومروا بكل ادوارها ، بل انهم ربما يكونون ابشع تجسيم للمأساة ، اذ كلما اشتد ارهاب النظام وعدوانه ازداد تخليهم عن كل مبادئهم ، وازدادت رسائل قيادتهم الى عبد الناصر تعلن فيها الولاء الكامل له وتؤكد تخليها عن كل افكارها ، وتعتذر عن اي موقف معارض لعبد الناصر ربما تكون قد اتخذته يوما من الايام ، ومع ذلك يصر عبدالناصر على الابقاء عليهم في المعتقل ، لا لشيء الا للدور الانهزامي الذي يقـوم بـه قادتهم في صفوف المعتقلين ، والافكار الاستسلامية التي تفرزها بين المناضلين ووقوفها الى جانب الادارة دائما ضد اي معركة يخوضها المعتقلون من اجل تحسين احوالهم ، وفوق كل ذلك فهي صوت عبد الناصر داخل المعتقل ، كل نشاطها السياسي يتركز في الدعوة لـه والدفاع عن افكاره .

لقد دابت قيادة تلك المجموعة على الاتصال بالهيئات والشخصيات الاجتماعيـة فـي مصر والخارج تقدم صورة مشوهة عن واقع بلدنا ، وعن حقيقة المجزرة التي اعدها الناصريون للشيوعيين والديمقراطيين ، والى حد تبرئة عبد الناصر من تبعة كل ما نعانيه . ومن هنا ولكي لا يقع شعبنا ولكي لا يقع الرأي العام العالمي فريسة لخداع قيادة تلك المجموعة نجد انفسنا مضطرين الى كشف النقاب عن حقيقة نشاطها ، كحليف للنظام ضد الشيوعية والديمقراطية .

بان الصاغ صلاح سالم قد سافر الى موسكو ، استغلوا ذلك الخبر في ايهام اتباعهم بصدق نبوءتهم .

ولكن جاء استقبال الاوردي لينسف كل تلك الاوهام ... فسارعوا بالقاء اللوم علينا ، على الحزب الشيوعي المصري .. اننا يساريون .. ان خطة الحزب السياسية التي صدرت في مايو ١٩٥٩ والتي تضع على الشيوعيين واجب اقامة جبهة وطنية ديمقراطية في مواجهة الحكم الديكتاتوري هي المسئولة عن تعمق ازمة الثقة بين عبد الناصر والشيوعيين .. اما هم المؤيدون بلا قيد او شرط لعبد الناصر ، فقد جاءوا الى الاوردي « في رجلينا » .. لقد راحوا ضحية يساريتنا . (١)

ولكن ، حتى ولو كنا يساريين ، وحتى لو كان ما بيننا وبين عبد الناصر ، هو ازمة ثقة ، فهل هذا هو الاسلوب الذي تواجه به الافكار في بلادنا ...

وحتى هنا تطوعوا للدفاع عن عبد الناصر قائلين ان البلدان الاشتراكية نفسها قد اضطهد فيها ابرياء ، ثم اعيد اليهم اعتبارهم ...

الى هذا المستوى ، وصلت تبعيتهم للنظام وتفانيهم في الدفاع عنه. حوالي الواحدة والنصف ، فتح الباب ، ووقف جندي هنالك صائحا « صابك اليمك » ودهش الكثيرون ، وحاروا في معنى تلك العبارة ، ولكن

---

(١) ينبغي الاعتراف بان خطة مايو ١٩٥٩ كانت مليئة بالاخطاء وعدم فهم الواقع وخاصة فيما يتعلق بتحديد الطبيعة الطبقية للنظام . فقد قالت تلك الخطة ان نظام عبد الناصر يمثل القمم الاحتكارية وشبه الاحتكارية آخذة المسائل بظواهرها حيث بالفعل كانت الفئات العليا من الراسمالية المصرية تستفيد فائدة كبيرة من سياسات عبد الناصر في ذلك الوقت ، وكانت موازناتها تسجل ارباحا هائلة وقياسية ، كما حققت توسعا ـ وخاصة بنك مصر ـ في سوريا على اثر الوحدة غير الديموقراطية . وقد عانت هذه الخطة ازمة حادة حينما امم عبد الناصر بنك مصر ، ثم حينما امم كليا او جزئيا معظم المؤسسات الصناعية والتجارية والمالية الكبرى فيما بعد . ولكن القول بان هذه الخطة مسئولة عن ازمة الثقة بين عبدالناصر والشيوعيين فقول غير صحيح ، فحملة عبدالناصر على الشيوعيين بدات قبل صدور الخطة بستة اشهر . وقد بدات ازمة الثقة قبل ذلك بكثير حينما بدا واضحا ان هناك اختلافا حول نهج الوحدة العربية ، وحينما الحق عبدالناصر الحركة النقابية بالاتحاد القومي ؛ وحينما طلب من الحزب بواسطة انور السادات ان يحل نفسه ، وكان ذلك في لقاء تم بين انور السادات ومحمود امين العالم حيث قدم السادات هذا الطلب رسميا .

زملاءنا الذين دخلوا السجون قبل ذلك اوضحوا لنا معناها بسرعة ... انها عبارة تركية معناها « جاء موعد الطعام » او « اجمع للطعام » .

طلب منا ذلك الحارس ان نقف صفا ، وان نخرج من الباب جريا ، فانطلقنا لنجد انفسنا بين صفين من الحراس ، اخذوا ينهالون علينا ضربا بعصيهم حتى وصلنا الى مكان قرب باب السجن رصت فيه صفوف من الاواني المعدنية بها طعام الغداء .

كان على كل منا ان ينحني ليلتقط وهو يجري ، والضرب ينهال عليه، احد هذه الاواني ، ثم يلتقط طبقا صغيرا فيه قطعة من مادة سمراء متحجرة تبين فيما بعد انها جبن لوجبة الافطار في اليوم التالي ، ثم يتناول بعد ذلك ثلاثة ارغفة لغدائه وعشائه وافطاره . ومفروض ان تتم كل هذه العمليات تحت وابل من الضرب ، واثناء الجري ، ثم يعود بعدها كل منا جريا الى عنبره وسط نفس الصفين من الحراس .. وويل لمن كان يسقط منه شيء ...

وللنظرة الاولى الى الوعاء الذي كان يحوي الطعام لم يكن المرء يتبين فيه شيئا سوى كمية من الوحل ، ولكنه بالتدقيق تبين انه يحوي بعض حبات من الفول من نوع رديء مليء بالسوس ، من النوع الذي يقدم علفا للماشية ، لقد تعمدوا ان يتركوا الاواني مكشوفة مدة من الزمن الى جوار الباب حيث تهب الاتربة التي تراكمت فيها واختلطت بحبات الفول ، فكونت تلك العجينة الطينية ..

ولكن لم يكن هناك بد من ازدرادها .. والا فالموت جوعا ... وحوالي الرابعة والنصف فتح الباب ومرة اخرى دوى نفس الصوت « صابك اليمك » وبنفس الاسلوب التقطنا طعام العشاء .. وعاء لكل منا به بعض الاعشاب الغريبة مغلية في ماء ، تراكم عليها الغبار ، وتساقط فيها الذباب .. وتذكرنا الحساء النازي ...

كان الفراش الذي صرف لنا مكونا من بطانيتين وحصيرة رقيقة من الليف (برش) وكانت التعليمات ان يظل هذا الفراش مطويا وموضوعا امامنا ، وعلينا ان نجلس القرفصاء الى جوار الحائط طوال النهار حتى يدق جرس التمام في المساء .. حينئذ كان لنا ان نفرش الحصير ، ويلف كل منا نفسه في البطانيتين وينام ، لم يكن مسموحا للمرء حتى ان يظل جالسا بعد دقات الجرس في الساعة الخامسة مساء .

وجاء الليل .. وبرغم تلك المرحلة الطويلة التي قضيناها محشورين

في تلك العربات من الفيوم الى الاوردي ، وبرغم حفل الاستقبال ، والضرب المبرح الذي تلاهيا عند وجبتي الغداء والعشاء ، وبرغم أن المرء لم ينم لحظة واحدة طوال تلك الليلة السابقة ، بل لم تتح له فرصة تسترخي فيها عضلاته المكدودة طوال تلك الفترة .. برغم كل ذلك لم يستطع المرء ان ينام .. فعندما جاء الظلام بدأ المرء يشعر انه يسقط في هوة سحيقة .. بعيدا ... بعيدا عن الحياة .

ويبحث المرء عن حبال تصل ما بينه وبين الحياة . يحاول ان يتذكر القاهرة التي لا نبعد عنها اكثر من اربعين كيلومترا ، بل يحاول ان يتذكر ذلك الطريق المرصوف الذي جئنا منه .. حتى الاهل .. الام .. او الاخت او الزوجة .. كل شيء كان يستعصي على المخيلة .. كل شيء كان يبدو وكأنه خيالات عبرت ذهن المرء يوما ...

حينما خرجنا لالتقاط وجباتنا ، كان بوسع الانسان ان يتبين من معالم المكان ما لم نتبينه لحظة دخولنا .. سور عال من الطوب الحجري الابيض تفضي بوابة خشبية كبيرة فيه الى فناء صغير ، محصور بين السور وبين المغسل والحمام على يمين الداخل .. وحجرة الكاتب والمخزن على اليسار ، ثم اربعة عنابر موازية للسور الامامي الذي به البوابة ، هي عنابر ١،٢،٣،٤ ... ثم عنبرين طويلين هما عنبر ٥،٦ ، اقتطعت اجزاء من مؤخرتها لتكون زنازين ، وبعدها الفناء الكبير ...

وكان كل من تلك العنابر شيء اشبه بمخزن الفلال ، او بحظيرة الماشية فحينما يفتح الباب يدخل المرء الى مكان معتم طوله حوالي ٢٨ مترا ، وعرضه حوالي خمسة امتار ، في اعلى كل من جداريه الطويلين كوات مقفولة بالقضبان الحديدية ..

ان المكان يذكر المرء بالطريقة التي يحيا بها الاقطاعيون في الريف ... فكما ان قصور الاقطاعيين ما تزال تحتفظ ببعض آثار حكم الاتراك في العصور الوسطى لمصر ... كذلك كان ذلك المكان ..

في قصور الاقطاعيين تسمع كلمات تركية من امثال السلاملك والشكمة .. والحراملك .. وصاحب القصر يدعى الباشا ، حتى ولو لم يكن حائزا على ذلك اللقب التركي الاصل ، وسيدته تدعى الهانم، وصاحب البيت لا يخاطب الا « افندم سعادة الباشا » ولا يقف الفلاح امامه الا مطاطئا رأسه .

نفس الشيء في هذا المكان .. اسمه تركي : « الاوردي » ولم يكن

فينا من يفهم معنى تلك الكلمة ، وان كنا استنتاجا فهمنا انها تعني «ملحق» لان ذلك السجن الصغير كان ملحقا بالسجن الكبير المسمى ليمان ابي زعبل ،والغداء فيه ذو اسم تركي « اليمك » ونداء الجميع لفظ تركي « صابك » .

والمفروض على الواحد منا ان يمشي وهو مطأطا الراس ، وان لا يخاطب احدا ، من السجان الى الضابط الا ولا بد ان يختتم جملته بكلمة « افندم » .. ولا ينادى الواحد منا سواء من الضابط او من الحارس الا بكلمة « يا ولد » تماما كما يخاطب الباشا فلاحيه ...

ورغم ما كان لذلك المكان من عبء ثقيل على الذهن يجعل من الصعب على المرء تحت وطأته ان يصدق ان هناك عالما ينبض بالحياة وبالتقدم ، فيه بشر .. وفيه مدنية .. الا انه كان يبعث الى المخيلة بصورة من الماضي، كانت تلح وتلح ، صورة الدوار الملحق بقصور الاقطاعيين في الريف ، حيث مخازن المحاصيل .. وحظائر الماشية .. وحيث يجلد الفلاحون .. على وجه التحديد .. كانت صورة للدوار الملحق بقصر البدراوي باشا ، في قرية بهوت من اعمال مركز طلخا بمديرية الغربية (آنذاك) .

كان ذلك في ٩ اغسطس لسنة ١٩٥١ وقد ذهب الفلاحون لجمع محاصيلهم التي زرعوها في ارض استأجروها من عزبة (ضيعة) البدراوي باشا ، ومنعهم رجال الباشا من جمع المحصول لانهم لم يوفوا بالتزاماتهم ازاء الباشا .. وذهب الفلاحون يشكون لناظر الزراعة الذي يدير شئون الباشا في ارضه ، وليفهموه انهم لن يستطيعوا الوفاء بالتزاماتهم الا اذا حصدوا المحصول وباعوه ، وان بقاء المحصول دون جمع يعرضه للتلف .

وكانت مشادة .. وطلع الباشا على الضجة ، وامر رجاله ان يفرقوا الفلاحين بالقوة .. وكانت معركة .. واطلق رجال الباشا الرصاص على الفلاحين .. وسمع الفتى عناني ، وهو خفير في العزبة ، ان رجال الباشا يطلقون نيرانهم على اهل القرية ، فاسرع ببندقيته واخذ يطلق الرصاص لحماية قومه ، واختطفه رجال الباشا الى داخل الدوار .. وانهالوا على راسه بالبلط فهشموا جمجمته .. وسقط صريعا ..

وذهب الى القرية من يصيح « البداروة قتلوا عناني » وخفت البلدة كلها وحاصرت قصر الباشا .. وجاءت قوات البوليس من المديرية فحاصرت

الاهالي والقت القبض على الكثيرين منهم .. (١)

ويوم سيقوا الى المحاكمة امام المحكمة الجنائية بمديرية المنصورة، استقبلوا على طول الطريق بمظاهرة هائلة من العمال .. والطلبة .. والفلاحين وكانوا جميعا يهتفون بحياة الفلاحين . وبحياة ذكرى عناني ..

وتطوع عشرات من المحامين الديمقراطيين للدفاع عن الفلاحين ...

لقد اصبحت مصر كلها في ظل الحملة الارهابية اشبه بعزبة لاحد الباشوات .. واصبح الاوردي هو دوار « الباشا » الذي يجري فيه تاديب المتمردين ..

ولكن .. من هو عناني هذه المرة ؟

لقد ظل هذا السؤال يلح حتى غلب النعاس كل ساكني العنابر ..

---

(١) كان وزير الداخلية في ذلك الوقت هو فؤاد باشا سراج الدين الامين العام لحزب الوفد المصري ، وكان هو الاخر من الاقطاعيين ، ويتصل بصلة المصاهرة مع اسرة البدراوي باشا .

الفَصْلُ الـرَّابع

لعنة الشيخ

في كل لحظة كان كل منا مهددا بان يلقى مصرعه على ايدي رجــال النظام كما لقي « عناني » مصرعه على ايدي رجال البدراوى باشا .

كان الفجر في ذلك المكان كريها على عكس الفجر في بلادنا فالفجر في بلادنا ساحر اخاذ يبدأ بصياح الديكـة ، ثمَّ تنطلـق العصافيـر تسقسق ، وخلال ذلك تنطلق من المآذن اصوات جميلة بتراتيل الصباح .. والنسيم رطب ندي محمل بعطر زهور البرسيم والبرتقال ..

ولكنه هنا كريه ، انه بدايــة يوم من العذاب .. بداية يوم من الضرب الوحشي والسخرة والاهانات .

كان لزامــا علينا ان نضع جرادل المياه تحت الصنابير التي نتركهــا مفتوحة حيث لا تجري فيها المياه الا عند الفجر . وكان صوت الماء المتدفق من الصنابير في الجرادل المعدنية عند الفجر اشبه برحى تفري اعصابنا ، كنا نستيقظ على صوتها وكلنــا يود لو ان الليل استطال طولا لا يطلع معه فجــر .

وحالما نستيقظ كانت التعليمــات هي ان نلف الفراش ونضعه امامنا ثم نجلس القرفصاء بجوار الحائط والبرودة تسري من الارض الى اقدامنا العاريــة الى الاطراف فالى بقية الجسم ، وينتظــر كل منــا دوره فــي الذهاب الى دورة المياه الموجودة داخل العنبر . كنا ستين نقطن كل عنبر، لقد وصلت دفعــة جديدة من الفيوم بعد وصولنا بيوميــن وكانت تضــم مائة وخمسين معتقلا .

وما يكــاد يحل دور اخــر واحد فينا لغشيان دورة المياه ، حتى يفتح

السجن ونستعد لما يسمى « بالتفتيش الصباحي » .. اذ يفتح باب العنبر ويتقاطر الى داخله حوالي عشرون جنديا بقيادة ضابط وصول مسلحين كلهم بالعصي الغليظة والسيور الجلدية ، وكان علينا ان نقف ووجوهنا الى الحائط ثم ننحني ويدور كل منا حول نفسه ، والضرب ينهال عليه .. على رأسه ، على كتفيه ، على ظهره وجنبيه .. وتستمر تلك العملية في كل عنبر حوالي عشرين دقيقة ينال الواحد خلالها ما لا يقل عن عشرين ضربة .

ويلي ذلك ما يسمى « بطابور الرياضة » : يخرج ساكنو كل عنبر لينتظموا في طابور رباعي التنظيم ، ثم يجرون بالخطوة السريعة حول الفناء لمدة ثلاثين دقيقة ، وعليهم طوال ذلك ان يكرروا بصوت عال جماعي « شمال.. يمين » والجنود منتشرون بعصيهم حول الطابور يوسعوننا ضربا.

وفورا ، ودون لحظة نسترد فيها انفاسنا اللاهثة ، علينا ان نمارس رياضة شاقة ، كتمرين الضغط وذلك يعني ان يتمدد الانسان بموازاة الارض مرتكزا على اصابع قدميه ويديه ، ثم يهبط بجسمه حتى يلاصق صدره الارض ، ويعود فيرتفع مستندا على الذراعين . كنا نكرره ما لا يقل عن خمسين مرة وبسرعة ، وكثيرا ما يتركنا الصول المشرف على الطابور في وضع ارتكاز على الذراعين المثنيتين واصابع القدمين مدة طويلة ، حتى تتصلب عضلاتنا ، ويقف الضباط يتلذذون بمرآنا ، وكل منا يجاهد الا تخونه ذراعاه فينكفىء على وجهه ،وكثيرون من كانت تخونهم اذرعهم فينطلق عليهم الجنود بالعصي كالكلاب المسعورة . وينتهي الطابور بعد عدد من التمرينات المرهقة ،بتمرين الزحف ، وذلك ان نجلس القرفصاء معتمدين فقط على اصابع القدمين وايدينا مثبتة في خواصرنا ، ونقطع الفناء جيئة وذهابا ما لا يقل عن عشر مرات بهذا الوضع والعصي تتابعنا .

وبانتهاء تلك الجولة داخل الاوردي ، تبدأ جولة الجبل اذ يتجمع كل المعتقلين بما فيهم الاثنان والستون رفيقا الذين حوكموا امام المجلس العسكري في الاسكندرية ممن جيء بهم الى الاوردي قبل وصولنا بيومين(١)، يتجمع كل هؤلاء ، ثم نخرج للعمل في محاجر البازلت في ابي زعبل .. لم يكن مسموحا ان تمر دقيقة دون ان نرهق فيها ، ولذا فقد كان لزاما في ذهابنا صباحا الى المحاجر ان يحمل الواحد منا قطعة كبيرة من الحجر

---

(١) المفروض ان هؤلاء تحت مسئولية النيابة العامة ، وان يكون كل شيء يتعلق بهم بعلم وامر النائب العام ولا دخل للسلطات العسكرية التي تعمل بمقتضى الاحكام العرفية بهم.

الجيري الابيض طوال المسافة بين السجن والجبل وهي حوالي ٢٥٠٠ متر حيث توجد ورشة لشطف هذه الحجارة واعدادها للاستخدام في اعمال البنـــاء .

وفي المحجر ، كنا نقسم جماعات ، جماعة عليها ان تزيل تلا من التراب طوله حوالي مائةوخمسين مترا وعرضهحوالي عشرين مترا وارتفاعه حوالي خمسة امتار . كان افراد هذه الجماعة يحملون التراب في مقاطف ويجرون بها مسافة مائتي متر ويعودون جريا ايضا ، وعلى طول الطريق جنـــود بالشوم يضربون المسرع والمتباطىء على حد سواء .

كان سكان العنابر المختلفة يتبادلون العمل في تلـك المهمـة كل اسبوع كما كانت توكل هذه المهمة بشكل خاص للعنابر التي يرى الضباط : «تاديبها» لتلكؤها في تنفيذ الاوامر ، او لمقاومة يبديها بعض من نزلائها .. وحينئـــذ يتضاعف عدد الجنود الذيـن يقفون على جانبي الطريق وينهال الضرب بـلا حساب .

وجماعة اخرى كان عليها تفتيت صخور البازلت الضخمة ، وجماعة ثالثة تحملهـا الى المجموعات التي جلست في حلقات لتكسير البازلت قطعا صغيرة لا يتجاوز حجم الواحدة منهـا عشرة سنتيمترات مكعبة . ولا ينتهي العمل المرهق بذلك ، فنحـن نعـود من المحجر بعد هذا جريا على الاقدام ولا نكـاد نتناول طعام الغداء حتى نخرج لتفريغ القطارات المحملة بالحجر الجيري القادمة من محاجر طره .

والعمل بالحجر مسرح لكافة الاعمال الاستفزازية .

***

ذات يوم في الحادي والعشرين من نوفمبر ، ونحن نستعد لالتقاط الاواني التي بهـا طعام العشاء ، اوقفونا في طوابير وقال الصول ، وكان مامور السجن حاضرا : « سأسألكم الان ، ان كان بينكم شيوعي ، وعليكم ان تجيبوا « لا يا فندم » . ثم نطق سؤاله ، ولم يتلق اجابة الا من بضعـة اصوات تبددت في الصمت الكامل الذي واجهنا به سؤال الصول . وصرفونا الى العنابر غير انهم كانوا يبيتون امرا .

ففي الصباح التالي تضاعف الضرب اثناء « التفتيش الصباحـي » واثناء « طابور الرياضة » بشكل جنوني . وعندما ذهبنا الى المحاجر وجدنا فوهات المدافع ــ البرن والبنادق سريعة الطلقات ــ مصوبة الينا من قمم الصخور .. ثم بدأ الضرب الوحشي ، حشدوا له جنودا كثيرين ، واستعانوا

بجنود كتيبة الجيش التي تتولى حراسة المنطقة ، وحمل الضباط عصيهم وشاركوا في الضرب ،ويتعالى سبابهم الاستفزازي متناولين عقائدنا ووطنيتنا الى جوار آبائنا وامهاتنا بالكلمات البذيئة . لقد لمحت الفاس ترتفع في يد احد الرفاق ليرد بها على ضربة مؤلمة من ضابط رفيع يدعى يونس مرعي، ولكن تراخت يد الرفيق في الوقت المناسب قبل ان ينطلق الرصاص من اعلى الصخور .. فهذا بالتحديد ما كانوا يريدونه ، ان يستفزونا لعمل يبرر لهم حصدنا بالرصاص .

كانت لهم سابقة في هذا العمل .. فلقد دبرت لاعضاء جماعة الاخوان المسلمين المسجونين في ليمان طره ، حادثة استفزازية عام ١٩٥٦ ، واصدر زكريا محيي الدين وزير الداخلية امرا تلفونيا الى مدير الليمان باقتحام العنابر واطلاق الرصاص عليهم ، وقتل منهم في ذلك الحادث سبعة وعشرون غير عشرات من الجرحى ، ولقد تم ذلك الحادث تحت قيادة نفس الضابط الدموي اليوزباشي عبداللطيف رشدي الذي كان يشرف على عملية تأديبنا في المحجر في ذلك اليوم ..

صحيح اننا كنا نعود كل يوم وقد تشققت اقدامنا العارية ، وسالت الدماء من اماكن عدة في اجسادنا ، سواء من الضرب او من الصخور او من ضربات الشواكيش ، كما كنا نحمل فيما بيننا اثنين او ثلاثة ممن كانت اصاباتهم خطرة او ممن بلغ بهم الاعياء حد الاغماء وعدم القدرة على الحركة .

ولكن في ذلك اليوم عدنا بحصاد مضاعف من الاصابات وبكميات مضاعفة من الدماء التي سالت وباعداد مضاعفة من الرفاق الذين اضطرتنا حالهم الى حملهم فيما بيننا .. واصطلح على تسمية ذلك اليوم الثاني والعشرين من نوفمبر بيوم « الاربعاء الدامي » .

ولئن كان السجن الحربي قد صار مكانا تنبعث منه اقاصيص الرعب والدم بعد حركة ٢٣ يوليو ، فابي زعبل كان منذ زمن بعيد مكانا يثير اسمه الفزع والرهبة .

والمرء اذا ما عاد بذاكرته الى ايام طفولته ، يذكر كيف كان الكبار يخيفوننا برجل خرافي اسمه « زعبل » .. صورته بالقدر الذي كان يمكن لمخيلتنا الطفلة ان تصنعه ، هي صورة رجل بدين ، ذي كرش كبير ،واسنان سوداء ، وعيون مستديرة لا حواجب لها ، يختطف الاطفال الاشقياء ويلتهمهم .

وحينما كنا صبية ، لم تتعد مداركنا حدود القرية ، كنا نسمع عن رجال ذهبوا الى ابي زعبل ، لانهم قتلوا او لانهم ارتكبوا عملا خطيرا وانهم يقيدون هناك في سلاسل حديدية ، ويضربون ولا يقدم لهم طعام .

ان هذه الصور المحدودة عن ابي زعبل لم تكن بدون اساس مادي، ولكن على اية حال فان ابي زعبل لم يكن شيئا كريها لنا كأطفال وحسب ، بل تعدى ذلك الى وجدان شعبنا كله ،حتى لقد سرت في ادبنا الشعبي اسطورة عن ذلك المكان تبين مدى كراهية الناس له .

فالمكان في مقاطعة القليوبيه ، وهي مقاطعة خضراء ، تنبت كل المحاصيل طوال العام ، وتمتاز عن بقية المقاطعات ببساتينها حيث المانجو والبرتقال والمشمش والكرز ، وكلها اشجار تكتسب ثوبا جميلا من الزهور، وتنشر حولها عبقا اخاذا .

الا انه في وسطها ، توجد تلك البقعة الجرداء من صخور البازلت السوداء .. ولئن كان الجيولوجيون يستطيعون تفسير تلك الظاهرة فان الاسطورة الشعبية لم تجد ما تعبر به عن قبح ذلك المكان الا غضبة قدسية حلت عليه ، وتقول الاسطورة ان احد اولياء الله الصالحين كان يمر بذلك المكان راكبا بغلته ، واشتدت حرارة الشمس فغضب وبصق تعبيرا عن غضبته فحلت اللعنة على ذلك المكان وتقلصت الارض بتأثير بصقة الشيخ وحرمها الله القدرة على الانبات وقضى بأن تتحول الى صخور .

ومحجر ابي زعبل عبارة عن حفرة هائلة في باطن الارض ننزل اليها بطريق منحدر الى عمق يتراوح ما بين خمسة وعشرين وثلاثين مترا تطل عليها من جميع النواحي جدر صخرية سوداء هائلة تبرز منها كتل صخرية آيلة للسقوط ، وفي اعلى تلك الجدر مظلات خشبية يقف تحتها جنود الحراسة بالبنادق سريعة الطلقات وهنا وهناك مدفع برن مصوب الى بطن المحجر الذي رصع بالشظايا الصخرية الدقيقة ، تعطي الارض لونا قاتما ، وتبرز من باطن الارض هنا وهناك عروق صخرية استعصت على المتفجرات فلم تتفتت .

لقد اجبرونا على اقامة طريق من التراب ارتفاعه حوالي خمسة امتار وعرضه حوالي سبعة امتار وطوله حوالي مائتي متر ، لكي يفصل بين المكان المخصص لنا والمكان الذي يعمل فيه الاف من نزلاء ليمان طره المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

الفصل الخامس

« عنابر » الشيوعيين

اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر :

مضى على مجيئنا الى الاوردي عشرون يوما ، وبينما نحن عائدون في ذلك اليوم من المحاجر ، اذا برسول اتى بسرعة وهمس في اذن الضابط الذي يقود فرقة الحراسة ، فصدرت الينا الاوامر بالتوقف .

وبعد مضي ما يقرب من نصف الساعة تحركنا من جديد الى الاوردي، ورغم انه لم يكن من السهل ان يتفحص المرء ما حوله الا ان الانسان كان يستطيع ان يشم رائحة جو غير عادي ، كان من الصعب تبين ملامحه ولكن ثمة شعور عام بان شيئا ما قد حدث . لقد سيطر ذلك الشعور علينا جميعا حتى انه حينما دخلنا العنابر ران صمت عميق وكانت الحركة محدودة للغاية .

ثم جاء رفاقنا الذين يعملون في المغسل ، وراحوا همسا يرددون ما اكد لنا شعورنا بان شيئا غير عادي قد حدث ، فقد ابلغهم الشاويش ان يعدوا ملابس سجن « ونمر » لسبعة اشخاص ، وفهموا من ذلك ان سبعة رفاق جدد سيصلون ، وعند الثانية عشرة تقريبا سمعوا صوت سيارة تقف امام الاوردي فالمغسل الذي يعملون فيه قريب من البوابة ، وبعد قليل سمعوا صوت السيارة وهي تنصرف ،ثم انطلقت اصوات الضرب والسباب في الخارج ، وكان مفهوما ان الرفاق الجدد يمرون بالأستقبال المعتاد ، الا انه على عكس ما كان يتم في عمليات الاستقبال الفردية ،فوجيء رفاقنا العاملون في المغسل بضابط وحارس يدخلان مسرعين ويعملان فيهم الضرب ثم يكدسونهم داخل المغسل ويغلقون عليهم الباب .

لقد ظلوا محبوسين في المغسل الى ما بعد عودتنا من الجبل ، فلم يروا شيئا ولكنهم كانوا يسمعون اصوات الضرب المبرح ، وصياح الضابط « هل انت شيوعي ؟ » ورد الرفاق تحديا « نعم شيوعي » ثم السباب المحموم والاوامر المسعورة بزيادة الضرب، ثم صوت المامور يقول « جروه من رجليه ».

حان موعد استلام الغداء ، وفتح الحارس بشكل روتيني العنبر رقم(١) فاسرع الرفاق الى الخارج ، غير ان ضابطا صرخ من بعيد آمرا الحارس باعادتهم الى العنبر ، ولكنهم كانوا قد لمحوا انسانا ممددا على الارض امام الزنزانة المطلة على الفناء الكبير ، واكد هذا في ارتباطه مع ذلك الجو غير العادي، ان ذلك الممدد امام الزنزانة قد فارق الحياة ، ومن خلال النوافذ انتقلت من عنبر (واحد) الى بقية العنابر كلمة بانه من المحتمل ان يكون احد الرفاق قد فارق الحياة .

بات الرفاق جميعا في وجوم ، وحينما عدنا في اليوم التالي من الجبل اغلقت علينا العنابر ، ثم ادخلوا الرفاق الذين يعملون في المرافق المختلفة بالسجن . واستنتجنا انهم سيخرجون الجثة .

ووسط سكون رهيب ساد المعتقل لا تسمع فيه الا قطرات الماء تتساقط في بطء من الصنبور الى الجردل فتحدث في ذلك السكون رتيبا اشبه باجراس الكنيسة حينما تدق معلنة الحداد .

وفي حذر اعتلى احد الرفاق كتفي رفيق اخر واطل من النافذة . وصح ما توقعناه فلقد رأى اثنين يحملان امتعة الرفيق الشهيد ، يليهم اربعة جنود يحملون فيما بينهم بطانية تتأرجح في داخلها الجثة وخلفهم سار الضابط عبداللطيف رشدي .. وكانما ليرهب القتيل حمل ذلك الضابط السفاح عصاه في يده ..

وبعد عدة ايام ، وصلتنا حقيقة القصة من الرفاق الستة الاخرين الذين ابقوهم معزولين في زنزانة ..

ففي اوائل نوفمبر ١٩٥٩ القي القبض على عدد من اعضاء الحزب الشيوعي المصري، وظلوا في معتقل القلعة الى ان نودي في ذلك اليوم المشئوم على سبعة منهم .. لم يكونوا يعلمون الى اين يساقون ، ولم يكن رفاقهم ممن بقوا في القلعة يعلمون الى اين سيق السبعة ، خاصة وان التحقيق قد أجري معهم جميعا وليس هناك ما يدعو الى اعادته . كان من بين السبعة اربعة اتهمتهم المباحث العامة في تقريرها لنيابة امن الدولة بانهم اعضاء باللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري، ولقد اعترفوا فعلا امام

النيابة بانهم يتشرفون بعضوية الحزب ، ومن هنا نستطيع ان نفهم ان ذلك الانتقاء لم يكن محض صدفة وانما كان لعملية انتقامية من نوع خاص .

فما كادت السيارات التي اقلتهم الى الاوردي تنصرف حتى انقض عليهم الجنود الذين اعدوا لاستقبالهم وهم يحملون الهراوات الغليظة تحت قيادة الضابط اليوزباشي يونس مرعي ومأمور السجن الصاغ حسن منير .

وبعد حوالي عشرين دقيقة من ذلك الضرب المجنون حضر فجأة قائد المنطقة القائمقام اسماعيل طلعت ، وهو نموذج للموظف المصري الروتيني ، لا صلة له بالسياسة ولا بالدوائر العليا في الدولة فأمر بوقف الضرب، وتوقف الضرب بالفعل ، وبدأت الاجراءات العادية المتبعة في مثل تلك الظروف : تفتيش الملابس ثم تغييرها ولبس ملابس السجن ، وتسجيل الاسماء بدفتر السجن ، وحلق الشعر وما الى ذلك .

ولم يكد ينصرف قائد المنطقة حتى امر مأمور السجن باستئناف الضرب صائحا : « لقد ذهبت الرحمة يا اولاد الكلب » وكانت تلك اشارة الى الجنود بالا يكون هناك ادنى تعقل في الضرب ،وتولت كل رفيق من السبعة مجموعة من اربعة جنود ، فمن يسقط منهم الى الارض ينهالون عليه بكعوب احذيتهم ثم يرفعونه الى قدميه ويتقاذفونه فيما بينهم متبادلين الضرب بالعصي واللكمات .

وشهر اليوزباشي الارعن يونس مرعي عصا غليظة . وانهال ضربا على رؤوس الرفاق ، ثم هوى بضربة على راس احدهم وكان فارعا ذا عينين زرقاوين وشعر ضارب الى الحمرة ، وهو يصيح به :

ـ اسمك ايه يا ولد ؟
ـ اسمي فريد حداد .
ـ انت روسي ؟
ـ انا طبيب مصري .
ـ انت شيوعي ؟
ـ ايوه شيوعي .

كل ذلك واليوزباشي الارعن ينهال بعصاه الغليظة على راس الرفيق الى ان سقط على الارض ؛ فأمر الجنود ان يجروه من قدميه الى داخل السجن ،وفي غرفة بجوار المغسل اصطف الرفاق الستة وجيء بالرفيق فريد حداد مسحوبا على الارض من قدميه ، ثم دخل مأمور السجن

واليوزباشي يونس مرعي وبدأ حسن منير ، مأمور السجن ، يسالهم واحدا واحداً ؟ « انت شيوعي ؟ » ،وترتفع اصواتهم المنهكة تجيب في تحد ،« ايـوه شيوعي » . ويصدر اوامره الجنونية بالضرب الى ان يغير الرفاق اجاباتهم ،ولكنهـا لا تتغير .ثم يلتفت مامور السجن الى ضابطه ويقول له : « شـوف الواد اللي مستموت ده » .

وينقض الضابط والجنود على الرفيق الدكتور فريد حداد وهو ممدد على الارض بالضربات والركلات والسباب القذر ، ولكنه لا ينطق ولا يتحرك.

،وينتقل الرفاق الستة ، البعض دماؤه تسيل ، والبعض يزحف علـى الارض لعجزه عن المشي ، الى الزنزانة التي تقع في مؤخرة عنبر (٥) والمطل على الفنـاء الكبير ، ويصدر مامور السجن امره الى انجنود بجر الرفيـق فريد حداد من قدميه الى تلـك الزنزانة ،فيلقون به امامها حيث رآه رفاقنا فـي العنبر رقم (١) .

لم يكـن قد مات حتى تلك اللحظة ــ فقد مات بعد ذلك بحوالي ساعة بيـن زملائه بعد ان ادخلوه الى الزنزانة ــ ولم يكن انصرافهم ــ اي المامـور والضابط ــ لاستدعاء طبيب لانقاذه بل لابلاغ المباحث العامة ان الجريمة قد تمت ، فكل الدلائل تشير الى انهم كانوا مصممين على قتل واحد او اكثر من الشيوعيين في ذلك اليوم : فانتقاء هذه المجموعة التي تضم اربعة ممـن اعترفوا بعضويـة الحزب امام النيابة في وقت بلـغ فيه الارهاب اوجـه وصدور الاوامر بالانتظار في منتصف الطريق ونحن عائـدون مـن الجبل ، واغلاق الباب بعد ان انصرف قائد المنطقة العسكري وفشلهم قبـل ذلـك بأسبوع في استفزازنا لعمل يبررون به حصدنا بالرصاص ،كلها شواهد تدل على ان قتل الرفيق فريد حداد كان مدبرا من قبل .

وهكذا .. وكما سقط « عناني » بضربـات رجـال الباشـا البدراوي بالبلط على راسه ، سقط الرفيق فريد حداد بضربات رجال الباشا عبدالناصر بالهراوات علـى رأسه ..

سلمت جثة الرفيق فريد حداد الى زوجته تحت الحراسة المشددة حتى لا يفتح التابوت الذي وضعت فيه الجثة ويكتشف سبب الوفاة ، ومع الجثة كان تقرير اعده طبيب من مصلحة السجون هو الدكتور احمد كمال ، الذي خان قسمه حينما انضم الى نقابة الاطباء بالمحافظة على شرف المهنة ، قال فيـه : ان الوفاة نتجت عن سكتة قلبية ، وقالت السلطات في هـذا التقرير ان الشهيـد قد مـات في معتقل القلعـة حتـى لا بكشفـوا سر

الاوردي الذي لم يكن يعلم به احد حتى ذلك الوقت ـ او هكذا كانـوا يتصورون ـ وطلبت زوجة الشهيـد توقيع الكشف الطبـي علـى الجثة ، فرفض الطلب ، وتقدمت بطلب الى نقيب الاطباء لاجراء الكشف ، وطالـب النقيب بذلك ، ولكـن السلطات هددته ان لـم يغلق فمه .. وما زالـت الحراسة مفروضة حتى اليوم على قبر الشهيـد حتى لا يفتـح وتكتشف الجريمـة .

والغريب ان رئيس الجمهورية ارسل مندوبا عنه ليقدم العزاء لزوجة الشهيد ، ولكنهـا طردته ورفضت تقبل العزاء منـه .

في المساء وبعد ان غادر فريد حداد الاوردي جثة . وقفنا دقيقتيـن تمجيدا لذكراه ،ثم جلسنا .. ستون رجلا ، ثلاثون في جانب وثلاثون فـي الجانب الاخر . الشفاه صامتة والصدور تغلي بالغضب . الريح تصفر حول جدران السجن ، وتيارات منهـا تندفع من خلال النوافذ وتلتف باجسادنا المنهكـة لتعصرهـا بيـن حبائلهـا الباردة .

وصوت هامس حزين يرسل في سكون العنبر كلمات « بول الوار » في رثاء « جبريل بيرى » بطل المقاومة الفرنسية :

مـات رجـل
لم يكن يملك ما يدافع به عن نفسـه
غير ذراعيه الممدودتين للحياة
مـات رجـل
لم يكن له طريق اخـر
غير ذلك الذي يكره الانسان فيه البنادق
مـات رجـل
ضد الموت .. ضد النسيان
مـات
لان كل ما كان يريده
كنا نريده نحن ايضـا
نريده اليـوم ..
ان تكون السعادة هي النـور
تضيء قاع العين .. وتضيء اعماق القلب
وان تسود العدالة على الارض .
هناك كلمات تصنع الحيـاة

كلمـات بريئة . . .
كلمة دفء . . كلمة ثقة .
الحب . . والعدالة . . وكلمة حرية .
كلمة طفل . . وكلمة رقة
وبعض اسماء الزهـور
وبعض اسماء الفواكه
كلمات شجاعة . . وكلمة اكتشاف
كلمة شقيق . . وكلمة رفيق .
وبعض اسماء لبلاد . . ولقرى
وبعض اسماء لنساء . . ولاصدقاء
فلنضف اليها اسم « بيرى »
لقد مات « بيرى »
من اجل ذلك الذي يجعلنا نعيش
فلنتحدث في غير كلفة .
صدره مثقوب
ولكن بفضله يعرف بعضنا البعض
معرفة افضل
فلنتحدث معا في غير كلفة
فان امله ما زال يعيش .

الفَصلُ السَّادِسُ

صياد الرؤوس

ربما يكون من السهل نفهم شخصية هذا القاتل الاهوج من كراهيته العميقة لرؤوس الشيوعيين ، لقد قتل فريد حداد بضربة على راسه ، وكان يهوى ان يمسك عصاه ويدور يضرب بها كل واحد منا على راسه ونحن وقوف في الطابور ، وايام كان يتولى الاشراف على العمل في الجبل ،كان يصدر اوامره بان نخلع الطواقي لتظل رؤوسنا العاوية من الشعر تحت شمس ابي زعبل المحرقة طوال يوم العمل ، كما كان يقف فوق الصخور ليقذفنابالحجارة فوق رؤوسنا فاذا اصاب حجر راس احد الرفاق ، شد قامته وهو واقف على قمة الصخرة واطلق لضحكاته العنان .

كان يعاني من مركب نقص حاد ازاء الشيوعيين ، لان لهم رؤوسا تفكر.

ويزداد فهمنا لذلك حينما ننظر الى الظروف التي احاطت بنشأته ، فلقد ولد في حي من احياء القاهرة الفقيرة ، في حي « جنينة ياميش » بالسيدة زينب ورغم ان اسرته غاية في الفقر فانها كانت تعتبر الاسرة التي تتمتع بمركز ممتاز بتلك البقعة .

كان رب الاسرة رجلا متصوفا ، وكذلك كان الاخ الاكبر ، يقضيان كل الوقت في قراءة الصلوات والتراتيل ، وهكذا لم يكن جو الاسرة بالذي يخلق طموحا فكريا او يدفع اليه .

لقد نشأ الصبي يونس مرعي ايرى طول صباه ان ممثلي السلطة هم وحدهم الذين يدخلون الفزع والرعب في قلوب اهل الحي ، وكان مشغولا طوال صباه بالتفكير في كيف يحيل ذلك التفوق البسيط الذي تحظى به اسرته الى تفوق حقيقي على ما حولها من الاسر . وهكذا فحينما انهى

دراسته الثانوية ، اتجه مباشرة الى كلية البوليس . كانت الملابس الرسمية الصفراء هي في نظره رمز التفوق والتسلط ، ولكنه فوجيء بان ملابس الضابط ان كانت تحقق له تفوقا في حيه الفقير فانها لا تحقق له شيئا يذكر في المدينة البورجوازية ، فانضم الى فريق كرة القدم بالنادي الاهلي ، ولكن نجمه أفل بعد قليل ، فهو دائم القلق غير مستقر ، لا يعي ان البناء انما يرتفع طابقا فوق طابق على نفس الارض ، وهو من النوع الذي كان يريد ان يجرب اكثر من ارض .

حينما افل نجمه كلاعب كرة ، نقله الفريق محمد حيدر الى قوة مصلحة السجون ، لكي يدرب فريق كرة القدم بالمصلحة ، وكان هذا سببا في تعمق ازمة الطموح عنده ، وتزايد الشعور بالنقص الذي يعانيه حده في السجون المصرية عندما بدأ يرى الشيوعيين لاول مرة .

كانت ملابسه العسكرية تاتي له في حيه بالمهابة والرهبة ، ولكنها كانت لا تعني شيئا بالنسبة حتى للعمال الشيوعيين المسجونين . كانت صفته كضابط سجن تجعل حضوره الى عنابر السجون شيئا يقيم له النزلاء الف حساب ، ولكن دخوله عنابر الشيوعيين كان يزيده هوسا فوجوده في عنابرهم او عدم وجوده لم يكن يعني بالنسبة لهم شيئا . كان يتوقع لدى دخوله عند الشيوعيين تحفظا وخوفا وتملقا ، فاذا به يواجه بالهجوم على سلوكه الشائن والانتقادات الحادة لمسلك الادارة . كان يقابل بالتعليقات المهينة حينما يحاول بتصرفاته المضطربة ان يفرض على الشيوعيين معاملته كما يعامله النزلاء العاديون ، وكان احيانا يتعرض لخطر الضرب حينما يحاول القيام بعمليات تفتيش ليلية كعمل انتقامي من الشيوعيين مخالفا لائحة السجون .

وحينما لمس مامور سجن القاهرة ذلك ، امره بالابتعاد تماما عن عنابر الشيوعيين .

كان النزلاء الذين يقومون باعمال النظافة في عنابر الشيوعيين يكنون احتراما عميقا لهم ، ففاجاهم يونس مرعي ذات يوم وهم يحضرون الطعام من المطبخ ، واستدعى بعض الحراس وامرهم بضرب هؤلاء النزلاء وشارك هو بالضرب .. وبذلك تصور انه قد انتقم لكرامته من الشيوعيين .

كانت تصرفاته الرعناء في جناح السجينات ، ومع النزلاء تفقده احترام كل من في السجن ، بينما يرى الشيوعيين يحظون باحترام الجميع بمن فيهم زملاؤه الضباط .

حاول الاعتداء على احدى المتهمات في قضية تجسس ، فاستغاثت . وحاول مرة اخرى مغازلة الراقصة تحية كاريوكا وكان مقبوضا عليها بسجن القاهرة في قضية سياسية فصفعته على وجهه صفعة دوت في جنبات السجن ، ودوت معها عاصفة من السخرية بيونس مرعي .

علاقاته العاطفية كلها من نوع وضيع وكلها فاشلة ، وكان يحنقه ان يرى للشيوعيين زوجات او خطيبات يحفظن لهم الوفاء ويداومن على زيارتهم .

كل شيء في حياته كان مهتزا .. نفسيته ، سلوكه ، وافكاره . لم يكن يدري بالتحديد ماذا يريد .. وكان يحقد على الشيوعيين ان يرى كل شيء فيهم متماسكا .. شخصياتهم متماسكة ، وافكارهم متماسكة ، يعرفون جيدا ماذا يريدون .

بدأ حياته بوهم ان الملابس العسكرية هي نموذج التفوق ، فاذا به يرى ان هناك شيئا اخر يصنع تفوقا دونه كل تفوق ، ذلك هو الفكر ... كان يحز في نفسه أن يرى عاملا شيوعيا يتحدث في الفلسفة وفي الاقتصاد وفي السياسة ، ويقدم افكارا لا يعرف هو عنها شيئا ، ويتحدث عن نظريات لم يسمع هو عنها من قبل ، ويذكر اسماء مفكرين وقادة لا يعرف هو عنهم شيئا .

كان يتصور ان سلم الرقي الاجتماعي يتوقف عند الحلة العسكرية ، ولذا كان يملاه الغيظ اذ يرى بين الشيوعيين اطباء ومحامين واساتذة بالجامعة وحملة لشهادات لم يكن يتصورها : دكتوراه في الكيمياء او في الطبيعة او في الاقتصاد او في الادب او القانون .

لم يكن يتصور ان هناك ما هو اكثر بريقا من النجوم والازرار الذهبية على الملابس العسكرية ، ولم يكن يتصور ان هناك ما هو اكثر شهرة من لاعب الكرة ، وكان يجن جنونه اذا ما رأى بين الشيوعيين صحفيين وكتابا تتعدى شهرتهم حدود بلادهم .

ومن هنا كان عداؤه للشيوعيين .. وبوجه خاص لرؤوس الشيوعيين ... وعلى وجه اخص رؤوس المثقفين الشيوعيين .

لقد ادى سلوكه المهتز ، النابع من شخصيته القلقة الحقودة الى ان توقع عليه كثير من العقوبات مما ادى الى تأخير ترقيته . وانتهى به طموحه الحقود الذي لم يكن مسلحا باية قيم ولا باية مثل انسانية ، ولا باية قدرات

ذهنية ، انتهى به هذا الطموح ، الذي لم يجد متنفسا لـه الى الادمان علـى المخدرات . وحينما افتتح النظام الاوردي ، لتعذيبنا ، لم يجدوا نموذجـا طيعا لهم في تنفيذ جرائمهم هناك ، الا مثل هذه الشخصية المريضة الحقودة المشحونة بالحقد على الشيوعيين ، فرقوه الى رتبة اليوزباشي وجاؤا بـه الى الاوردي ... حيث قتل لهم فريد حداد .

الفصل السابع

هدية عيد النصر

اتبعت ادارة الاوردي جريمة قتل الرفيق فريد حداد بموجة عاتية من الارهاب ، كل جرعة من جرعات التعذيب تضاعفت ، الضرب ، التفتيش ، الطابور ، العمل في المحاجر .. وكان هدفها هو قتل اي روح للمقاومة الجماعية قبل ان تعبر عن نفسها بشكل عملي .

ولقد نجحت .

لقد اختلف الوضع عما كان عليه في معسكر العزب بالفيوم .

فالمعتقلون السياسيون الذين لا ينتمون للحزب الشيوعي ولا ولاية هيئة اخرى ، والذين كنا نسميهم المستقلين كان من الممكن تعبئتهم الى جانب الحزب وبذلك تواجه مجموعة المنقسمين كتلة ضخمة تضغط عليها في اتجاه خوض معركة ضد الادارة وكانوا يرضخون ويشاركون ، وكان يساعد على رضوخهم ان قيادتهم المركزية لم تكن معهم في الفيوم .

اما في الاوردي ، فقد اشاع الارهاب الوحشي الذعر في نفوس الغالبية العظمى من هؤلاء المستقلين ، ووقعوا فريسة الدعاية الاستسلامية التي بدأ المنقسمون يروجون لها ، والتي كانت ترتكز اساسا على ان العقيد حسن مصيلحي رئيس مكتب مكافحة الشيوعية قد زار معتقل الفيوم بعد ترحيلنا بفترة قصيرة واستدعى عديدا من المعتقلين لمقابلته وفي اعقاب ذلك رحلت مجموعة من ستة وعشرين معتقلا الى القلعة وقيل ان هذا كان تمهيدا للافراج عنهم ، وقال المنقسمون في دعاياتهم المسمومة ان تلك المجموعة التي رحلت الى القلعة كانت كلها من اعضاء مجموعتهم ومن المستقلين الذين عرفوا ببعدهم عن الحزب الشيوعي وعدم العطف عليه او المشاركة معه في اية مواقف .

والحق ان ما قالوه عن تلك المجموعة التي رحلت الى القلعة كان صحيحا فيما عدا ما اتضح بعد ذلك من ان تلك المجموعة كانت تتلقى في معتقل القلعة محاضرات ضد الشيوعية ، ثم يطلب من افرادها في نهاية الفترة المقررة لغسيل المخ ان يؤدوا امتحانا تحريريا فيما القي عليهم من محاضرات ، وان يقدموا اعترافا مكتوبا عن نشاطهم السياسي السابق وصلاتهم السياسية مشفوعا ذلك كله باستنكار مكتوب للشيوعية .

هذا الجانب الاخير من قصة الستة والعشرين لم يكن معروفا حينئذ، ولذلك لعبت قصتهم دورا كبيرا في انخداع المستقلين بدعاوى المنقسمين التي صورت لهم الموقف على انه بعد قليل من الوقت سيعود العقيد حسن مصيلحي للاوردي وينتقي دفعة جديدة للافراج عنهم على نحو ما فعله بالفيوم .. اي ان الابتعاد عن الحزب ونشاطه هو الطريق الى القلعة ، والقلعة هي الطريق الى الخارج .

والحق انه كلما كان المرء يتساءل عن السر في اعتقال هذا العدد الكبير من الذين لم يكن لهم ادنى صلة بالعمل السياسي لم يكن يجد اجابة سوى انها عملية قصد بها ارهاب كافة فئات الشعب واشعار المواطنين في كل مكان ان جهاز المباحث يستطيع ان يفعل اي شيء وفي اي وقت . ولكن سببا جوهريا اخر اتضح الان ، وبانت اي جريمة فيها الاستهتار بكل القيم الانسانية قد ارتكبت في مصر .. جريمة تنبعث عن فهم متخلف للانسان..

لقد حشد اكثر من مائة مواطن بريء في المعتقلات بعد انتزاعهم من بين ابنائهم او آبائهم ، من اعمالهم او مدارسهم او حقولهم او مصانعهم لكي يكونوا قوة انهزامية وسط المعتقلين تشل نشاطهم الجماعي في المقاومة . ولئن استطعنا ان نحولهم الى احتياطي لنا في معاركنا في بداية الامر ونحن في الفيوم ، الا ان ذلك كان امرا مؤقتا ، وتكاتف الارهاب والتعذيب في الاوردي ، مع دعاوى المنقسمين الاستسلامية لتحويل هؤلاء المعتقلين الى قوة انهزامية .

ولئن كنا نسجل هنا بكل اعتزاز البطولات التي سجلها اعضاء الحزب الشيوعي المصري وبعض الديمقراطيين ، الا اننا لا بد وان نعترف بان مواقف الحزب وتقديراته ، او مواقف بعض الرفاق ، لم تكن في المستوى البروليتاري المفروض ان تكون عليه ، ويعود ذلك بدرجة اساسية الى اليمينية التي سادت الحركة الشيوعية في مصر وخاصة في سنوات ٥٦ ، ٥٧ والتي امتدت الى الحزب الشيوعي المصري منذ تأسيسه في ٨ يناير ١٩٥٨ .

لم يكن مصممو « الاوردي » يكتفون بالتعذيب الروتيني اليومي المتمثل في الجوع والقدم العارية والسخرة والضرب المبرح ، والتفتيش والطوابير المنهكة للجسد والاهانات التي لا تتوقف وترك المرضى والمصابين يعانون امراضهم وجراحهم دون علاج ، بل ويتحملون كل صنوف التعذيب هذه بالاضافة الى امراضهم، لم يكونوا يكتفون بذلك ، بل كانوا يفرضون على المعتقلين يوميا ، اما كأفراد او في مجموعهم اشكالا من الاذلال ، اما الخضوع لها او جرعات اكثر من التعذيب الفردي والجماعي .

وكانت اشد الهجمات هذه هي التي تهدف لارغام المعتقلين على التنكر للشيوعية ، او ترديد الاناشيد التي تمجد عبد الناصر وسياسته .

طلبوا منا يوما فرقة فرقة في طوابير الصباح ان نردد اغنية « بطل الثورة يا جمال » وكان الرفض هو الاجابة الحاسمة ، ولم يستجب سوى بعض عناصر من المنقسمين ابدت استعدادها لترديد الاغنية وتحفيظها للاخرين وكان ذلك ايذانا بحملة واسعة فردية وجماعية فاختار قائد المعسكر الدكتور اسماعيل صبري استاذ الجامعة السابق واحد كبار المستشارين الاقتصاديين للحكومة حتى اعتقاله في اول يناير ٩٥٩ ــ ليصب عليه انتقامه وبالضرب المبرح على قدميه وراسه وجسده ثم ارغامه على العمل في محاجر الجبل وهو عاجز عن الوقوف على قدميه ــ وفي نفس الوقت تعرضت كل العنابر لعمليات باطشة من الضرب الجماعي ومضاعفة العمل في الجبل .

لقد سألونا يوما اذا كنا شيوعيين . وطلبوا منا الاجابة بالنفي ولما رفضنا تحقيق رغبتهم توالت علينا ايام قاسية من الضرب في الصباح والمساء مع مضاعفة العمل الشاق في الجبل .

كما سالونا يوما عن رأينا في الطعام ، وطلبوا ان نبدي رضاءنا عنه ، ولما لم نستجب لطلبهم هذا ، اضيف الى عشائنا وجبة ثقيلة قوامها الضرب الجماعي الاعمى .

سالونا يوما ايضا عما اذا كانت هناك شكاوى ، ثم اخذوا كل من تقدم بالشكوى ولو كانت خاصة بمسائل عائلية او بعيدة عن كل ما يتصل بالمعتقل والمعاملة ، اخذوهم واجابوا على كل الشكاوى بعلقة ساخنة . طلبوا منا ونحن نعمل في المحاجر ان يقدم كل واحد قدرا من صخور البازلت المكسور يملأ ستة مقاطف اي ما يقرب من ٢٤٠ كيلو جرام فامتنعنا عن ذلك وقدم الرفاق الاثنان والستون الذين حوكموا امام المجلس العسكري والذين كانت الادارة قد اختارتهم لبدء العمل في تكسير البازلت ــ قدم كل منهم ثلاثة

مقاطف فقط . ونالوا جزاء ذلك من الضرب والتعذيب الشيء الكثير لتصديهم لذلك الموقف ولكن فرضنا عليهم الا يطالبوننا باكثر من هذا القدر من العمل. كانوا يطلبون من بعض الرفاق ان يمسكوا « بالفلكة » تلك الاداة التي طالما استعملت في العصور المظلمة لضرب الفلاح وتعذيبه في قصور الاقطاعيين والعمد ، كانوا يطلبون منهم ان يمسكوا « بالفلكه » لرفع اقدام رفاق اخرين اثناء ضربهم وكانوا يرفضون وهم يعلمون ان ثمن هذا الرفض هو الضرب والتعذيب ، كانوا يريدون ترويضنا على الا نقول كلمة « لا » ، ولكنهم خسروا تلك المعركة .

كان صوابهم يطير ، اذا ما انهالوا بالضرب على احد الرفاق ولم يسمعوا صيحة الم تصدر عنه ، فالجلد وتحمل الآلام دون شكوى من مقاييس الرجولة في بلادنا والصياح في هذا الاطار استنكار للرجولة : بل كانوا يطلبون صراحة من الفريسة ان يستنكر رجولته وان يقول « انه امرأة » فالبورجوازية في بلادنا ما تزال تنظر للمراة بعقلية الاقطاعي او بعقلية تجار الرقيق على انها مخلوق يجلب العار وانها ليست سوى اداة للمتعة .

وقمة الاذلال للرجل ان يجبروه على انكار رجولته . الجلادون الذين لا يطيقون ان يسمعوا كلمة « لا » من فم المناضلين وجسدهم يتمزق تحت ضربات الشوم والسياط . والبازلت يدمي اقدامهم لا يمكن ان يتصوروا او يقبلوا ان يرتفع صوت بالاحتجاج على عمليات التعذيب،على منع العلاج .

لقد كان نصيب الذين تصدوا للاحتجاج على الضرب او منع الدواء الضرب الوحشي بجنون . ليس هذا فحسب بل لا بد ايضا من توقيع العقوبة الجماعية على سكان العنبر كله .

ولم تكن كلمة لا او كلمات الاحتجاج هي التي تستفز الجلادين فقط بل كانت اي محاولة منا للاشتغال بقضايا شعبنا ووطننا تستثير كل احقادهم .

حدث في اليوم الثاني والعشرين من ديسمبر ان خرج الرفيق عبد المنعم شتلة مندوبا عن اللجنة المركزية وطلب من المامور السماح لنا بالاحتفال بعيد النصر في اليوم التالي ٢٣ ديسمبر يوم انسحاب قوات العدوان الثلاثي من بور سعيد واجاب المامور بانه سيبحث الامر .

وفي صباح ٢٣ ديسمبر كان رد المامور هو عمليات ضرب واسعة النطاق في الجبل لغير ما سبب سوى اننا ما زلنا نفكر كمواطنين وكسياسيين ونذكر ان لنا اعيادا قومية نريد الاحتفال بها .

كان اليوزباشي عبداللطيف رشدي هو المشرف على تلك العملية وكانت تعليماته ان يختار كل حارس عددا من فرقته ليتسلموا هدية عيد النصر ، واقتاد حارس احد المعتقلين فسأله الضابط في هدوء عن اسمــه فاجابــه ، وبنفس الهدوء طلب منه الضابط ان يقول انه « امراة » وان يلعــق الارض بلسانه فرفض وثارت ثائرة اليوزباشي الدموي ونادى خمسة من الحراس بالعصي الغليظة وانهالوا على الضحية ضربا على راسه حتى اغمي عليــه . وظل هكذا في غيبوبته الى ما بعد عودتنا به محمولا على اكتافنا وقد تورمت قدماه ، وكسرت عظامه وشجت راسه واصيب بداء السكر بعدها .

الفَصْل الثَامِن

« ظل » رجل

كل من يراه بجثته الضخمة ، ووجهه المتجهم ابدا ، يحس ان هـذا الرجل يعيش ازمة نفسية دائمة ، من يرى التجاعيد في وجهه التي تشير الى انه قـد تجاوز الاربعين ثم ينظر الى كتفيه فلا يرى على كل منهما سوى ثلاثة نجوم ، اي لم يتعد رتبة اليوزباشي قد يظن السبب في ازمته هـو تخلفه في الترقية ، بينما سبقه كل زملائه ،بل والذين تخرجوا بعده مـن كلية البوليس ويصغرونه ، يحملون الان رتبة صاغ ويوزباشي .

لم يكن يملك من الكفاءات غير صوت جهوري يستطيع ان يملأ بـه الدنيا صراخا وسبا وشتما طوال اليوم دون كلل ، واستعدادا لان يقتـل . ولقد وضع هاتين الكفاءتين في خدمة سادته ايام كان ضابطا بليمان طره عام ١٩٥٦ ، وقاد بنفسه المجزرة التي دبرت للمسجونين هناك من جماعة الاخوان المسلمين ، ولسوء حظه ان الامر باطلاق النار الذي اصدره زكريا محى الدين وزير الداخلية كان امرا شفاهيا بالتلفون ، وحينما ارادت الدولة ان تقـدم كبش فداء اختارته هو وزميله عبد العال سلومة الذي اشرف عام ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ على اعمال السخرة في الواحات ، فادينا في التحقيق وحرما مـن الترقية في دورهما .

ويبدو في هذه المرة ان عبد اللطيف رشدي كان مطمئنا الى انـه لن يجازى على خدماته في الاوردي ، كما جوزي على خدماته في ليمان طرة ، ثم انه لم يكن له خيار ، فذلك هو الطريق الوحيد للترقية وبالفعل فلقـد كوفىء على اغتياله للشهيد شهدي عطيه على بوابة الاوردي بترقيتـه الى رتبة الصاغ ثم نقل الى وظيفة اعلى بمديرية اسيوط حيث قتل عام ١٩٦١

في ظروف غامضة .

ولئن كان اليوزباشي يونس مرعي يكره رؤوس الشيوعيين ، لما ترمز اليه من تفوقهم عليه ، فان كراهية عبد اللطيف رشدي لرجولة الشيوعيين ومحاولاته الدائبة ان يجبر من يقع تحت يديه منهم على استنكار رجولتـه تكمن في ازمته الحقيقية التي عاشها دائما ، والتي تكشف عنها الاقاصيص التي يرددها السجانة عنه . فهو بالرغم من جثته الضخمة وصوته الجهوري العالي ، ورغم شاربيه وملامحه المتجهمة ، لم يكن يستطيع تحقيق السيادة لنفسه كرجل في بيته فزوجته هي صاحبة الامر والنهي ، وكلمتها هي العليا ، وكانما هي رب البيت الحقيقي ، لا يملك هو الا الخضوع لارادتها . وقد كنا نلمح صورة لهذا الخضوع لزوجته كما يحكي عنه السجانة ، في عـلاقته بالصاغ حسن منير مأمور السجن ، فان المأمور الضئيل الجسم ، الانثوي التكوين ، الناعم الصوت ، كأن يقود هذا العملاق من انفه ، كان عبد اللطيف رشدي يقف في استكانة ويسير في اعقابه كما يسير الكلب الاليف عنـد قدمي سيده ، ولدى ادنى اشارة من المأمور ، ينطلق كالثور الهائج علينا فاتحا حنجرته بالصراخ والسباب ، معملا عصاه فينا ومطلقا رجاله علينا . كان هذا اليوزباشي يرى في تلك المظاهرات فرصة لتأكيد رجولته المهدورة ، كـان الصاع حسن منير اذا استشعر من المتعة ما فيه الكفاية لرؤيته عبد اللطيف رشدي هائجا كالثور بين المعتقلين ، يشير اليه بطرف اصبعه فيعود هـذا لينكمش خلف سيده الذي يكافئه بابتسامة راضية .

الفصل التاسع

« لن أهتف »

منتصف الليـل
انتهى عام .. وبدأ عام جديد .
انتهى ١٩٥٩ ، وبدأ عام ١٩٦٠ .

والعام الجديد مهما كانت قسوته بالنسبة لنا ، فهـو عام جديد فـي مسار البشريـة الى امـام .. والى رقي وتقدم . وهو وان كان عاما جديدا علينا في محاجر ابي زعبل ، وفي جحيم الاوردي .. فهو عام ينقضي مـن عمر الارهاب .. انفاس فريد حداد تحولت الى ريح عاصف يهز شجـرة الارهاب ، العالم كله يتحدث عن فريد حداد ، والصحافة التقدمية والاصوات الانسانية تطالب بالتحقيق في مقتل فريد حداد .

لم ننم تلك الليلة ، لا لنحتفل بالعام الجديد ، فهذا الاحتفال تم بصورة مختصرة في بدايـة الليل .. تصافحنا وتعانقنا وتبادلنا التمنيات الطيبة .. ولكن المطر كان ينهمر بشدة ، والريح تصفر صفيـرا كئيبا فـي الخارج ، وتهاجمنا عبر قضبان النوافذ لتعض بانيابها الثلجية اجسادنا المتعبة ، والرعد يلف المكان بعباءة من الغضب ، المطر على سقف العنبر رتيبة مقبضة .

الريح تقذف بخيوط المطر خلال النوافذ ، فتبتل الارض والبطاطين .. ولكـن ليس هذا كل شيء فلقد داهمتنا مصيبة جديدة . فسقف العنبر بال خرب ، ما كادت مياه المطر تتجمع فوقه حتـى اخذ يسربها علينا .. كانت تتساقط من الف ثقب لانتبينها .. لم يكـن هناك سنتيمتر واحـد فـي السقف الا ومياه المطر تتساقط من خلاله .

وابتلت ملابسنا وابتلت البطاطين التي نتلفع بها وابتلت الابراش ، ولم

يكن هناك شبر واحد يحتمي فيه الانسان من الماء المتساقط ، واجسادنا الهزيلة قد حوصرت داخل الملابس المبتلة ،داخل العنبر المغلق الذي تعربد فيه دوامات الريح الباردة .

ولم يكن هذا كل شيء ...

فبعد قليل تجمعت المياه المتساقطة من السقف في ارض العنبر مكونة بركة هائلة ، ليس هناك مكان نجلس فيه ولم يكن ما يعنينا هو الاحتماء من الماء المنهمر ، بل ان نجد فرصة للجلوس فلقد قضينا الليل وقوفا ... اقدامنا العارية غارقة في الماء وقد ارتفع اكثر من عشرة سنتمترات .. كان البعض يستند براسه الى كتف رفيق ليغفو بضع دقائق ، ولكن البرد الذي يزحف الى العظام من اقدامنا العارية وسط الماء ، والبرد الذي يغمر الجسم من البطاطين والملابس المبتلة ، والبرد الذي يلفح الوجوه من تيارات الريح ، كلها كانت تسارع بايقاظ من يغفو ليعيش المأساة بكل حواسه .

وجاء الصباح .. العيون متورمة حمراء من السهر ، والالم ،والاطراف قد تجمدت والسيقان لا تقوى على حمل اجسادنا ..وابتسم الثعبان ،مأمور السجن ، بسمة شريرة وقد وقف يرقبنا ونحن ننزح الماء الى خارج العنبر المنخفض عن سطح الارض بمقدار ثلاثين سنتمترا ولم تكد ننتهي من تلك المهمة ،حتى امر باخراجنا للعمل في المحاجر .

وكالمعتاد جلسنا القرفصاء في الفناء لمدة خمس وعشرين او ثلاثين دقيقة ، اقدامنا مغروزة في الطين الذي كان يتجمد من البرد ،واجسادنا تلفحها الريح الباردة ، وتضنيها الملابس المبتلة . وسرنا الى الجبل ..الطريق كله موحل ، ننتشر فيه برك صغيرة من ماء المطر برودتها تلسع اقدامنا كحد الموسى ، حتى الحراس الذين كانوا يرتدون ملابس صوفية ثقيلة ومعاطف سميكة وقلنسوات تحمي رؤوسهم ووجوههم ، كانوا متذمرين ،ويغمغمون بكلمات السخط على الضباط والحكومة . والبعض منهم كان يتساءل متذمرا بصوت مسموع : لم لا تتخلص الحكومة من هؤلاء القوم ضربابالرصاص وتضع حدا لتلك المهزلة . نزلنا الى المحجر في بطن الجبل .. مياهالمطر قد اذابت التراب العالق بالاف من شظايا البازلت فاخذت تلمع واقدامنا العارية تطأها كما تطأ السكاكين .

وضربة خاطئة على اليد من الشاكوش تحدث تورما مؤلما ذا لون داكن ازرق . وعلينا ان نخوض بسيقاننا بحيرات الماء البارد المتجمعة حولالصخور المفتتة ثم نضرب بسواعدنا في الماء بحثا عن قطع الصخر المفتتة . لم يسلم

واحد منا من اصابة في ذلك اليوم فتحت سطح الماء تصطدم راحة اليد أو الساعد بحافة قطعة صخرية حادة تمزق الانسجة وتحدث اصابات عميقة.

والمطر يعود للانهمار ، والضباط يحتمون بخيمتهم ، ويتركوننا في حراسة الجنود الذين يزدادون سخطا ، بعضهم ينفس عن سخطه فينا بضرباته وركلاته ، والبعض ينفس عن سخطه بسب الضباط والحكومة ولعن اليوم الذي اشتغل فيه بمصلحة السجون .

هكذا مرت الايام الثلاثة الاولى من يناير .. مطر ليلا ونهارا ، برد قارس ، لا نوم ولا راحة حتى ولو لدقيقة واحدة ، الخوض في الوحل الثلجي وفي برك المياه الباردة ، شظايا البازلت تمزق اقدامنا العارية وراحاتنا وسواعدنا ، وتترك في الجرح بقايا منها يتجمع حولها الصديد ويتقيح الجرح .

لم نكد ننتهي من كارثة المطر في اليوم الرابع من يناير حتى بدأ صدام جديد حاد بيننا وبين قيادة المعتقل .

فقبل ذلك بأيام ، اي في مساء الثاني والعشرين من ديسمبر ١٩٥٩ فوجئنا ونحن في طابو التمام اخر النهار بمامور السجن يقول : مهما كانت اراؤكم ، فانتم جميعا تستظلون براية الجمهورية العربية المتحدة وتدينون بالولاء لها .

لم نفهم المقصود بتلك الكلمات التي كانت تحمل ظلالا من التشكيك في وطنيتنا الا حينما ادى الصول مطاوع التحية العسكرية ثم هتف بحياة الجمهورية العربية المتحدة ثلاث مرات وطبعا رددنا جميعا الهتاف ، فهي بلادنا ، ولقد قدمنا من اجلها الكثير من التضحيات الكثير .

ولكن الثعبان حسن منير كان يبيت امرا اخر ، كان يريد ان يروض الحزب الشيوعي ، بالارهاب ، على الولاء لعبدالناصر ، كان يريد ان نهتف بحياة جلادينا في العيد الثالث للنصر الذي احرزه الشعب في بور سعيد .

ردد الصول مطاوع الهتاف بحياة عبدالناصر ، وتضاءلت الاصوات وتخلخلت صفوف المرددين بالهتاف فلم يردده الا اعضاء المجموعة المنقسمة والكثيرون من المستقلين .

ولم يبد الثعبان وضباطه شيئا غير عادي حينما لمسوا البون الشاسع بين الاصوات التي هتفت بحياة البلاد وتلك التي هتفت بحياة عبدالناصر .

مرت عشرة ايام كان امتناع الحزبيين اثناءها عن الهتاف بحياة عبدالناصر ، ليس فقط تحديا للارهاب ، ولكنه دلالة على ان التنظيم الحزبي قائم متماسك

وكان لا بد من تفتيت هذا التماسك واذا لم يكن التعذيب الجماعي فداجدى فليضف اليه التعذيب الفردي .

كان يناير هو اليوم الذي اختاره الثعبان ليبدأ معركته الجديدة . وهنا نترك القصة لنبيل صبحي ، وهو شاب نحيل في السادسة والعشرين من عمره ، كان طالبا في كلية العلوم بجامعة القاهرة وفي عام ١٩٥٤ اتهم في قضية شيوعية ورغم ان التحقيق لم يجد ضده ما يدعو لتقديمه للمحاكمة فقد فصل من الجامعة بناء على تعليمات المباحث العامة .

« كنا نجلس في العنبر رقم (٢) صفين متقابلين ، تصل الى آذاننا خليط من الفرقعات والصيحات ودبيب الاقدام ، يتداخل بعضها في بعض، ليتكون منها نغم غير منتظم .. نشاز .. مزعج وكريه .

بدأ الصمت الحزين يخيم بسرعة على العنبر ، البسمات تختفي من الشفاه ويتلاشى الهمس ، وتوقفت تماما المشادة الكلامية التي نشبت بين زميلين وارتسم الوجوم على الوجوه ، وبانت ملامح الغضب على الوجوه الاخرى ، وهمست اصوات « الضرب التديد - فرقعة القوايش العالية، دبيب الاقدام توقف مرتين هذه هي ثالث لفة » وصوت اليوزباشي الثور عبداللطيف رشدي ينبعث من عنبر «٦» .

مرت اللحظات ثقيلة كئيبة وجرى تفتيش عنبر اخر ، وارتد الهدوء لبعض العيون القلقة ، ودار المفتاح الثقيل يفرقع في ابواب العنابر الستة وصوت السجان يرن في الصمت « دوغري .. تمام » واندفع المعتقلون الى خارج العنبر مشكلين طابورا من ثلاثة صفوف ثم ركضوا بالخطوة السريعة في انتظام عسكري حتى احتل سكان كل عنبر مكانهم المحدد في فناء السجن، وعلا صوت الصول مطاوع « فرق .. صفا .. فرق .. انتباه » وبدأ يأخذ التمام « عنبر ١ ؟ » ويردد السجان : « ٦٢ يا فندم » ، « عنبر ٢ ؟ » ويرد السجان : « ٦٠ يا فندم » .

وهكذا حتى تمم الصول على العنابر الستة .. ثم توسط الفناء ووجهه الى الثعبان مأمور السجن ،ورفع يده بالتحية العسكرية بينما عيناه وعيون الضباط الثلاثة الاخرين تجول بين الصفوف المتراصة وردد الصول الهتاف بحياة الجمهورية العربية المتحدة ثم بحياة عبدالناصر وتخلخل الصوت في ترديد الهتاف الاخير .

لم يحدث شيء اثناء الطابور ولكن تربص الضباط والصول لفت الانظار ودارت الطوابير لاستلام طعام العشاء ، وبينما الزملاء يجرون

لاختطاف طعامهم والعصي تلهب ظهورهم استوقف الضابط الثور احـــد الزمـــلاء

ــ تعالى هنا يا ولد

ــ اسمك ايــه ؟

ــ لبيب عبدالغفار يا فندم .

ــ عمرك كم سنــة ؟

ــ ١٩ يا فندم .

ــ ليه ما بتهتفش للريس ؟

ــ ...

ــ خرست ؟ اتكلم .. ليه ما بتهتفش ؟

ــ كده يا فندم .

ــ انت خايف منهم ؟ .. طب اهتف هنا قدامي .

ــ لا يفندم انا موش حاهتف .

ــ طيب روح دلوقت .

وصل لبيب الى العنبر . وكل الزملاء في انتظاره ، انفاسهم محبوسة مترقبين المجزرة التي لا بد وقد مورست ضده ، وكلهم قلق فهو اصغرهــم سنا وحجما ، ولكنه جاء دون مجزرة وحكى لهم مــا جرى بينه وبيـــن الضابط . كان وقع الحديث الذي نقله لبيب غريبا على الجميع فقد ســاد الزمــلاء سرور وتفاؤل وارتفعت أصواتهم بالتعليق هنا وهناك :

« هما موش عاوزين يفتحوا معركة .. دول بيهزونا بس » . « شفتم يا بتوع عبدالناصر ، يا خلايله ، شفتم الموقف الجماعي .. الكرامــة عمرها ما تنهــزم » ، « عظيم يا لبيب » .

ونشط بعض الرفاق ليشجعوا اخرين ، ويقنعوهم بضرورة عدولهم عن الهتاف ، وقد فعلت حادثة لبيب فعلها ، وتعهــد الجميع ما عـــدا اعضاء مجموعة خليل المنقسمة بعدم الهتاف لعبد الناصر، بل وتحمسوا، نعم، فلقد كان من نتائج السياسة اليمينية التي سادت الحزب فترة مــا وبالغت في تقدير دور عبدالناصر ، وتجاهلـــت ضرورة الصراع ضد سياساته غيــر الديمقراطية ، ان تسربت المفاهيم والقيم البورجوازية داخل الحزب وعملت عملها في تمييع القيم النضالية عند بعض اعضاء الحــزب ، فهتف بعضهم لعبدالناصر ، اما عن رهبة ،واما عن قصور في تقدير قضية الهتاف مـــن زاويــة دلالاتهــا السياسية . واما عن بعض ارتباك في اسلوب القيـــادة

الحزبيــة لم يكــن منه مناص في مثل هذا المعسكر الرهيب .
ونام المعتقــل .

ارهاق العمل الشاق في تكسير البازلت ، وتفريغ الحجر الجيــري الابيض من عربات السكة الحديد بعد الظهر ، يفري العظــام ، وبرد يناير القارس يلسع الاجساد الجائعة المغطاة بالاسمال .

ويتكور الزملاء تحت بطاطينهم راجين الدفء او بعضه ، ولكــن دون جدوى ، الا انه في النهايــة لا بد ان يغزو النوم الاجساد المكدودة . ليــل الشتاء طويل ولكن مــا ان يغلق باب السجن في السادسة مساء ، ويطمئن المعتقلون وراء الابواب الموصدة ، حتى يحسوا بالمرور السريع للساعات تحت وطاة تفكيرهم فيمــا ينتظرهم من عذاب في الصباح .

وبين نحنحة شاويش الحراسة الداخلي ، وصياح جنود الحراسة على ابراج السور « واحد تمام ، ٢ تمام .. » وبين نعيق البومة وصفير الرياح. وكابوس يحلم فيه زميل يمر سواد الليــل .

ومع تباشير الصباح . وعلى صوت غراب اسود ، تدب الحركـــة في العنبر ويبدأ سكانه في التيقظ وغشيان دورة المياه ، ثم يعــود كل امـــام « نمرته » وينتظرون التمام تحت وطــاة فرقعة القواويش ودبيب الارجل وصراخ الضابط والعساكر . فتشت بعض العنابر وساد صمت ثم تفرقع المفاتيح الثقيلــة في الابواب واقتربت الاقدام الثقيلــة من عنبرنا . عنبر(٢) ودوى صوت اجش ممطوط :« انتبـ..بـاه..آه » : وانتبه الزملاء ، وانثنــى البعض لياخذ وضع التفتيش ،الوجه الى الحائط والجسم منحن ، ولكــن الضابط نهرهم واخذ يمر بين الصفين ويتفحص الوجوه ، وعثر اخيــرا على من يريــد ..

وخرج لبيب وراء الضابط ، واغلق الباب ومرت بضع دقائق لم يسمع خلالها الا صوت الشوم المنهال على قدمي لبيب ، ثم فتـــح الباب فدخل ، وتقلصات وجهه تفصح عن الالم الذي تحمله في صمت ، ولم يثنه عن رفضه للهتاف ، ودوت في اعقابه الاصوات النكراء « دوغري تمام »

خرجت الطوابير ، واحتل كل منها مكانه في الفناء ، وتلقى الصــول تقرير التمام من السجانة ، ثم شرع يهتف ، وتركزت كل العيون على عنبر لبيب ، وانتهى الطابور ودارت العنابر راجعة ما عدا عنبر لبيب ،عنبر (٢) . وتقدم احد الضباط وشد اثنين من بيننا كنت احدهـــم وتجمع الضباط والعساكر ، وجاءت الفلكــة وارتفع الشوم في وضع الاستعداد ووجــه

الضابط سؤاله اليّ في حقد وغباء ظاهرين « موش بتهتف ليه ياولد ؟ يا .. » ونطق كلمة بذيئة . وكان ردي مختصرا ، انا شيوعي يا فندم. فسأل « وايه يعني » ؟ فاجبته « انا معتقل سياسي ولي رأيي في عبدالناصر» فقال: « انت راح تهتف والا » ، فقلت له « لا » فقال في غيظ « انت حانتفلا .. لف .. سف » .. لقد فقد صوابه وارتج عليه ، وتلعثمت كلماته، وما ادري انا وصاحبي الا وقد انقض علينا العساكر فطرحونا ارضا واختطفوا ارجلنا ، فمددوها عالية وانهال الشوم على اقدامنا بلا حساب . وفي نفس الوقت هجمت جماعة اخرى من العساكر على طابور العنبر ، وكأنما قامت القيامة، وانهالوا على الجميع ضربا .. من يهتف ومن لا يهتف، وارهقوهم بالتمارين العسكرية اللعينة الشاذة في عنفها كل ذلك والضرب لا ينقطع .

ونظرت الى الضابط الثور عبداللطيف رشدي وقلت له بصوت خفيض « انا عندي روماتزم بالقلب واحملك مسئولية نتائج التعذيب » . وهاج الغول وهو يقول « موش تموت يعني .. موت يا ابن الـ .. » ونطق كلمة بذيئة في حق امي وانهال بحذائه على وجهي وبطني وباشوم على قدمي وساقي وكل جسدي ، والسباب المقذع يتناثر والدنيا تدور في عيني وتسود شيئا فشيئا وتتحرك يدي في بطء لتسحب طاقيتي من على رأسي واحشو بها فمي ، لتكتم آنات الالم ، وارتعشت شفتاي ، ثم انفرجتا في شبه تشنج وتقلصت عضلات وجهي ثم غامت الدنيا في عيني .. وغبت عن الوعي..

لم اعلم كم من الوقت مر ، حينما بدأت افيق ، وجسدي كله يرتعش ، والبرد يفري عظامي وملابسي مبتلة ، لقد القوا عليّ في شتاء يناير جردل ماء بارد ليوقظوني من غيبوبتي ،دونما اي اعتبار لروماتزم القلب الذي اعانيه .

وما ان فتحت عيني حتى صرخ الضابط « قوم اجري يا عرص » وانهال على ظهري بعصا خيزران رفيعة .

واضطررت الى النهوض وحاولت الجري مترنحا ، حول عامود من الحديد مثبت في منتصف الفناء وبجواري زميلي ، وفجأة استوقفنا الضابط وطلب منا ترديد الهتاف لعبدالناصر ، مقلدين حضرة« الصول » فصمتنا، وحينما كرر طلبه اجبته في اعياء : « احنا حنهتف في حياة بلدنا بس».

وهاج الثور مرة اخرى واعاد الجولة واخذ يردد فيعصبية مجنونة :

« سكتنا لكم ١٢ يوم، فجرتم فيها ياولاد الكلب.اسمك ايه يا شاطر؟»

فلم يرد عليه احد .. ورغم الآلام الرهيبة كانت العيون تقدح شررا وادانة

.. واشتد الهياج وتركزت عصا الوحوش على المريض المتبجح الذي يرد على الضابط والذي لم يلبث ان راح في اغفاءة ثانية طويلة .

وافقت على رائحة النوشادر النفاذة ، وصدر الامر بان انزل الى الجبل للعمل الشاق في حمل التراب وتكسير حجر البازلت الصلب ، وحاولت السير مع الطابور والآلام تمزق رجليّ المتورمتين ، وتمزق كل جسدي ، فحملني زميلان ، ولكن الثور صرح معترضا فتركني اتعثر طول الطريق .. اقوم .. واسقط . ولكني سرت ، ووصلنا الى الجبل ..

السماء ملبده بالغيوم . والجو قارس معتم . واشباح المذنبين نزلاء ليمان طره تتحرك بطيئة او سريعة . وتختلط ملابسهم الزرقاء بالحجر الاسود وطوابير المعتقلين تسير في خطوة حزينة وشظايا البازلت تشق الاقدام والوجوه ، والعيون يرتسم فيها غضب او خوف ، تنظر الى فوهة المحجر ،وكانما هي تنين مسعور يوشك أن يلتهمنا وفي النفوس انفعالات شتى وتوقعات حول المصير ، وتجلجل اصوات الضباط النكراء ، وبين الصراخ والضحكات الخليعة ، يتسلو باصدار اوامر الهوان ، والمدافع الرشاشة تطل فوهاتها من اعلى الصخور .

ـ ايوه يا فندم .

وصاح عبداللطيف رشدي « ياحضرة الصول » عنبر (٢) على التراب وعنبر (١) على الدبوره في بطن الجبل ، وباقي العنابر تكسر » .

وفهم الجميع معنى هذا التقسيم .. انه يوم عنبر (٢) .

عوت الصفارة فجرت طوابير العنابر كل الى مكانها المحدد ، كنت اعاني من السير وشظايا البازلت لها وخز الابر على قدمي المتورمتين فوقعت على كومة من تراب ، وحولي ستون رفيقا بأيديهم الفئوس والمقاطف يضرب الجنود فيهم بلا حساب ، والضابط الفرير يتبختر حينا ، ويجلس على كرسي حينا آخر وحنجرته لا تكف عن السباب والصراخ « بالخطوة السريعة يا حضرة الصول ، وهما رايحين وهما جايين » واشار اليّ وهو يقول : « انت يا شاطر بتغوص في بحر ، تعالى هنا ، فين رجلك اللي بتوجعك .. نام يا شاطر » .

ولم ينتظر ، فما ادري الا وقد طرحني ارضا ، واصدر الامر بالضرب « كل رجل لوحدها يا كامل .. نشف ايدك في الضرب » وينهال الضرب على كل قدم على حدة وهو يسأل ساخرا « رجلك خفت ولا لسه ؟ » وصمت ولم يرض ذلك الضابط فصب على راسي مقطفا مليئا بالتراب .

كنت اتلوى من الالم وانا انهض كاتما اناتي ، واستدرت نحو كومة التراب التي يعمل فيها زملائي وانهال الشوم على ظهري ورقبتي ، ودارت الاشباح في عيني بعنف وبدا للوهلة الاولى ان الدنيا اشد اظلاما ،واخذت اترنح متهاويا في الطريق الى غيبوبة طويلة ، دارت في راسي صور وحوش كاسرة وحزب يقاوم وشهيد يسقط : فريد حداد . محمد عثمان .. على الوجه بسمة ، اب شيخ وام حنون واخوه صغار ، وعلى الوجه قلق حزين يعيش عبد الناصر .. تعني يعيش قتلة محمد عثمان وفريد حداد .. عملاء .. شهداء .. عمال .. جموع ما .. انني صغير .. صغير .. ما الحياة .. ما حياتي .. والصور تتداخل .. وتتشابك .. وصفير كئيب يصم الاذنين .. واسقط مغشيا علي .. بلادي مصر .. بلاد دفء وشمس ومروج .. بلادي مشرقة ، يطول الليل في الشتاء ويشتد البرد حينا شتاء بلادي مشمس دافىء وغيومه هشة ، اما صيفنا فقيظ شديد .. ملتهب .. ملتهب .. ما زال الدوار في عيني ، ونار تنهش جسدي وقدمي ..الغيبوبة تراود جفوني .. بالله .. انني الان في العنبر .. وحولي عدد من الرفاق . لم اكن استطيع بعد ان اميزهم ..

الوقت غروب .. من النافذة تبدو الغيوم وقد تشققت ، وسبحت متناثرة في الفضاء .. وشعاع شمس يشرق فيمس الجفون المكدودة فترتعش ويصيح الرفاق مبتهجين « انه ما زال حيا » وبقايا الصور تقفز .. واتبين الذين حولي .. ويظهر ممرض السجن الرهيب وفي يديه زجاجات وقطن، وعلى وجهه الكالح ذعر .. وما ان يعلم انني قد افقت من غيبوبتي حتى تصدر عنه بعض كلمات السباب وينصرف .

اشرت الى اصدقائي محييا ؛ فظهر على وجوههم الاطمئنان . ارخيت اجفاني طالبا النعاس فكم كنت مكدودا متعبا ، ودارت في ذهني وجوه .. مصرية وروسية .. واوربية .. وسورية .. وصينية .. بينها محمد عثمان .. وفريد حداد .. يعيشان .. يصفقان .. والوحوش .. ورق .. وتنتبه اذني على شقشقة عصفور ، والذكر فاسال عن صاحبي :

ــ ازاي وليم ؟
ــ ويرد الرفاق : « بخير ارتاح انت »

ـ واستسلمت للنوم . (١)

---

(١) الحق ايضا ان اللجنة المركزية داخل الاوردي تتحمل قدرا كبيرا من المسئولية فيما يتعلق بموضوع الهتاف لعبدالناصر وعمليات التعذيب التي رافقتـــه ، فحينما بدأ الهتاف لعبد الناصر امتنعت اللجنة المركزيه عن ترديد هذا الهتاف ، ولكن مامور السجن هددهم بانهم سيرسلون الى السجن الحربي اذا لم يهتفوا لعبد الناصر، فاتخذت اللجنة المركزية قرارا بالنسبة لنفسها بترديد الهتاف لعبدالناصر ، واما بالنسبة لبقية اعضاء الحزب فقد تركت لهم حرية الهتاف او عدم الهتاف !!

الفصل العاشر

٨ يناير

العيد الثاني لتاسيس الحزب الشيوعي المصري ، العبارة التي كانت تتكرر طوال النهار « كل عام وانت بخير » كان الرفاق يرددونها فيما بينهم حينما استيقظنا في صباح الثامن من يناير ١٩٦٠ ، وحينما خرجنا الى الجبل ، كان الرفاق من العنابر المختلفة يتحينون الفرص لكي يحيي بعضهم البعض بمناسبة العيد الثاني لتأسيس الحزب .

كان الرفاق يتقابلون ، وهم يعدون ، حاملين المقاطف المليئة بالتراب، فيهمس الواحد منهم في اذن الاخر « كل سنة وانت طيب » ولم تنقض ساعات العمل في الجبل الا وكان كل رفيق قد هنأ الجميع تقريبا بهذا العيد .

وفي المساء بعد ان تناولنا طعام العشاء كان المسئول السياسي العنبر يدعونا مجموعة مجموعة ، فتتكوم حوله تحت البطاطين ، وينقل الينا تحية اللجنة المركزية وتحية اللجنة القيادية للعنبر ثم ننشد بصوت خافت :

الحزب الشيوعي المصري
نبنيه بعزيمتنا
وندرك الاساس خرسانه
من وحدة ارادتنا .
يا مرحب من العمال
يا مرحب من الفلاح
يا ورد الشقا بيفتح
في وادي بلدته كفاح
يا نجمة يا بحر نجوم

من بين الغيوم لماح
وطريق النضال جمعنا
والثورة في ايدينا سلاح .

ومضى النشيد الذي ولدت كلماته في سجن القلعة بعد حملة يناير، فيتحدث في اعتزاز عن صوت الرفيق خروشوف الذي ارتفع من اعلى منبر للاممية ، من المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي ،مدافعا عن الشيوعيين العرب ، مفندا الادعاءات التي تروجها الاوساط الرجعية العربية عنهم ، مشيدا بهم كأصلب المناضلين ضد الاستعمار :

اممية تضامن قوة
حرية ونصر اكيد
خروشوف الرفيق اتكلم
من موسكو ومد الايد ..

ويخاطب النشيد شعوب البلاد العربية التي تخوض معنا نفس المعركة من اجل تحرر كامل من اجل ديمقراطية كاملة .. من اجل سلام دائم ..

يا شعوب العرب يا شعوبنا
صحوة وبعدها ما ننام
حرية ولا استبداد
ولا تضليلنا بالاوهام
يا حزب العراق بنمسى
ونصبح يا حزب الشام .

كانت مشاعرنا في تلك الليلة تتجه الى رفاقنا الابطال في الخارج الذين يقومون بواجبهم ، يعملون في اشق الظروف ، ولكن نضالهم هو الامل الذي يحطم اسوار الظلام التي يقيمونها بيننا وبين الامل والثقة في المستقبل .

الفصل الحادي عشر

٢٩ يناير

لقد ولد حزبنا في المعركة ضد عدوان المستعمرين على بلادنا ، وولدت سياسته الطبقيـة في المعركة ضد عدوان البورجوازية الناصرية على شعبنا وعلى الشعوب العربية ، ضد حملتها على الشيوعية والحريات الديمقراطية، ضـد الارهاب الناصري خارج الاسوار وداخلها .

وتعمد الميلاد الطبقي لحزبنا بالدم ، فسقط منه محمد عثمـان ،مصطفى شوقي البهناوي ، وفريـد حداد ، عبدالتواب جبريـل ، كلهم سقطوا بعد تعذيب وحشي من اجل ان ينكسوا رايـة حزبنـا فرفضوا واختاروا الموت بديـلا .

وفي ٢٩ يناير سقط الشهيد الخامس المناضل العمالي القائد علـي متولـي الديب .

في الشهر الثاني لوجودنا بالاوردي اصيب بمرض الدوسنتاريا الحادة وقد ازدادت حدتها حتى غدا ينزف الدم ، وكلمـا شكا للثعبان مأمور السجن ابتسم هذا في تشف وامر بان ينضم علي الديب الى طوابير « الرياضة » المهلكة وان يخرج للعمل الشاق في محاجر البازلت .

كان الاغماء يعاوده فيأمر الثعبان بان يلقى على وجهه بالماء حتى يفيق ويعاود العمـل .

والم به الهزال حتى باتت عظامه وضلوعه من تحت جلده ، وقد غـدا شفافا لم تعد قدماه تقويان على حمله ويصر الثعبان على ان يشارك فـي طوابير الرياضـة . يراه يلهث ويتعثر اثناء الجري ، فيأمر احد جنـوده ان « يشجعه » على المشي ببعض العصي على ظهره .

كان علي الديب يطالبه بالعلاج، فيرد عليه« علاج ايه .. احنا عاوزين

نموتكم » ويأمر بابتسامة ساخرة جنديا ضخم الجثة ، ان يضرب الرفيق وهو يقول « اديله العلاج يا عبدالسلام » .

وسقط علي متولي الديب .. لم يعد قادرا على رفع راسه من الارض حيث يرقد . وحملوه الى حجرة يسمونها « حجرة الملاحظة » .

لم يكن المقصود بتلك الحجرة ان يحظى من يوضع فيها بعلاج او راحة، وانما لكي يستطيعوا اخفاء معالم جريمتهم ازاء من يموت فيها بعيدا عن اعين الرفاق .. وهذا ما حدث ..

فحينما بدا علي الديب يلفظ انفاسه الاخيرة البسوه ملابسه الخاصة وحملوه حملا الى سيارة كي تنقله الى احدى المستشفيات حتى يموت هناك وبذلك يبعدونه عن الاوردي ، فلا يلفتون اليه الانظار من جانب ، ومن جانب اخر يسجلون لانفسهم انهم قد اهتموا بالمريض فنقلوه الى مكان يعالج فيه.

ولكن علي الديب احبط خطتهم فلفظ اخر انفاسه ولم تكن السيارة قد بدات تتحرك من امام السجن .

ومرة اخرى يخون الدكتور احمد كمال طبيب مصلحة السجون القسم الذي اداه باحترام شرف المهنة، فيزيف لادارة السجن تذاكر طبية متعددة بتواريخ مختلفة لكي تثبت انها قد قدمت للشهيد العلاج اللازم .

لقد خرج علي متولي الديب من قريته (منطى) من مديرية القليوبية ليعمل في مصانع الاليات بشبرا الخيمة ، حيث تلقى تدريبه كمناضل عمالي فمن هذه المنطقة تخرج معظم القادة العماليون .. ولم يكد علي الديب يشرف على العشرين حتى كان قائدا عماليا في شبرا الخيمة ، وقائدا لجماهير الفلاحين في قريته ، وما جاورها من القرى القريبة ..

لقد سقط الشهيد وهو في مقتبل العمر في الربيع الثامن والعشرين من حياته التي قضاها حياة نضال ومواقف فذة اكسبته ثقة عمال شبرا الخيمة فكانوا دائما ينتخبونه عضوا بمجلس ادارة نقابتهم . وفي المساء، وفي كل مساء من التاسع والعشرين من يناير يرتفع اللحن الحزين يغني حياة الرفيق :

خمس عصافير بتصوى م الاسى والجوع
وجنبهم امهم تنعي بصوت مبحوح
على عش هده حنش ازرق بناب مفتوح
يا قلب ابكي ما دام الدمع جف وراح
خامس شهيد اتقتل في قبضة السفاح

علي بن متولي كان عامل وابوه فلاح
والثار بتاعه بيناديني مسا وصباح
ان كان علي مات حيطلع ميت علي غيره
ودمه ليهم علم عالثورة تعبيره
والوحش بكــرة يطبل فوق غطا زيره
واللي بيفحت مصيره يترمى في بيره
يا نجمة الفجر غيبي لاجل يجي الصباح
ونوره يملا حياتنا والظلام ينزاح
وكفاية تحت المظالم كل مصري ناح
تسع سنين والبلد متكتفة بسلاح
شهداؤنا نار دمكم شعلة لثورتكم
شعوب كثيرة بتتغنى بسيرتكــم
حانبني قلعــة بهـــا نخلد بطولتكم
بحياة سعيدة نقدمها لاولادكم ..

الجزء الثالث

خلف جدار الرمل

الفصل الأول

الانسان في التجربة

منتصف سبتمبر . ومعتقل الفيوم ينتفض بالاناشيد والهتاف ، والصمت ينطلق والكلمة المخنوقة تدوي ، وجدران المعتقل تهتز ، والاسلاك الشائكة والجنود وضباط المعتقل يواجهون الدفعة المرحلة الى منفى الواحات ، اربعون مناضلا تصورت المباحث العامة انها بابعادهم الى الواحات تستطيع ان تسيطر على معتقل الفيوم .. وفي جنزير طويل يسمى بالحجلة قيد الاربعون ليشحنوا في لوريات الى بنى سويف ومنها في عربة المساجين التي تشبه عربة المواشي الى الواحات .

وبعد رحلة قاسية لمدة يومين ، كانت الصحراء قد غيبت في جوفها تلك الدفعة التي انضمت الى دفعة سابقة قد رحلت ايضا من الفيوم ، بالاضافة الى بقية من اعتقلوا في اول يناير عام ١٩٥٩ ، بعد ان رحل منهم ٦٤ الى الاسكندرية للمحاكمة .

سارت المعاملة من سيء الى اسوا .. الفطور قطعة ضئيلة للغاية من الجبن (القريش) الخالي من الدسم ، في غالب الاحيان تكون متحجرة في صلابة الحجر الجيري ، واحيانا تكون درجة ملوحتها من التركيز بحيث تجعل مذاقها لا يطاق ، والفداء عدس او فول مليء بالسوس والعشاء سائل تعافة النفس يسمونه الشوربة ، كان الحساء النازي اكثر منها كرما بمراحل ، وقطعة من الجلد تسمى لحما من قبل الرسميات ، العلاج يكاد ينعدم ، لا جرائد ولا كتب ولا اذاعة فكلها محظورات في المعتقلات .

بدات عمليات التضييق تشتد ، فالطابور (الفسحة) لا بد وان يسير بنظام معين بحيث لا يسمح للمعتقلين بالتجول في فناء السجن كما يريدون ، كما كانوا يفعلون من قبل ، والنور في الزنازين يطفأ مبكرا .. تم يلغى

تماما ، وعمليات التفتيش تتوالى ، ويعثر مع احد المعتقلين علـــــى بعض الاوراق ، فيسحب الى الخارج ويمزق جسده بالعصي وفروع النخيل ، ويتكرر نفس الحادث مع معتقل اخر في اليوم التالي ، و« عبدالعال سلومة » ضابط العنبر رقم (١) الذي يقطنه المعتقلون، لا يكف عن التهديد وتتوالى عمليات التكدير ، ويلتقط معتقل ثالث لتجري معه نفس عملية التعذيب بعد حلق شعـــر راسه ..

ويفكر المعتقلون في موقف الدفاع عن وجودهم الانساني .. والادبي .. ولكن وهم ما زالوا يعدون لعملية المقاومة .. اذا بالسجن تدب فيه حركة مفاجئة ، فلقد وصل اللواء اسماعيل همت وفرقته الدموية .

لم يكن قد انقضى على « حفلات الاستقبال » في اوردي ابي زعبل ثلاثة ايام حينما وصل همت الى الواحات، طلب ضباط السجن من المعتقلين ان يغادروا زنازينهم في عنبر (١) ومعهم كل ما يخصهم من ملابس وامتعة .

لم يكن احد يعرف حقيقة ما يدور ، ولم يكن احد يدري حقيقة ما حدث في ابي زعبل. صدرت الاوامر للمعتقلين ان يجلسوا القرفصاء امام العنبر، وان ينكسوا رؤوسهم الى الارض والا فالويل لهم ، واحاط بهم من كل جنب جنود وحراس السجن ومعهم العصي الغليظة . ورفع احد المعتقلين راسه ليرى ما حوله ، فاندفع نحوه الصاغ صلاح طه ليركله بالحذاء في راسه ثم امر المعتقلين ان يقفوا بنظام وان يتحركوا بالخطوة السريعة الى عنبر (٢) .

كان صمتا غريبا ورهيبا ذلك الذي خيم على السجن ، لم تكن تسمع في ذلك الفراغ سوى الاوامر والتهديدات ، وحشروا المعتقلين كل ٢٧ او ثلاثين في زنزانة واحدة في عنبر (٢) .

كان فخري لبيب ، هو الذي اختاروه في ذلك اليوم لكي يصبوا عليه جام غضبهم واو الى حد الموت . فهم لا ينسون له دوره في قيادة عمليـــات المقاومة في الفيوم . انه يحكي لنا قصة ذلك اليوم .

« لم نكن ندري حقيقة ما سيحل بنا حتى تلك اللحظة ، لقد اخذنا على غره ، وبصورة لم نعهدها من قبل .

لم نكن ندري اهي محاولة لفرض نظام سكن معين علينا في داخـــل العنبر ، ام هي بداية « تكديرة » معينة ، ام هي عودة الى ما كنا عليــــه فى الفيوم ، وكان تنظيم مقاومة لما يمكن ان يتم امر مستحيل ، فليست هنـــاك امكانية التفاهم مع بقية المعتقلين او الاتفاق معهم على خطة معينة ، بالاضافة الى ان خطة العدو كانت مجهولة لنا .

وبدات اصوات الجنود في الخارج تجتذب اسماعنا ، فهنالك اقدام ثقيلة تجري خلف الحائط .. اوامر بالاستعداد .. استعد .. كتفا سلاح .. وبدا الامر وكأن هناك من سينفذ فيه حكم الاعدام رميا بالرصاص .. بدانا نستشعر خطرا هائلا يحيط بنا ، وان لم نستطع ان نحدد بعد على اي صورة سيكون ..

سمعنا باب الزنزانة المجاورة يفتح ، وحركة غير عادية ، والحارس يطلب ستة من المعتقلين ، وعادت الاوامر خلف الجدران ، وصوت يعلو فوق تحفز الحراس وعصيهم القاتلة :

ـ اجري ..

ثم سمعنا اصوات اقدام تهرول ، ثم تكبو ، ثم صرخات حادة والامر « اجري » ينطلق في ذلك الزحام ، والشتائم الوقحة القذرة ، تدوي في الفضاء خلف جدران العنبر .

وادركنا ان مجزرة تعد لنا ، وعلينا ان نواجهها باسرع ما يمكن وفي حدود ما يمكن .

قسمنا انفسنا في حجرتنا الى دفعات على التوالي ، وقررنا ان نواجه الموقف كما ينبغي على مناضل مصري ان يواجهه، علينا ان نمزق ما يسعون اليه من اذلال .

توالت الدفعات ، وفتحت زنزانتنا ، وتقدمت وخمسة رفاق ، وهمس الجندي الحارس لنا ـ اذا اسرعتم في الجري عجز الجنود عن اللحاق بكم .

ولمعت في راسي صورة كلاب المطاردة والفريسة . وصورة ذلك النوع من النزال في الغابة ان ينطلق رجل وخلفه اخر ، ولا بد ان يغادر الغابة منهما واحد فقط .

وحتى تلك اللحظة لم تكن ندرك بالدقة صورة ما يحدث خارج الجدران ومن بعيد رايت رفاقا يجرون ، عرايا الاجساد ، حليقي الرؤوس ، حتى لم استطع تبيين واحد منهم . ومن خلفي صرخ جندي :

ـ اجـري ..

وبصورة آلية انطلقنا نجري .. رايت نفسي بين صفين من الجنود مزودين بعصي الجريد الغليظة ، والضرب ينهال علينا ومن خلفنا صرخات الجنود وشتائمهم ، صرخات فريق المطاردة .. الى اين نقاد ؟ والى اي مصير ..؟

وسقطت عصا غليظة على ظهري ، ولكنني لم اتوقف ثم ثانية على

ساقي وترنحت قليلا واذ بثالثة على عنقي ، تجعل اقدامي تثقل حركتهـا ، وتغوص في الرمال ، وانهال علي الضرب والشتائم بصورة وحشية ، لم اكن اشعر بأي شيء ، كابوس ثقيل ، رهيب وسؤال يدوي في راسي ... هل هؤلاء مصريون .. ايدرك هؤلاء اننا مثلهم مصريون ..؟

وقمت اتعثر ، يقودني الطريق المحدود بالقتلة الى خارج سور السجن.

وهناك كانت صرخات تدوي .

ــ وشك في الارض .

ــ اقلــع هدومك .

ــ اركع للحلاقة .

وتلفت حولي ، لقد بدأت ادرك الموقف في وضوح ، وانهال الجنــدي بركلاته علي وسقطت على الارض ، ولكن لم اعبأ بشيء ، تفحصت الوجــوه القاتمة ، كل الوجوه ، وصرخات الجندي تدوي ، وحذاؤه لا تكف عن تمزيق ضلوعي ، كان اسمه « متي » ذلك الوحش الذي يرتدي ثياب جندي ، والذي تولاني بكل ذلك الضرب والركل والسنباب .. انه رجل لا ضمير له شارك في مذبحة ليمان طره ، انه نفر عادي ، لا يحمل ذراعه « شريطة » واحدة ، وهو لا يتورع عن قتل اي انسان اذا كان ذلك يأتيه بتلك الشريطة .

واعمل الحلاق يده في راسي ، كان علي ان اخلع ملابسي كلهـا وان احلق رأسي وان اتلقى ركلات « متي » في وجهي وضلوعي ..

وسألني جنود من خلفي .

ــ اسمك ايــه ؟

ــ فخري لبيب

وعاد يسأل

ــ انت شيوعي

فأجبت فــي اصرار

ــ ايوه .. شيوعي ..

واذا بقبضات مثقلة باطنان من الحقد والكراهية ، تنهال على رأسي وعنقي ... واعمل الجندي حذاءه في ظهري بكل ما يملك من قوة، ووجدت نفسي الهث من فرط الاجهاد وانتهى الحلاق من عمله ، وكنت قد غــدوت عاريا كما ولدتني امي ، وقبض الجندي على كتفي وقادني الى حيث جلس اسماعيل همت وقال :

ــ ده فخري لبيب يا افندم ، بيقول انه شيوعي .

وسالني اللواء همت في تراخ انثوي .
ـ انت شيوعي .
وعلت اجيب في اصرار .
ـ ايـوه شيوعي .
فصرخ في الجنود ان احملوه الى العروسة ، ووجدت نفسي مصلوبـا على العروسة ، قدمي وذراعي مشدودتان بحبال الى ذلك الصليب . وانهال جنديان من كلا جانبي على ظهري بسوط ذي شعب متعددة كثيرة العقد .
شعرت بلهيب محرق يجتاح ظهري ، والضرب مستمر بلا توقف ، وتقدم صلاح طه يسألني : ـ
ـ انت ايـه
ـ انـا مصري
وعـاد يسال
ـ مصري شيوعي ؟
واجبته فـي اصرار
ـ ايـوه
وجن جنون همت فصاح بالجنديين ان يجيـدا الضرب ، وانهـالت السياط بلا توقف ، وعاد صلاح طه يقول :
ـ لسه شيوعي ؟
وصرخت في وجهه
ـ لن اجيبك ، فلست محكمة ولا نيابة حتى توجـه الي هذا السؤال والتفت الى الخلف .. كان هنالك مامور السجن الصاغ فريد شنيشن ، واللواء اسماعيل همت ووكيل محافظ الخارجة وقلت بأعلى ما يملك صوتي مـن قوة .
ـ انا احتج على تلك المجزرة ، واحملك يا مامور السجن المسئوليـة كاملة في كل ما يحدث الان .
وارتفعت الصرخات « اخرس » وانهالت الشتائم البذيئة ...
ومزق السوط شفتي اذ انهال على فمي ، واندفع جندي ببندقيتـه الي ، وادرت وجهي لاتفادى تهشمه ، وشعرت بدبشك البندقية يمزق عنقي .. واخذت الاوامر تتوالى .
اضرب كويس ...
والسوطان يصفران في الهواء واحدا تلو الاخر ثم يستقران عـلى

ظهري .

وتقدم صلاح طه مرة اخرى ، وهو يصرخ في انفعال .

ـ بتحتج .. بتحمل المسئولية ؟

وصرخت في وجهه

يا قتلة ، يا فاقدي الانسانية ، يا سفاحين ..

ولم اتوقف حتى توقف السوطان ، ربما سبعون سوطا وربما اكثر .. مزقت ظهري شر ممزق ..

وانزلوني من العروسة التي كنت مصلوبا عليها . جسدي يدمي ، وانا عاجز عن الحركة وما ان خطوت خطوتين بعيدا عن ذلك الصليب ، حتى تقدم نحوي صلاح طه مرة اخرى ، وانهال على راسي بعصا غلبظة وهو يصرخ بحنق « يحتج » « بتحتج » .

كان هذا ايذانا بجولة جديدة ، اذ سرعان ما احاط الجنود بي، وانهالوا علي ضربا بطريقة تعرف لديهم باسم « الكفتة » .. انا في الوسط والعصي ترتفع لتدك جسدي ، حتى سقطت .. وارتفع امر .

انهض ـ اجري ...

واشار صلاح طه نحو الاسلاك الشائكة ، وهي الحدود النهائية للمنطقة الحرام حول السجن وادركت انهم يريدون بي واحدة من اثنين ، اما ان يطلقوا علي النار حين اصل الى السلك باعتباري احاول الهرب ، وانهم يريدون ان اسقط بين الاسلاك الشائكة فيتمزق جسدي نهائيا فيها .. ولم اتحرك ، ... وعاد الضرب من جديد .. ولكزات الجنود « اجري ، اجري » ،وسرت في اتجاه اخر ،ولكني سقطت ، لم اكن بقادر على الحركة ولا السير ، لقد تمزق جسدي تماما ..

واذا الجند ينهالون علي بعصيهم الغليظة ، ثم اوقفوني ، ودفعوني امامهم الى حيث المنصة التي جلس عليها همت وشنيشن ، وكان وكيل المحافظة قد وقف ، ومد يده وبها عصى غليظة ، وكذلك فعل صلاح طه .. كانا في انتظاري .. وادركت انهم قد قرروا قتلي ، فقررت ان اموت وانا واقف على قدمي ، وانا اواجههم جميعا ، وجمعت كل ما تبقى في من حياة، وركزتها في ساقي ، وجمعت كل ما تبقى لي من ارادة وركزتها في وجهي .

وعاد الضرب بطريقة « الكفتة » ، ووقفت اقاوم الانهيار الجسدي الذي بدأ يتسرب الى كل جزء من كياني ، ولم اعد احس بشيء ..

افقت لاجد نفسي على الارض ، وقطرات من الماء المالح تتساقط من

وجهي الى فمي ..

اخبرني الرفاق فيما بعد اني سقطت مغشيا عليّ ، وكان الجند يصرخون ، انه يتصنع الاغماء وينهالون عليّ بعصيهم وركلاتهم ..

واوقفوني على قدمي وشعرت اني عاجز تماما عن التحكم في عضلة واحدة من جسدي ، والقوا الي بملابس السجن التي صارت ملابسي منذ ذلك الحين ، وامر الضابط جنديا كي يمسك بذراعي حتى اصل الى حجرتي مرة اخرى في عنبر (١) ، حيث كان يعود المعتقلون بعد ذلك الشوط .. كان جسدي داميا ممزقا ، وقد تحول الى كتلة زرقاء داكنة ، وكان الجندي يوقفني وانا اسير الى جواره ، ليوجه الي ركلة عنيفة او ينهال عليّ بالعصا الغليظة التي يحملها في يده .

وسالت الجندي معاتبا ، اما زال في جسدي جزء يحتاج الى جهده حتى يتلون بالازرق الدامي ؟

وبدا الرجل وكأنه يفيق من دوامة عاتية ، ونادى عليه وكيل السجن ان يكف فتركني وعاد .. تحاملت على نفسي حتى وصلت الى العنبر ، وهناك تدافع الرفاق حولي ، كنت الهث بعنف واحس نفسي عاجزا عن الحركة تماما فالقيت بملابسي التي كنت احملها ،وسترت عورني بيدي ، وساندني الرفاق حتى وصلت الى زنزانتي ، وضابط العنبر عبد العال سلومه يصرخ فيهم ان يتفرقوا .

سقطت على الارض في ركن الزنزانة ، ولاول مرة بدات اشعر ان ذراعي اليسرى لم تكن على ما يرام ، وعندما نظرت اليها كانت متورمة بصورة غريبة ، ومن الصعب ان احركها بل حتى لم اكد اشعر بوجودها ، .. لقد تحطمت وانا ادافع عن نفسي واقاوم بينما العصي تنهال علي ..

وبعد قليل حضر ضباط السجن ومعهم المامور .. وقال لي عبد العال سلومه ضابط العنبر وكان يعرفني جيدا من قبل :

ـ علشان تبطل الماضه .

وقلت لـه :

ـ ابدا ـ ان ذراعي المكسور سيظل يذكرني .. حتى لا ننسى .. لا ننسى مطلقا طبيعة من سيحكمون بلادنا .

كان المعتقلون جميعا عرايا ، او بهذه الملابس الغريبة المزرية ، حليقي الرؤوس حفاة الاقدام ، اجسادهم دامية زرقاء داكنة .

وفي المساء عندما اغلقت الزنازين كنت تستطيع ان تسمع صوت

الضحكات .. ضحكات الرفاق وهم يسخرون من هذا العدو الغاشم الجاهل الذي لن يفهمهم ابدا ، ولن يدرك على الاطلاق اي قوة كامنة في هؤلاء الرجال، انها قوة ٢٤ مليون .. تختزن طاقة ثورية منذ اجيال .. ولاجيال قادمة .

في صباح اليوم التالي نودي على المعتقلين جميعا ، لينتظموا في تنظيمات رباعية استعدادا للخروج للعمل في الصحراء ، طلب اللواء همت من الضابط عبد العال سلومه ان يوقع في سجل بوابة السجن على خروج المعتقلين للعمل ، ولكن الضابط رفض وقال للمأمور مبررا رفضه .

« انني اعرف هذا الرجل ونزواته المجنونة ، ولا اريد ان اتحمل انا مسئولية اي عمل جنوني يقوم به ، ربما اطلق عليهم النار في الخارج ... فليوقع هو ان اراد » .

وجبن همت عن التوقيع مما يبين انه كان يدبر امرا ، وامر المأمور واحدا من قوة حراسة السجن برتبة جاويش ان يوقع في السجل ، وسار المعتقلون حفاة اميالا على الشوك والحصي، وظلوا يعملون حتى الساعةالثانية حينما تتحول الشمس الى قرص من الجحيم يلهب كل شيء ، والعصي تنهال على اجسادهم ، والرمال الملتهبة تشوي اقدامهم ، والافاعي كامنة في مواطىء كل قدم .. عشرات منها قتلت قبل أن تمتد بانيابها الى لحم احد الرفاق بشوان » ..

الفصل الثاني

الورقة .. والقلم

كان قائد المعتقل قد اعلن ان كل الممنوعات يمكنه التغاضي عنها ، حتى لو كانت مخدرات ، شيء واحد لا يمكنه احتماله او السماح به او السماع عنه ، انه الورقة والقلم . ولكنا كنا قد اعلنا في كل مكان اعتقلنا فيه ان الورقة والقلم شيء لا ينفصل عن حياتنا اليومية ، وانهما كالماء والهواء تماما.

واول العام الجديد يقترب ، عام ١٩٦٠ ، والمعتقلون يعدون لحفلات في الحجرات حفلات كلها ذكريات ، اذ ليس هنالك ما يضفي على اليوم بهاء العيد ورونقه ، ووصلتنا سرا مجموعة من الرسائل من عائلاتنا في الخارج ، وتقرر ان تقدم الى اصحابها من الرفاق والاصدقاء في العيد ، كنا قد احتفظنا بها في مكان لا يعرفه احد ، وتكبدنا في هذا اليوم مغامرة شديدة من اجل فرحة تطل على الزنازين من دنيا الشوارع وبسمات الاطفال .

ووصلت الرسائل ووزعت على اصحابها ، وكان الوقت ظهرا ، وحركة غريبة غير معتادة في العنبر ، ونوافذ الدورات تغلق بالمسامير ، وارتبنا في الامر ، ان الخطابات قد هربت من هذه النوافذ . ولكن احدا لا يعلم بهذا الامر ، بل احدا لا يعلم بالخطابات سوى من استلموها ، وبنطشي العنبر، وهو مسجون عادي ، قبض عليه في تهمة خلقية وكان عمله في الخارج جندي مباحث ، يسرع الى العنبر ويسأل في لهفة مفتعلة، لقد عثروا على الاوراق.

ولكن الخطابات مع اصحابها ، وقد اعدمناها فورا ، فمن اين الاوراق ؟ ... ان احدا لم يعثر على اي اوراق بل ان العنبر قد نظفناه تماما ، ولم نعد نستخدمه في هذه الاغراض .

كان من الواضح ان قائد العنبر قد علم بامر الخطابات ، وادرك انه لن يصل اليها وانه يريد عمل شيء ما .

والمساء يقترب ثقيلا ، ونحن قد ارسلنا وفدا من الرفــاق المعتقلــين يهنئون قائد المعتقل بالعام الجديد ، وينتهزونها فرصة للحديث في حياتنا وظروف التغذية السيئة والسخرة التي نعيشها .

والزنازين قد اغلقت علينا ، والصمت يرين على العنبر . ومــن بعيد كصدى لشهرين مضيا ، سمعنا فرقعات ترن في ارجاء المعتقل ، هنالك من يضرب ، من يعتدى عليه ، وسؤال حائر بين الرفاق ، ماذا يحدث في الخارج، ومن اين هذا الصوت الكريه ؟.

واعلن واحد من الرفاق، انهم يعتدون على الرفاق المندوبين .. وفجاة .. زعق شاويش العنبر ـ انتباه ؟ .ومعنــى ذلــك ان نقف ووجوهنا الــى الحائط ، ثم سمعنــا صوت قائد المعتقل يسب ويشتم ويصب علينا بلسانــه كل القاذورات التي يعاقب عليهــا ابسط عرف وتقليد في بلادنا .
وسمعنا زنزانة تفتح ، ثم صوت ضربات مكتومة ، واستمر الضرب ، ولــم تصدر صرخة الم واحدة من الرفاق وزنزانة تفتح ثم تغلق وهكذا .

لقد كان الجنود يضربون الرفاق ووجوههم الى الحائط ، كانوا يضربون في اماكــن محددة ، يضربون الرؤوس بالحائط ، ويرفعون الملابس حتــى يكون الضرب مباشرا فوق الكلي ، ومن يسقط على الارض ينهالون عليــه بالاحذيــة الغليظة ، وتعب الجنود من استخدام ايديهم واحذيتهم .وكانت العصي الغليظــة في الانتظار ، وهكذا كان نصيب الزنازين الاخيرة مجزرة بالشوم داخل جدران الزنزانة .

وفي هذا اليوم كانت الاصابات افدح من ١٥ نوفمبر عام ١٩٥٩ ، لقد كسرت يــد المناضل سيد عبدالله وكان واحدا من المندوبين لدى الادارة ، ولطخت الحوائط بدمــاء الرفاق ، وكست وجوههم جص الحوائط مختلطا بدمــائهــم .

ران الصمت بعد ذلك ، وطلبنا ان نقابل ضابط العنبر. وفي حجرته، اعلنــا احتجاجنا الصارخ على هذه المعاملة البربرية ، ووصل قائد المعتقــل وكررنا احتجاجنا مرة اخرى واعلنا اننا نرفض تماما هذا الاسلوب، واعلن قائد المعتقل انه قد عثر على اوراق وانه لا بد وان ياخذ الاجراءات اللازمة، وقلنــا ان هذه الاجراءات لا يدخل في اطارهــا تلــك الاعمال البربرية ، وان اي اوراق تعثر عليهــا الادارة فبيننا وبينها النيابــة ، وكل الاجــراءات القانونيــة ..
واعلن قائد المعتقل ان ما حدث اليــوم انما هو ثأر شخصي ، لقد طلب

منـا ان لا نحتفظ بأيــة اوراق ، ولكننا خدعناه واحتفظنا باوراق سياسية، وقد اصاب ذلك كرامته ولذلك قام بهذه العملية لحسـابه الخاص، وانها قد انتهت بانتهاء الليلــة .

وفي الصباح كانت هنالك عمليات من التنكيل . فقد اوكل امر العنبر الى سجان مختل القوى العقلية ، يعيث الزهري بجهازه العصبي .

كانت الحجرات تفتح من اجل دورة المياه . ثم يندفع المعتقلون جريـا الى الدورات ومـا ان ان يغلقوا الابواب عليهم ، حتى يصرخ هذا المعنــوه يطالبهم بالخروج . ثم ينقض على الدورات ويركل الرفاق وينتزعهم الـى الخارج ، وفرقة من الجنود في الانتظار ومن يحتج على هذا العمل يوسعوه ضربـا وركـلا .

والوقوف في الزنازين طوال اليوم والوجوه الى الحائط .

وعدنا نحتج من جديد ، واوقفت هذه العملية البربرية ، وعادت الامور الى ما كانت عليه . حياة المعتقلين رهن ثأر شخص او عملية خاصة لحساب قائد المعتقــل لا حسيب ولا رقيب .

لقد كان قائد المعتقل يعلن بصوته الجهوري ، ان خروشوف لو حضر الى الواحات لجعله يتذوق طعم الشومة على قدميه ومؤخرته .

وكان يفاخر بانه في مقدوره ان يضعنا امام مدفعه الرشاش ، ثـم يحصدنا ، وسيغضب ذلك بعض الناس ، فلا بد وان تحاكمــه الحكومــة ، وتحكم عليه بالاعدام ،ثم تخفض الى الاشغال الشاقة المؤبدة ، بدعوى خلل قواه العقلية ، ثم يمر شهرا واثنيــن ويفرج عنه بعفو صحي ليعين مديرا لاحدى المؤسسات براتب شهري قدره مائتين من الجنيهات فقد ادى اجل خدمة للنظـام .

بهذه العقلية ، كان قائد المعتقل يتفهم الناصرية ، ولم يكن الرجل مخطئا في هذا الفهم ، فالحياة في بلادنا تسير اليوم على هذا الخط . والقتلــة وسفاكي دمـاء الشعب هم الذيـن ينعمون بكل شيء ..

ان النظام باساليبه الفاشمة كانت تبعث في نفـوس موظفيه ، كـل رذائل البشرية ، كل الحقارات والدناءات .

فالذي ارشد على مكان الاوراق كان سجان العنبر ، ذلك الرجل الذي كـان يغطي وجهه بابتسامة شفوقة ويلوك كلماته المعسولة ، ولكنه كـان يفكر في ان نأمن اليـه ونفقد حذرنا ، فيعثر على كنزه : بعض الاوراق ، تلك التي ستفتح له الطريق كي يثبت الشريطيــن المعلقين علـى ذراعيه .

فيعمل بالمباحث العامـة .

ان قائد المعتقل هذا قد غادر المعتقل ثم عاد اليه بعد عام . وكان مختلفا بصورة كبيرة ، حقيقة كان منبـع ذلك هو نضالنـا الذي لم يتوقف ، وتغير الظروف بالنسبة الينا ، ولكنه دون شك قد ساعدنا فيمـا بعد في ظروفنا في السجن بصورة طيبة .

وهذا السجان ، كان ايضا يؤدي لنـا خدمات كثيرة ، كان يهرب لنـا السجائر والمأكولات بدافع من انسانيته . كنا قد انتصرنا في معركتنا ضـد الارهاب في السجن ، وهذا الانتصار ساعد الانسان من هؤلاء الناس على ان يتحرر من الخوف ، ويعـود ليعبر عن نفسه .

الفصل الثالث

اللوز القاتل

التجويع جزء اصيل من عملية التصفية ، ان الطعام الذي لدينا لا يخرج عن كونه في الصباح قطعة صغيرة جدا من الجبن الخالي من اي دسم ،وفي كثير من الاحيان تكون رائحة هذا الجبن كريهة الى درجة غير محتملة ، او كمية من العسل الاسود وكثيرا ما تكون هذه الكمية الضئيلة ممزوجة بالسولار او قد تخمر واصبح لا يصلح للاكل، والغداء كمية من الفول القذر الذي تسبح فيه كميات من السوس ، او كمية ضئيلة من العدس ، والعشاء شوربة خالية من الدسم ، وقطعة من الجلود يسمونها لحوم .

والعمل الشاق المضني ، في البرد القارس او الحر البشع اللافح منذ السابعة صباحا حتى الثانية بعد الظهر ؛ من استصلاح اراض لا يمكن ان تصطلح ،انها صخرة وحسب الارض تلد كل يوم الشوك والحيات . ثم تطهير مجاري المياه والقنوات وخزانات الري ، وتعميقها بايدينا حيث نخوض في الوحل والطين الى ما يقرب من الخصر .

والتدهور الصحي على اشده ، وامامنا والى جوارنا بعض الاراضي المستصلحة وينقض المعتقلون ، يقتلعون كل اخضر ، لياكلوا ، ليشبعوا ،من اي شيء من كل شيء، لقد اكلوا البرسيم الحجازي ظنا منهم انه نبات الحلبة ، وكانوا يقتاتون « الرجلة » من الارض يبحثون عنها بين الاشواك او على حوافي القنوات والجداول ، وبطن النخيل الصغير ، وما يعرف بالجمار والبلح الاخضر والمعروف باسم الرامخ ، او فجلة هنا او جرجيرة هناك ، حبة طيرها الهواء من الارض المنبسطة لتنبت في قلب الرمل والشوك ، اي شيء وكل شيء ، والجوع غول ، بشع ، ولا شبع .

والعدس والفول لشهور طوال قد اصاب الكثيرين بالامساك ، وشجر

الخروع قـد نضجت ثماره وجفت ، فتناثرت حبوبه على الارض بغلافهـا اللامع البراق .. ويتناول واحد من المعتقلين حبـة ، ويلبس ثوب الطبيب ويعلن للرفاق ان هذه الحبوب تفيد في القضاء على الامساك ، ثم يأكل الحبة، وسرعـان ما يعلـن في غبطـة ان طعم ثمار الخروع جميـل ، انها تشبـه اللوز ، ويتقاطر المعتقلون ، يملأون بطونهم الخاوية لقد عثروا على كنز ثميـن للفـداء .

ويمضي الوقت والطابور يعود . وقبل ان يصل الى ابواب السجن ، يتقيأ واحد من الرفاق ويتلوه اخر . وسرعان ما اجتاح القيء المعتقليـن واخذوا يتمايلون ويتساندون ويسرعون الخطى نحو المعتقل ، لقد كان المغص شديدا وكانت الآلام هائلـة تمزق احشاءهم .

وبسرعة شديدة اعدت حجرتين الى جانب حجرة المستشفى لاستقبال الرفاق الذيـن اصابهم التسمم ، وانتشر القيء والاسهال ، واشرف اربعة على الموت وقد ضمرت اجسادهم بصورة رهيبة ، فغارت عيونهم ، واصفـرت وجوههم ، وصارت اجسامهم ذابلة هزيلة في ساعات قليلة ، وطوال الليل كانت عيون الرفاق سهرانه ترى اخوانهم الذيـن كانوا يسيرون الى حالـة سيئة . وحقـن الجليكوز تعمل بلا هوادة .

ويستمر البعض اياما طويلة حتى يشفى من هذا الحادث المؤسف ،لقد فقدوا الكثير من بنيانهم الجسدي ، كم كـان هذا الجوع غول بشع .

ومن القاهرة ، من المباحث العامة ، مكتب مكافحة الشيوعية ، وصلت الى قائد المعتقل رسالة تقدير وتحية .

تهنئه لمهارته في ان يكون الجوع طريق السم والموت .

تهنئه لمهارته في ان يحقق الهدف دون ان تكون بصمات القتل ظاهرة.

الفصل الرابع

جريمة الفكر

في الصباح الباكر ، تدوي صفارات الجنود ، والمعتقلون يلتهمون اي شيء وكل شيء فامامهم يوم عمل طويل ومضن وشاق، تعبيد طريق يمتد في قلب الاراضي المستصلحة واشاعة تملأ المكان ، ان عبدالناصر حاضرالى الواحات ، ولا بد من انجاز الطريق في عجلة شديدة ، وضابط العنبر يصرخ من اعماقه ، وكلما صرخ ، يندفع الجنود الى الزنازين يستعجلون الرفاق .

والعربات المكشوفة تنتظرفي الخارج، والمعتقلون يحشرون فيها حشرا، وتنطلق العربات في الصحراء ، في طربق غاية في الوعورة ، وبسرعةينطلق السائق ، ان الضابط يلهبه فكل دقيقة تحتسب عليهم . والهواء البارد يصفر في اذاننا . وفي امتدادات الطريق وتعرجاته يتماسكالمعتقلون بعنف. ويتحولون الى كتلة متماسكة . فالموت يسابق السيارة .

والكتلة المتماسكة خشية السقوط والصقيع تتماوج مع سرعة السيارة المجنونة والحياة بلا ثمن .

والعربة المندفعة تقف فجاة ، وكتلة الاجساد الادمية المصطكة من اعصار الهواء الشديدالبرودة ، تصطدم بجدران السيارة ، ويتساقط منها المعتقلون وصرخات في وجه السائق ، حتى جنود الحراسة يصرخون ،ما هذا الجنون ، والضابط يأمر بعد" المعتقلين ، وتشكيل « المصالب » ـ اي المجموعات ـ للعمل فورا .

لقد حشد كل المعتقلين ، حتى المرضى ، والمصابين بالعاهات ، لكل عمل ، حمل الماء او ادوات الحفر واستصلاح الطريق .

ورغم الاوامر وصرخات الجنود وسيارة الجيب التي تحمل الضابط من

اول الطريق الى اخره ، فالعمل بطيء ، وبطيء عن عمد ، والمرضى قد اراحهم الرفاق بلا عمل ، ومن بعيد يبدو وكأن الطريق يشتعل بحماس التمهيد والتعبيد ، ولكن الفؤوس المرتفعة بعزم في الهواء ،كانت هينة لينة على الارض .

وتمر الايام ويذوب خبر قدوم الرئيس . ففي القاهره ازمة ، والازمة مع امريكا ، والاخبار تترى . الباخرة كليوباطره .

ومن وريقات الصحف التي نعثر عليها في قمامة الاداره والتي نحرص عليها حرصنا على كنز ثمين ، ومن الجرائد المهربة الى داخل السجن ، بدأنا نحدد الحدث ، والموقف المترتب عليه، وتقرر كتابة بيان للحكومة. ان تهديدا استعماريا يواجه بلادنا والاستعمار يضغط لحماية ربيبته اسرائيل والعمل على مشروعية مرور سفنها تحت الحراب الاستعمارية الامريكية في قنال السويس . وكان موقف النظام في مواجهة هذه المعركة موقفا متخاذلا بحق . ولكن بلادنا كانت تتعرض لتهديد استعماري .

وهكذا كتبنا بيانا لعبدالناصر :

« ان ضرب القوى الوطنية الديمقراطية ، قد اضعف قوى النضال الثوري التحريري في بلادنا ، وهذا العامل سيجعل الاستعمار يتمادى في تآمره على استقلال بلادنا ، اننا في هذه الظروف نمد ايدينا الى كل القوى الوطنية الديمقراطية من اجل وحدتها كما نمد ايدينا الى الحكومة كي تأخذ جانب الشعب في معركته ضد الاستعمار .

ان الموقف يستدعي بالضرورة اطلاق سراح المعتقلين فورا ووقف محاكمات الشيوعيين ، واطلاق حرية التنظيم التي بدونها لن تتكتل وتتوحد قوى الشعب المنظم في معركته ضد الاستعمار ، واطلاق حريته في التعبير التي بدونها لن تعبأ القوى الجماهيرية لتتسلح بالوعي في المعركة ضد الاستعمار وقوى الرجعية » .

واوضح البيان ان فهمنا للوحدة الداخلية ، لا ينفصل عن الوحدة العربية وعن التضامن العربي الوثيق على اقل تقدير ، ولهذا فنحن نطالب بوقف الحملات المعادية للعراق ، يجب توحيد قوى النضال العربيةالتحررية في مواجهة الاستعمار . .

واوضح البيان في نهايته بجلاء ان استمرار وضعنا في السجون والمعتقلات واستمرار حرمان شعبنا من حقه في التنظيم والتعبير انما يعطي الاستعماريين كل الفرص للانقضاض على بلادنا واستعادة مواقعهم

في قلب بلادنا .

وتقدم فخري لبيب وثلاثة من المعتقلين لكتابة هذا البيان باسم المعتقلين ، كما تقدم الرفاق النقابيون ليكتبوا الى اتحاد العمال العرب بنفس المعنى السابق .

وحاول الضابط ان يعدل من صيغة البيان على اساس تأييد عبدالناصر ولكن مقدمي البيان اوضحوا باسم الطبقة العاملة وجماهير الشعب اصحاب المعركة الاساسية مع الاستعمار . فاذا حدث تهديد لبلادنا فنحن ندعو الحكومة الى الوقوف الى جانب القوى الوطنية في هذه المعركة المعادية للاستعمار ،كما اعلنوا « اننا نرفض ان تملى علينا اية افكار ، وانه اذا لم يقبل البيان كما هو فلن نرسله » .

وارسل البيان الى عبدالناصر .

كما ارسل عدد من الديمقراطيين بيانات بهذا المعنى ايضا .

وفي المساء استدعاهم قائد المعتقل واعتدى على الاستاذ سعد انائه ، سكرتير تحرير جريدة المساء ، لانه ذكر في بيانه ، انه في بحر الرمال الاصفر يحتجز عبد الناصر اشرف القوى الوطنية الديمقراطية في بلادنا . وكانت حجة القائد « انك مستقل فلماذا تكتب بلغة الشيوعيين » والجهالة العمياء قد حكمت افكار الموظفين الصغار في ادارة المعتقل ، انهم يعتقدون ان شعارات الديمقراطية والوطنية ، تعني الشيوعية ولا غير . كما اعتدي على الصحفي الاستاذ علي الشلفاني المحرر في جريدة المساء ايضا، لان قائد المعتقل يرى في بيانه عدم الاحترام الكافي لرئيس الجمهورية .

وبالضرورة كان على البيان الذي ارسله الاربعة وكل البيانات ان تأخذ مجراها الى رئاسة الجمهورية من خلال مصلحة السجون ، ومرت الايام والاسابيع ويوما ما علم الرفاق بحقيقة رهيبة : لقد اصيب المسؤولون بالذعر والهلع ، وانطلقت نداءات الهاتف الى قائد المعتقل وصرخات اللواء اسماعيل همت ، كيف يوجد معتقلون يتكلمون في السياسة بعد كل الذي حدث معهم؟ وكيف يصل بهم الامر الى مخاطبة رئيس الحكومة بهذه اللهجة ؟ وكيف يتجاسرون على تقديم مطالب للحكومة وكأن بيدهم قوة فرض هذه المطالب ؟ وكيف يحملون الحكومة هذه المسئولية ويقفون منها موقف المحاسب ؟

لقد كان اسماعيل همت يرى في ارسال هذا البيان تمزيقا لخطة القضاء على معنويات المعتقلين ، وتصفيتهم كمفكرين سياسيين وقادة لشعب عريق في النضال الوطني الديمقراطي. لم يكن هذا الرجل الامعة قادرا على

فهم هذا الحدث ، ولا راغبا في فهمه ، كان هنالك شيء واحد يشغل تفكيره ويذهله « انهم ما زالوا يفكرون في السياسة » ووصل الى الحل . واصدر اوامره. قتل الأربعة الذين كتبوا البيان الى رئيس الجمهورية والقيام بمجزرة عارمة ضد كل المعتقلين . ان القتل هو اقصر الطرف كي يكف المعتقلون عن التفكير و « التبجح » .

وجمع قائد المعتقل ضباط السجن ، وابلغهم التعليمات الجديدة، ضرب الاربعة حتى الموت ، والقيام بغارة ساحقة على عنبر المعتقلين . واعترض ضباط السجن على هذا الامر . انها مسئولية خطيرة ، واعلنوا انه اذا كان اسماعيل همت راغبا في تنفيذ هذا الامر فليحضر بنفسه لتنفيذه . انهم ما زالوا يذكرون ١٥ نوفمبر عام ١٩٥٩ وتنصله من المسئولية في الاصابات التي وقعت بين المعتقلين .

واعلن ضابط عنبر المعتقلين : وهو اليوزباشي عبد العال سلومه انه لن ينفذ اوامر همت ، وانه ينفذ فقط اوامر المباحث العامة ، ولو اصدر العقيد حسن المصيلحي له هذا الامر فسينفذه على الفور .

وحاول قائد المعتقل ان يصل الى حل وسط . ان يستدعي ضابط العنبر الاربعة الذين وقعوا البيان الى خارج العنبر . الى حجرة القائد ، ويترك له باقي التصرف ، ولكن ضابط العنبر رفض هذا ايضا ، واعلن ان الحكومة تود معرفة رايهم السياسي وهو يعلم بهذا الامر ، وينفذه .

وحسم الامر عند هذه الحدود ، دون ان يدرك المعتقلون ماذا دار في الخفاء . فقط كان هنالك تشديد اكثر وصراخ اكثر . وعجزت الادارة ان تفعل اكثر من ذلك .

لقد اثار البيان حينذاك حماس كل المعتقلين والمسجونين . حتى الجنود والحراس ، ودحض امام الجميع فرية الناصرية، بان الشيوعيين عملاء، لقد اظهر بجلاء من هم المدافعون بحق عن قضية الشعب ، من هم المناضلون بحق ضد الاستعمار .

وفي ذلك الجو ما كان بمقدور ادارة المعتقل ان تحقق ما تريد او بعض ما تريد ، من تكدير المعتقلين او اذلالهم .

الجزء الرابع

عاصفة على الاوردي

الفصل الأول

« القاتل يهرب »

مضى الان سبعة شهور على وجودنا في معسكر التعذيب بالاوردي : التعذيب اليومي مستمر . والجرعات الاضافية من التعذيب مستمرة ، الثعبان يلف ويدور ، يدخل معركة هنا ومعركة هناك محاولا ارغام رفاق الحزب على الهتاف لعبد الناصر وفي كل مرة يصطدم برفاق يرحبون بالتعذيب ويرفضون الهتاف لجلادهم .

اعضاء المجموعة المنقسمة يحاولون الهرب من التعذيب ، فيخرج بعضهم ليبلغ مأمور السجن انهم يهتفون بحياة الرئيس ، وان اليساريين – اي الحزبيين – هم الذين لا يهتفون ، وادارة السجن لا تلقي لتوسلاتهم بالا ، انهم يهددون في العنابر بابلاغ الادارة عن اسماء الذين لا يهتفون لعبد الناصر ، فلا يقابلون الا بالازدراء .

ما زالت كلمات صاحب « بروميثيوس » محفورة في الذاكرة ، وهو يعاتبهم على هذه التهديدات : « ان الهتاف لعبد الناصر مسألة راي وضمير، ولا يمكن ان تفرضوا على الناس ما تاباه ضمائرهم . »

وظاهرة جديدة في بلادنا ما زالت تتكرر : ان الشيوعيين الذين امضوا مدة العقوبة التي حكم بها عليهم من المحاكم ، يأتون من سجن الواحات الخارجة الى ادارة المباحث العامة في القاهرة ، فتطالبهم بكتابة استنكار للشيوعية ، وتقديم سجل مكتوب عن تاريخ حياتهم واتصالاتهم السياسية، ويرفضون ، فتأتي بهم الى الاوردي . انها لا تكتفي باعتقالهم بعد ان امضى الواحد منهم ثماني سنوات ، او عشرا في منفى الواحات الخارجة بل تاتي بهم الى معسكر التعذيب في الاوردي ، عشرات منهم جاءوا ورتبت لهم الادارة استقبالات خاصة حافلة كثيرا ما كانوا يصلون في منتصف الليل، ونستيقظ

من النوم على صوت الضرب المنهال عليهم وصياح الضابط والجنود وشتائمهم .. عربدة في منتصف الليل ، وكانت صدورنا تمتلىء اعتزازا ونحن نسمع رفاقنا ، برغم ذلك الاستقبال الوحشي ، يردون على الضباط سبابهم .

ما زال صوت احد الرفاق يرن في آذاننا ، عندما جاؤوا به بعد منتصف الليل وكان على راس مستقبليه اليوزباشي يونس مرعي فيصيح بالرفيق : « انت موش عارفني يا واد » ؟ فيرد عليه الرفيق متحديا : « عارفك .. ايه يعني ؟ ضابط بتلات نجوم ؟ » .

ويجن جنون يونس مرعي ويصيح : « ضابط ياابن الكلب » ؟ويرد الرفيق والضربات تنهال عليه : « انت اللي ابن ستين كلب » .

كان عبد الناصر يرفع صوته محتجا على اعتقال الزعيم الكيني (جوموكنياتا) بعد انقضاء مدة عقوبته ، في نفس الوقت الذي كان ياتي فيه بالشيوعيين بعد انقضاء مدد عقوباتهم الى معسكر التعذيب .

رغم كل ذلك الارهاب فالرفاق من داخل العنابر يعملون على رفع الروح المعنوية للمعتقلين ، والابقاء على نشاط الحياة السياسية والفكرية : محاضرات في السياسة والفلسفة والاقتصاد ، ومحاضرات في الآداب والفنون ، وسلسلة كاملة من المحاضرات عن تاريخ مصر السياسي والاقتصادي ، مقتطفات من الاداب العربية والانجليزية والفرنسية والروسية والصينية ، قصائد لشكسبير وبيرون وشيللي وت.س. اليوت واراجون والوار وبابلو نيرودا ودراسات عنها ، نماذج من الدراما الانجليزية واليونانية، واستمع المعتقلون لاسطورتي بروميثيوس وسيزيف .. احتفل المعتقلون بكل المناسبات القومية والعالمية ، ودارت مناقشات مستفيضة حول الخط السياسي للحزب الذي صدر في مايو ١٩٥٩ والذي كان قد وصل الينا ونحن في معتقل العزب .

كان لكل عنبر مجلته الناطقة التي تجري فيها التعليقات السياسية والتعليقات الساخرة من سلوك الضباط والحراس وتقدم فيها مقالات في شتى الموضوعات .

بعثت اغانينا القومية ، لسيد درويش وعبده الحامولي وصالح عبد الحي ، وقام البعض بترديد المواويل الريفية ، وقدم اسكتشات من مسرحنا المصري ، كما كان بعض الرفاق متخصصا في اعادة عرض الافلام السينمائية او المسرحيات او رواية بعض القصص المصرية او الاجنبية .

لقد استمع المعتقلون لروايات « همنغواي » وداعا للسلاح و « لمن

تدق الاجراس » واستمعوا الى الام (لمكسيم جوركي) والى الاحمر والاسود (لستاندال) كما استمعوا الى (روميو وجوليت) و (هاملت) و (ماكبث) لشكسبير ، واستمعوا لثلاثية نجيب محفوظ .

كانوا يعاقبوننا بتشديد النكير علينا في صبيحة اليوم التالي لكل مساء يزخر فيه بمثل ذلك النشاط ، ولكن المتعة التي كان يحصل عليها المعتقلون، كانت تهون الى جانبها جرعات التعذيب الاضافية التي كانوا يتلقونها كعقاب لهم .

وذات يوم بعد الغداء ، في الرابع من يونيو ١٩٦٠ ، استدعينا الى الخارج وصدرت الينا الاوامر ، ان نمهد طريقا بين الاوردي وبين الطريق الرئيسي يبلغ طوله حوالي كيلومتر ، حيث ان الطريق الضيق الذي جئنا عليه من قبل كان مغلقا لاسباب فنية ، لم نفهم بادىء الامر دلالة خاصة لصنع ذلك الطريق ، الا حينما طلبوا منا ان نرسم له حدودا باللون الابيض، وان نحدد منحدراته ومنعطفاته باسهم كبيرة بالحبر الابيض ، هنا ادركنا ان سيارات ما ستأتي ليلا الى الاوردي وانها لا بد ستكون محملة بمعتقلين جدد.

كان لذلك وقع اليم علينا ، فهو يعني اننا سنقضي ساعات نستمع فيها الى عملية استقبال وحشية في الخارج ، كانت التجربة العامة لكل المعتقلين ان المرء لا يؤلمه الضرب الذي ينهال عليه بقدر ما يؤلمه ان يجلس ويسمع صوت الضرب الذي يتعرض له رفيق في الخارج . وحينما كانت تتم عمليات التأديب الجماعية ، لم يكن يؤلمنا الضرب الذي نتعرض له بقدر ما كان يؤلمنا ان نجلس صامتين نستمع لصوت الضرب في العنابر المجاورة . ان المرء يكون مستغرقا تماما في رد الفعل بالنسبة للضربات التي يتلقاها . ويتركز الالم في النطاق الحسي ، ولكن حينما يسمع المرء او يشاهد ضرب رفاقه فانه يكون على درجة عالية من التوتر والتنبه ، ويرى من جلسته الساكنة العملية بكل تفاصيلها وبكل ما فيها من خسة ووحشية ، ان رؤية انسان تجرد من آدميته ، وانطلق بغريزة بهيمية ، يهوي بعصاه على آدمي اخر لا تقل ايلاما عن رؤية رفيق يتالم تحت وطأة التعذيب ورؤية انسان يتحرك آليا ، برد الفعل ، ولا يستطيع ان يدرك ان عصاه الغليظة تهوي على آدمي من دم ولحم وليس على قطعة من صخر ، لا تقل ايلاما للنفس عن رؤية رفيق يتلوى من آثار تلك العصا الغليظة .

ان هذا الجانب من القضية يكشف عن اخبث اساليب التعذيب التي اتبعوها معنا . كانوا دائما يلجأون الى اختيار اثنين او ثلاثة اختيارا عشوائيا

ليعذبوهم امامنا ، وكانوا بذلك يضعون الجماعة كلها في حالة ترقب وقلق ، كانوا يدخلون العنبر المجاور لنا عن اليمين ، ويعملون الضرب في سكانه ، ثم يقتحمون العنبر المجاور لنا عن اليسار ، وينهالون على من فيه ضربا ، وبذلك كانوا على ثقة من انهم قد ضربونا نحن سكان العنبر المتوسط مرتين ، اذ في كل مرة كان الواحد منا في حالة ترقب مستمر يصاحبه نوع من المطابقة ، اي أن يتصور كل منا نفسه مكان المضروبين ويحس فيه كل مرة الضربات التي تنهال على جيواننا وكأنها تهوي على جسده هو .

كما انه من الناحية الاخرى كانت مراقبة عملية التعذيب ، عن كثب تعمق لدى المرء الشعور بمدى الدرك من الهوان الذي انحدرنا اليه وما يترتب على ذلك من شعور طاغ بالمرارة .

كل هذه العوامل كانت خلف ذلك الشعور الاليم المر الذي طغى علينا حينما ادركنا ان دفعة جديدة من المعتقلين قادمة ، وان حفل استقبال جديد سيقام ، ومن ناحية اخرى فان مجيء تلك الدفعة الجديدة يعني ان التعذيب لم يقارب نهايته رغم الشهور السبعة المنصرمة ، وان المدى ما زال طويلا .

اوشك العمل ان ينتهي ، والشمس قد مالت في الغرب ، ولاحت على البعد عربة يجرها ثوران ، اخذت تقترب رويدا رويدا ، حتى اذا ما لاحت فوقها تلك الالة الكريهة التي يسمونها « العروسة » والتي يصلب عليها المعتقلون ليجلدوا وهم عراة ، ساد الصمت ، وخفتت حركتنا ، وشخصت عيوننا للعربة وهي تقترب يحيط بها جو كئيب ، وتنشر في الجو رائحة الموت .. كان صمتنا احتجاجا ، وحركتنا التي سكتت تعبيرا عن السخط، وانتقل ذلك الشعور الكئيب الى الحراس انفسهم فتدلت عصيهم الى جنوبهم، ووقفوا هم الاخرون يرقبون العربة في صمت ، حتى الضابط الثور « عبد اللطيف رشدي » السفاح ، الذي كان متوقعا ان يعلو عواؤه في حفل الاستقبال القادم ، غفل للحظة عن بهيميته ، واستطاعت انسانيته الحبيسة ان تفلت من قيدها للحظات فرنا في صمت هو الاخر لعربة الموت والثيران تقترب بها في خطوات بطيئة بليدة ... جنازة انسان لم يمت بعد .. ولكنها كانت لحظات ، مجرد لحظات ، ثم عادت بهيميته تسيطر عليه فارتفع صراخه الهستيري ، لم ننزعج نحن فقط من صمتنا بصراخه ، ولم يكن الحراس وحدهم هم الذين انزعجوا من هداتهم لذلك الصراخ بل انزعجت له الثيران التي كانت تجر العربة فحثت فجأة في خطوها .. وفزعت طيور كانت تحط على مقربة فطارت بعيدا ..

وعلى صرخات « الضابط الثور» تهاوت عصي الحراس علـى اكتافنا في قسوة غير عادية وكانما لتقدم للضابط اعتذارا عن لحظات المشاركـة الوجدانية التي شاركونا فيها اسانا .

عدنا الى العنابر ، وخيم الوجوم ، وبرغم الاعياء بسبب العمل المتواصل طوال اليوم وبسبب الارهاق النفسي والعصبي ، لم يستطع واحد منا تناول عشائه ، بل ولم يغمض لواحد منا جفن .

وحوالي الثانية عشرة مساء فتحت العنابر واخلوا العنبر رقم (٢) من سكانه ، ووزعوهم على العنابر الاخرى وكانوا ستين رفيقا ، فزاد عدد سكان كل عنبر الى السبعين ، وبلـغ الزحام اشده وصارت مشكلة ان يجد الانسان بوصة يتحرك فيهـا على جنبيه ، كمـا صارت مشكلـة غشيان دورة المياه اكثـر تعقيـدا .

ارتفع صوت البروجي في السابعة صباحا مؤذنا بوصول اللواء اسماعيل همت وارتسمت امارات الحقد على الوجوه، وعلى وجوه اعضاء الجماعـة المنقسمة كانت انفعالات شتى تتعاقب : الحيرة ، والرجاء ، والخوف والقلق، ومنذ الليلـة السابقة وهم يحاولون بث جو من التفاؤل الكاذب : «اننا نؤيـد الرئيس عبدالناصر بلا قيد أو شرط ، ولا يمكـن ان يستقبلوا زملاءنـا كما استقبلونا من قبل ، وانما مجيئهم هنا دليل على ان التعذيب قد انتهى . » كان قد تأكد لدينا من بعض دردشات الحراس ان القادميـن هـم اعضـاء مجموعـة خليل المنقسمة الذيـن حوكموا امام المجلس العسكري الخاص في الاسكندرية ومن بينهم اعضاء لجنتهم المركزية .

ولكن البروجي الذي اعلن وصول « همت » ازال كل ما كان على وجوه اعضاء المجموعة المنقسمة من مشاعر ولم يخلف عليها الا شحوبا كشحوب الموتى ، وفور وصولهم بدأت عمليـة الاستقبال ، على نفس النحو الـذي استقبلنـا به يوم جئنا .. ان المرء لا يستطيع ان يقارن بيـن هول الضرب الذي استقبلت به المجموعـة الجديدة والضرب الذي استقبلنـا به ، فذكرى استقبالنـا وبشاعته قد اذابت فيمـا تلاه من شهور التعذيب المركز. ولكن الاحساس الذي سيطر علينـا جميعـا ونحـن نتابع الضربات المسعورة عند بوابة الاوردي هو ان احدا لا بد سيقتل في عملية الاستقبال تلـك .

وبالفعل لم يكن قد انقضى حوالي ساعتين في عملية الاستقبال حتى سمعنا صوت حشرجـات خلف عنبرنا ، وصوتا اخـر يقول « ده مات يا فندي » . ويا لجبن اللواء همت فعندما انتقلت اليه تلك الكلمات ، توقفت

عملية الاستقبال وادخل الباقون وكانوا حوالي عشرون دون ضرب ، وانطلق صوت البروجي معلنا فرار اللواء همت من مسرح جريمته .

ساد السكوت لساعة ، لم يكن يسمع خلالهـا الا أنات الوافدين الجدد الذيـن تمددوا على ارض العنبر المجاور وقد تمزقت اجسـادهم، وبعد قليل استطاع احدهم ان يفيق من هول عملية الاستقبال وان ياتي الى النافذة ، واستطعنـا ان نعرف اسـم القتيـل .

كان شهدي عطية هو الذي قتل على باب الاوردي . .

وبعد ان مرت مراحل الاستقبال المختلفة وصل الى بوابة الاوردي حيث وقف « الضابط الثور » عبداللطيف رشدي وعصابته ، وتهاوت العصي على جسد « شهدي » الذي كـان قد مزقته الجلدات قبل ذلك بدقائق حينمـا صلب على العروسة بأمر من همت .

وصاح بعبداللطيف : «اسمك ايه » ؟

واجاب شهدي بصوت هادىء « شهدي عطية »

فصاح رشدي : « اسمك ايه ، زعق اوي »

واجاب شهدي في صوت ثابت خافت : « قلت لك اسمي مرة : وانت عارفـه كويس » .

وتدخل الثعبان ، حسن منير ، مأمور السجن ، وقال بصوته الناعم : « اضربه كويس ياعبداللطيف :موش عاوز يقول اسمه : عامل علم ،ابن الـ . . » ونطق سبة في أم الشهيـد .

وزاد عبداللطيف رشدي سعارا تلبية لرغبة سيده ، وزادت كل العصابة المحيطـة بشهدي سعارا ، وسقط شهدي على الارض ، واستمـر الضرب عليه ، وقال الثعبان : « اضربه على بطنه ، وقلبوه على ظهره »،وانهالت العصي على بطنه العاري ، وانهالت الركلات على كل جزء من جسده ، وهمت يبتسم مشجعـا . ثم اوقفوه على قدميه وطلبوا منه ان يسير ، فمضى مترنحـا ومجموعة من الجنود يتابعونه بعصيهم ،حتى وصل خلف العنبر الذي نقيم فيه ، عنبر رقم (٣) فسقط ، ولم تتوقف العصي الا عندمـا بدات تصدر عنه حشرجات الموت واستدعوا الضابط « مرجان » فجاء بجندي له خبـرة بالتمريض امسك بمعصم شهدي وهو راقد على الارض ثم قال :« دا مـات يـا فندي »

انقلبت الادارة علينا بحملة هستيرية تريد اشاعة الارهاب وقمع ايـة محاولات للتمرد ؛ ولكن الامر كـان قد وصل الى درجة لم تعد فيها السيطرة

على الموقف ممكنة فقد انفجر السخط ، وحتى المستقلين الذين كانوا احتياطيا للدعاوى الانهزامية الاستسلامية ، استجابوا لدعوة الحزب للانتقال بالمقاومة الى درجة متقدمة .

بدأت المقاومة باظهار عدم الاحترام للنظام الذي فرضته الأدارة على المعتقل بالارهاب الدموي : العنابر تظل ساهرة الى ساعة متأخرة ،والسكون الذي كان يسود بعد العودة من العمل ، تحول الى مناقشات صاخبة ، وتصدر الرفاق طوابير الانهاك البدني المسماة بطوابير الرياضة وقادوا عملية الجري في بطء شديد ، كل شيء كان يتم في بطء رغم العصي المنهالة على الاكتاف والظهور ، لم يعد الضباط يواجهون منا برؤوس منكسة ولكن بعيون تقدح شررا ، العمل في الجبل ساده التراخي وعدم الاكتراث لانجاز الكميات المقررة يوميا ، ولم يجد اي ارهاب في اعادة القبضة الفولاذية .

تجمع غالبية المعتقلين حول شعار الاضراب عن الطعام بهدف وقف التعذيب والتحقيق في حوادث القتل ،ودارت اتصالات بين قيادة المعتقل الحزبية وقيادة المجموعة المنقسمة التي كانت ضمن الاربعين الجدد الذين وصلوا اخيرا ، للاتفاق على خوض معركة الاضراب معنا ،ولكنهم رفضوا .

كان القتيل هو المتهم الاول في قضية مجموعة خليل التي حوكمت اخيرا امام المحكمة العسكرية العليا الخاصة في الاسكندرية ، وكان قتله يضع السلطات القضائية في مأزق حرج خاصة وان هؤلاء المتهمين مفروض انهم تحت مسئولية المحكمة . وفي نفس الوقت كان خبر اغتيال شهدي قد تسرب الى الخارج ، وارسلت زوجته برقية الى عبدالناصر ، وكان حينئذ في يوغسلافيا تحتج فيها على اغتيال زوجها . وعرف الخبر في جميع انحاء العالم . واراد عبدالناصر ان يغسل يده من دم الشهيد ، وان يصور الامر على انه خطأ لا علاقة له هو به فامر النائب العام باجراء التحقيق.

حضر وكيل النائب العام الى الاوردي للتحقيق ،وازاء السخط المتزايد في صفوف المعتقلين ومظاهر المقاومة المتزايدة ، وما يمكن ان يتسبب عنذلك من تعقيدات في الموقف وما قد يسببه من فضح لسياسة الارهاب الدموية، خاصة وان انظار الرأي العام المحلي والعربي والعالمي كانت مسلطة وقتئذ على الاوردي ، صدرت الاوامر بوقف اي عدوان علينا : لا ضرب ولا اهانات وان يسمح للمعتقلين باستلام طرود بها ادوية من ذويهم ، وبشراء طعام في حدود جنيهين شهريا لكل فرد من مقصف السجن الذي صدر امر

بفتحه في ذلك الوقت .

صرف المعتقلون النظر عن الاضراب عن الطعام ، خاصة وان سياسة التعذيب قد هزمت في جانب هام منها ، هو الضرب والاهانات والتجويع .

واتجه النظر الى توسيع التحقيق في مقتل شهدي عطية حتى يشمل مقتل فريد حداد وعلي متولي الديب وعمليات التعذيب التي جرت طوال الشهور الماضية . حينما بدأ التحقيق طلبنا من اعضاء المجموعة المنقسمة ان يثيروا تلك القضايا مع المحققين ، وان يطلبوا التحقيق فى مقتل فريد حداد وعلي الديب ، وان يطلبوا من رجال النيابة سماع اقوالنا كشهود سمعنا بآذاننا صوت الضرب المنهال على الشهيد شهدي عطية ، كما سمعنا صوت الجندي المرض وهو يبلغ الضابط (مرجان) بان شهدي قد مات ،حيث ان الادارة حاولت نفي التهمة بادعاء ان الشهيد عمد الى الاعتداء على حراسه فضربه الجنود خارج باب الاوردي مما ادى الى موته . وكان استدعاؤنا للشهادة امام المحققين ضمانا لان نثير حوادث القتل الاخرى وعمليات التعذيب .

وتنبهت السلطة الى خطتنا . فعمدت الى تضييق نطاق التحقيق ، وعدم استدعاء احد منا للشهادة ، وساعدها في ذلك موقف اعضاء المجموعة المنقسمة اذ امتنعوا عن طلب اي منا للادلاء باقواله . وبادرنا باعلان سخطنا وبطلب تسجيل اقوالنا في التحقيق ، وازاء الحاحنا ، وروح المقاومة التى كانت تشمها السلطات اضطرت الى استدعاء بعضنا للادلاء بشهادته ،وسجل الذين خرجوا منا كل شيء في محاضر النيابة ، منذ مجيئنا الى الاوردي وحملنا عبدالناصر شخصيا مسئولية كل ما تم .

فماذا كان موقف المجموعة المعادية للحزب ؟

لقد اهتموا قبل كل شيء في اقوالهم امام التحقيق بتأكيد ولائهم للرئيس عبدالناصر وبتبرئته من اي مسؤولية ازاء كل ما حدث ، وقالوا ان المسؤول عن ذلك « عصابة من الضباط برئاسة حسن منير سيطرت على الاوردي لحساب الاستعمار وان هذه العصابة كانت تهدف باساليبها الاستفزازية الى ايقاع الفرقة بين الرئيس عبدالناصر واخلص مؤيديه » .

ان رفاقنا الذين ادلوا بالشهادة امام المحققين حملوا عبدالناصر شخصيا مسئولية ما تم ، واتهموا اللواء اسماعيل همت والصاغ حسن منير ، واليوزباشيين عبداللطيف رشدي ويونس مرعي باعتبارهم ادوات التنفيذ لخطة النظام في التخلص من الشيوعيين والديمقراطيين .. ولكن

النيابة اعتمدت على اقوال المجني عليهم الاساسيين وهم اعضاء المجموعة المنقسمة الذين جاءوا اخيرا الى الاوردي مع الشهيد عطية .وكافاهم عبد الناصر على موقفهم منه في التحقيق ، فاصدر امره بنقلهم فورا الى سجن القناطر حيث يعاملون معاملة عادية في حدود لوائح مصلحة السجون .وكل الذي تم هو نقل اللواء همت من مصلحة السجون ، ونقل الصاغ حسن منير الى وظيفة اعلى ، ورقي اليوزباشي الدموي عبداللطيف رشدي الى رتبة صاغ ونقل من الاوردي الى محافظة اسيوط حيث قتل فيما بعد بظروف غامضة كما اسلفنا .

وحفظت القضية ، وراح دم شهدي ..

الفصل الثاني

الاوردي نظرية

قد لا توجد كلمات تعبر عن مضمون خطة النظام الناصري ازاء الشيوعيين والديمقراطيين ابلغ من هذه العبارة « حياتك او عقيدتك » .

لقد صمموا خطتهم بحيث يصلون في النهاية الى وضع يأملون ان تكون كفة الحياة فيه هي الراجحة في ذلك الاختيار الصعب الذي فرضوه علينا ، وبذلك ــ كما كانوا يأملون ــ يمكن تصفية العقيدة .

ولنتأمل قليلا تلك الخطة حتى نستطيع ان نرى مدى عداء رجال النظام للفكرة ، هذا العداء الذي يجعلهم على استعداد لارتكاب اخس الجرائم .

كان للخطة التي صمموها شقان ، شق بدني ، واخر نفسى .

ففيم كانت تتمثل خطتهم بدنيا ؟

كان الاوردي مكانا معدا لابادة الشيوعيين ، بالقتل المباشر والقتل غير المباشر ، ومن يبق بعد ذلك حيا ، ويصر على التمسك بعقيدته لا يكون من الناحية البدنية قادرا على خدمة عقيدته .

صحيح ان عملية القتل المباشر لم تمارس الا ازاء خمسة من الشهداء هم الرفاق : محمد عثمان ــ في مباحث طنطا ــ مصطفى شوقي البهناوي ــ في ادارة المخابرات ، عبدالتواب جبريل ــ في محافظة القاهرة ، فريد حداد والاستاذ شهدي عطية ــ وقد قتلا على باب الاوردي ــ الا ان حقيقة ما قصد بقتلهما بشكل مباشر بواسطة الضرب هو وضعنا جميعا تحت التهديد المستمر بخطر الموت بضربات مماثلة لتلك التي أودت بحياتهما .

ولكن الابادة الجماعية كان مفروضا ان تتم بالقتل غير المباشر ، أي بالامراض الباطنية حيث لا يثبت التشريح وجود جريمة ما .

كان هذا هو الهدف من عملية الاجهاد غير المعقولة المتمثلة في الضرب

المتواصل والمجهود البدني الذي لا يتوقف : التفتيش الصباحي يعقبه ما يسمى بطابور الرياضة الذي قصد منه ان يبذل الواحد منا في حوالي الساعة مجهودا بدنيا اضعاف اضعاف الطاقة البشرية مما يؤدي الى ما يمكن تسميته بتذويب العضلات . وهنا بالتحديد كانت تكمن الخطورة بالنسبة لكبار السن فالادارة تتفادى مسئولية ما قد يحدث لهم بان توفر عليهم الخروج للعمل في المحاجر ، ولكنها بالاضافة الى الاعمال المرهقة في مرافق السجن ، تعطيهم تلك الجرعة المركزة من المجهود البدني في طابور الرياضة الذي ليس هناك من الناحية الرسمية ما يثبت ممارسته . ويعقب هذا الخروج الى المحاجر محملين طوال الطريق بالاحجار ، ثم العمل المتواصل في المحاجر لمدة اربع ساعات في حمل حجارة البازلت الثقيلة او تكسيرها، او في حمل التراب والجري به ، ثم العودة عدوا من الجبل ، والخروج بعد الغداء لتفريغ القطارات من الحجر الجيري .

يضاف الى ذلك سوء التغذية بدرجة بشعة لا تعوض حتى ولا ربع المجهود الذي يبذله الواحد منا ، فمجموع ما كانت تحتويه وجباتنا اليومية تقل حتى عن ٢٠٠٠ كالوري ، بينما المتوسط المطلوب ٣ الاف كالوري، وفي حالة اشغال شاقة مرهقة كالتي كنا نقوم بها ، لم تكن حاجة المرء تقل عن ٥ الاف كالوري ، مع افتقاد الاطعمة لفيتامين (أ) مما يؤدي الى ضعف البصر وفيتامين ب مما كان يسبب التهابات الجلد واللسان، والحساسية للشمس حينما كانوا يفرضون علينا الجلوس تحت اشعتها المحرقة ورؤوسنا عارية حتى من الشعر الذي كان يقص اولا باول ، كما كان ينتج عنه تنميل الاطراف بسرعة بسبب جلسة القرفصاء المفروضة علينا طوال اقامتنا في العنابر الى وقت النوم ، كما كانوا يفرضون علينا الجلوس مرتكزين فقط على امشاط الاقدام نصف ساعة او يزيد يوميا اثناء الاستعداد للذهاب الى العمل . وكان نقص الفيتامين جـ يتسبب في تأخر التئام ابسط الجروح التي كنا نصاب بها ، فتتقيح وتظل مدة طويلة مصدرا للالم . كما تتسبب عنه التهابات اللثة وعدم القدرة على مقاومة البرد والانفلونزا . وقد ادى افتقاد فيتامين د الى تآكل اسناننا جميعا وتلفها . بالاضافة الى انعدام اصناف الطعام ذات الالياف والخضروات والفواكه تماما .

كان اهمال العلاج سلاحا اخر ، فالمرضى يتركون لتفتك بهم الامراض لم تزور تذاكر طبية تفيد صرف العلاج لهم ، كما حدث في حالة الرفيقين الشهيدين علي متولي الديب ، ورشدي خليل ، والحالات الطارئة كالتهاب

الزائدة الدودية لا تنقل الى المستشفى لاستئصالها .

لقد كان حسن الحظ وحده هو الذي جنبنا الوقوع فريسة للحمى الشوكية ، ففي يناير ١٩٦٠ ظهرت حالات من هذه الحمى الوبائية بين جنود الكتيبة المكلفة بحراسة السجن وكل ما اتخذته الادارة من اجراءات لتفادي اية مسؤولية اذا ما امتد الوباء الينا هو وقف الخروج للعمل في المحاجر مع استمرار عمليات التعذيب البدني داخل الاوردي وبشكل اكثر تركيزا ، وواجهت الادارة الحاحنا في طلب اقراص السلفا لتحصين اجسادنا ضد المرض بالامعان في التنكيل بنا .

ان التقدير الطبي لمدى ما كان يمكن ان نصاب به من خسائر لو استمر الاوردي بضعة شهور اخرى هو عشرات الوفيات خاصة بين اولئك المصابين بامراض القلب والصدر وكبار السن . لقد كان نقل عدد كبير من المعتقلين الذين لم يعتادوا العمل البدني الشاق الى ذلك المستوى من الارهاق البدني كفيلا بتدهور قواهم الجسمانية الى اقصى الحدود . ان نقص الوزن بشكل خطير كان احد مقومات الحصاد الذي كان رجال النظام يطمحون اليه .

اما الشق النفسي من الخطة فيمكن ان نلخصه في انهم كانوا يتعمدون وضعنا في نوع من الحياة يتوفر فيه الاساس العام للمرض العقلي .

ان الانسان ينتقل من الطفولة الى المراهقة ،حيث يكون عليه ان يلائم بين ذاته وبين المجتمع بقيمه وتقاليده ونظمه ملاءمة صحية ، واولئك الذين لا يستطيعون التوصل الى تلك الملاءمة وتصطدم ذواتهم بالمجتمع ، فيحسبون للمجتمع ولتقاليده ونظمه عبئا شديد الوطأة على « ذواتهم » يجدون انفسهم امام اختيار بين ذاتهم وبين المجتمع ، فيحلون ذلك التناقض بطريقة غير ارادية ، باسقاط المجتمع وقيمه وتقاليده ونظمه ، بالهروب من المسئولية الاجتماعية التي يفرضها النضج الزمني والوجداني والحضاري وذلك بالنكوص الى مرحلة الطفولة حيث لا يكون الوعي الاجتماعي هو الذي يحكم السلوك وانما الذات بغرائزها ونوازعها البدائية .

ان ما كانوا يهدفون اليه بالتحديد بالنسبة لنا هو نوع من ذلك النكوص الى حالة نفسية تتحكم فيها الذات بغرائزها واساسا حب البقاء .

كانت الخطة هي تعريض المعتقلين لعبء حاد ، وترويضهم بالعنف على نوع من الحياة الحيوانية تتعطل فيها النشاطات العليا للانسان متمثلة في

الفكر والارادة . وتنشط فيهـا فقط النشـاطات الدنيا متمثلة في الغرائـز واساسا الخوف والجوع وحب البقاء .. واعتمدت تلـك الخطة على عوامل شتى ، تعمل عملها على ارضية من محو كل علاقة للانسان بالمدنية : فنحـن معزولون تمامـا عن الحياة : لا زيارة من الاهل ولا اذاعة ، لا كتـاب ، ولا خطاب ، لا نرى الا بعضنا البعض والا السجانة وجدران السجن ، والارض السوداء التي محظور علينـا ان نرفع اعيننا عنها ، وصخور البازلتالقائمة. ان المخ محروم تمامـا من اي مثير يدفعه الى النشاط والتفكير . وفيالمقابل لا ينشط المخ الا في اتجاه واحد فقط : هـو الشعور بالالـم المتولد عـن الضرب المتواصل والايذاء المستمر .. ولا يسيطر على المرء الا التفكير فـي محاولة تفادي الالم ، والخوف من الموت بسبب الضرب الذي ادى الى موت فريد حداد والذي يمكـن ان يؤدي الى موت اي واحد فينا ، خاصة وهنـاك اثنـان يعربدان بعصيهمـا : بونس مرعي وضرباته الرعناء على الرؤوس ، والاومباشي ضعيف البصر عبدالحليم . الذي يوكلون اليـه ضربنا بعصاه الغليظة اثناء التفتيش الصباحي فيضرب ضربا عشوائيا ، علـى الرقبة بشكل خاص ، ضربات تسري لها الرعشة في كل اجزاء الجسم ويفقد الانساء معها التحكم في حركات اطرافه .

وللخوف من الموت دوافع اخرى كتعريضنا للمخاطر عندما يدفعوننـا الى العمل تحت صخرة كبيرة آيلـة للسقوط ، او تكسير الحجارة فياماكن خطرة ، وكثيرا ما اصيب منـا زملاء باصابات بالغـة اثناء تلك العمليات .

ثم حالة الترقب الدائمة التي ينحصر فيها نشاط الانسان في احتمالات الاذى نتيجـة لعمليات الانتقاء العفوي للبعض منا وضربهم ضربا مبرحا .

ان هذا العناء المستمر الذي كنا نتعرض له مفروض الا يسمح لنا باي نوع من النشاط الا في حدود نشاط غرائز الاكل والافراز والخوف .

ويلي ذلك ايحاء دؤوب للمعتقلين بانهم اشبه بالحيوانات فالعصا المشهرة دائما تجعل المرء لا يرى نفسه الا في صورة الحيوان الممقوت الذي لا يعامل الا بالعصا .

ان الحراس المباشرين الذين يصطفون جميعا حولنا يحملون عصيا غليظة، وحينما نتجمع في الجبل قبل توزيع العمل ،او للتمام وسط العمـل ، او حينمـا نتجمع للانصراف بعد انتهاء العمل ، ففي كل مرة من هـذه المرات

مفروض ان ننصرف بسرعة والعصي تنهال علينا .

ان الضباط يصرون ان نتفرق بسرعة وتحت ضربات العصي كما تقفز الارانب اذا فاجأتها في حظيرتها . كان رفاقنا ينصرفون في هدوء محاذرين الاصطدام بعضهم ببعض او الدوس على من يسقط ارضا ، فيصر انضباط على تكرار عملية الجمع والانصراف مرارا حتى يطمئنوا الى ان روح الحيوانات الفزعة قد سادت ، وكانوا ينتفمون بشكل رهيب اذا لم تتم الامور بالصورة المطلوبة .

اما تناول الطعام فكان مصمما بحيث ينحني الواحد منا ليختطف وعاءه وهو يجري والعصي تطارده تماما كما يجري الكلب بعد اختطافه قطعة لحم .

والمعيشة داخل العنبر هي اشبه شيء بالحياة في حظائر الماشية ،فكل منا عليه ان يلزم مكانه كالماشية المربوطة ، ودورة المياه نغشاها حفاة ، وليس هناك ماء للنظافة بعد قضاء الحاجة ، وليس هناك صابون لغسيل الآنية بعد الاكل لنتسلم فيها الوجبة التالية . والجوع يحول موقفنا من الاكل الى موقف غريزي بحت ، فنحن نلتهم الطعام بما يحمله من اتربة وبما يتساقط فيه من ذباب وحشرات ، وبما يلقونه فيه عمدا من سولار وفنيك .

واشكالنا المزرية .. ذقوننا غير الحليقة ، رائحة الافواه الكريهة لعدم وجود الصابون ، وملابسنا القذرة ، واجسادنا التي تتراكم عليها الاتربةطوال الاسبوع لتمتزج بالعرق المتصبب طوال اليوم ، والبق والقمل والباعوض ، كلها اشياء تدفع المرء الى ان يسقط كل القيم الاجتماعية والاحاسيس المدنية التي تربت فيه ، وينكص الى حالة حيوانية شرسة ليلائم نفسه بتلك البيئة المليئة بالمنغصات . ان تلك الحالة الحيوانية الشرسة هي التى تجعل سكان العنبر يعالجون الاخطاء الصغيرة بشراسة وحدة .

وتلي ذلك عملية الاذلال ومحو كل آثار للاعتداد والكرامة والثقة التي تتكون للانسان الراقي المفكر : فالرأس مفروض ان يكون دائما مطأطأ ، ومخاطبة حتى اقل الحراس شأنا بكلمة « افندم » وانت ملغى كانسان ، لا تخاطبه الادارة في اي امر ،وغير مسموح لك بمخاطبتها في امر ، واحيانا يستدعي الضباط احد الرفاق ليتحدثوا معه من باب ازجاء الفراغ او التسلية ، ومفروض ان يقف هو ليستمع ولا يحق له التعقيب الا بعبارة «ايوه يافندم » فاذا صدرت عنه كلمة تحمل طابع التمدن ، كأن يقول « طبعا » او « محتمل » فالويل له اذ يصرخ الضابط : «انتبتتكلم افرنجي،ياابنالكلب »

وينهال بالضرب عليـه .

واحيانا كان يخرج بعض المنهارين من غير السياسيين ليبلغوا الضابط استعدادهم لاستنكار الشيوعية فيصرخ فيهم .. استنكار ايه يا ابن الكلب، احنـا عاوزينكم تموتوا .

وتصل عملية الاذلال الى قمتها : الركوع المادي والركوع السياسي فالتفتيش الصباحي مفروض فيه انـه اذا ما فتح الباب وصاح الصول : « تفتيش » ان نركع جميعا ووجوهنـا الى الحائط ، وهذا هـو الركـوع المـادي .

اما الركوع السياسي فكان هـو المقصود بمحاولة اجبارنا على الهتاف لعبدالناصر ،وكل ما نعانيه يتم باوامر منه ..

ولكن قمة الاذلال التي ما بعدها قمة حقا ، كانت في اجبارنا علـى ان نمهد الطريق الذي سار فيه شهدي الى الموت . وان نفرش الارض التـي سار عليها فامامه اللواء« همت » بالرمل الاحمر ، وان نطلي الاشجار التـي تحف بطريقه باللون الابيض .

كل هذا كان مقصودا به ان يهرب الانسـان من عناء التناقض بين السلوك الحيواني الغريزي المفروض علينا ، وبين السلوك الحضاري .. بين المستوى من الهوان الذي انحدرنـا اليه وقيمنـا كأصحاب عقيدة تملأنا اعتداداوثقة، وان يكون ذلك الهروب بان يسقط الانسـان سلوكـه الحضاري وان يسقط عقيدته بالنكوص الى حالة بدائيـة لا فكر فيهـا ولا قيم .. لا مدنيـة ولا عقيدة ، ولكن مجرد غريزة .. وغريزة فقط .. ليس فيها ضمير يتألم ، ولا كرامة تجرح ، وانمـا بهيمية سائمة .

كانت الخطة النفسية في الاوردي تعتمد فيما تعتمد عليه على النظرية السلوكية الجديدة المنتشرة في الولايات المتحدة ، والتي لا تـرى السلـوك الانساني الا مجرد عمليات من رد الفعل المنعكس الشرطي .

وعلى اساس من تلك النظرية كان المقصود بالتعذيب في الاوردي هو تمزيق كل الروابط النفسية التي تمثل ما اكتسبه الانسان من عـــادات اجتماعيةجديدة له تجعله طوع بنان الحاكمين . وعليه فقد بداوا تحت وطاة الارهاب تدريبنا على عادات جديدة تعتمد كلهـا علـى رد الفعـــل المنعكس الشرطي : فاستجابة لصفارة الصول علينـا ان نجلس القرفصاء ،واستجابة

لصفارة اخرى ، علينا ان ننتفض واقفيـن وتتكرر تلـك العملية ومثيلاتهـا بسرعة غريبة ، عشرات المرات، وغالبا ما يكون ذلك قبل ان يسال الصول : « في هنا حد شيوعي » والمفروض انه كان يتوقع في غمرة المزاج الانـي ان يجيب الانسان على سؤاله بطريقة آلية : « لا يا فندم » . كل ذلك كـان اعدادا للمعتقليـن لكي يتصرفوا بشكل آلي في اللحظة النهائية التي يريدون فيهـا تصفيتهم كسياسيين ، حتى يطيع الواحد منهم بشكل آلي الامر الذي يصدر اليه : استنكر .. اعترف .

خطة شيطانية محكمة ، آتت نتائجها البدنية ، فقد نقص وزن كل منـا لدرجـة مخيفة ، وما زالت الامراض تفتك بنا حتى اليوم : السل ، المسالك البولية ، الروماتزم ، امراض العيون ، المغص الكلوي ، القرح المعدية التـي نتجت اساسا من اصطحاب تناول الطعام بالضرب وما يسببه ذلك من تهيج العصبب الحائر . الاسنان تآكلت ، والبيوريا تفتك باللثة ، والذبحةالصدرية تهدد الكثيرين ، ومات بهـا الرفيق شعبان حافظ ، وعديد من الرفـاق اصيبوا بالتسمم البولي،ومات به الرفيق حسب الله علي مرسي . سرطـان المسالك البولية ومات به « علي زهران » : ستة اصيبوا بالجنون ، وثلاثـة حاولوا الانتحار بقطع الشراييـن ،وعشرات في حالة صحية متدهورة ،تأجلت نهايتهم فقط بسبب اغلاق الاوردي قبل الموعد الذي كان محددا له .

ولكن كعب اخيل ، نقطة الضعف الوحيدة في تلك الخطة هي ان رجال النظام الناصري نسوا انهم كانوا يطبقونها على شيوعييـن . فلقد كـان لنا نحن ايضا خطتنا المضادة . كان الاساس في خطتنا هـو تماسك التنظيـم الحزبـي .

فلقد كانوا يهدفون الى تحلل التنظيم ، وذلك بارهاقنا طوال النهـار حتى ننـام منهكيـن فور اغلاق الابواب في السادسة مساء ، والاوامـر المشددة بان يلزم كل مكانه اثناء تواجدنا بالعنبر ، وعدم جلوس اثنين اوثلاثة معا ، وعدم الحركة ،وعدم الكلام ، والتجسس الدائم علينـا من النوافـذ ومن ثقب الباب ، ولكن كل ذلك لم يمنع انتظام الرفاق في وحداتهم الحزبية، وكانت الاجتماعاته تتم في دورة المياه وفي المكان المخصص لحفظ القمامة . واتصلت الاقسام الحزبية في كافة العنابر بشبكة اتصال محكمة ، واستطعنا من وقت لاخر الحصول على الاخبار السياسية من الخـارج ، كانت تصدر التعليقات الحزبيـة عليها ، من قيادة الحزب بالمعتقل ، وفتحت المناقشات السياسية حول خطة الحزب (١) . كما كان هناك ضمان لوصول التعليمـات الحزبيـة لكافـة العنابر في وقت واحد ، حتى يتسنى للرفاق انيتصرفوا

كتيبة واحـدة . ثم تتشعب الخطة بعد ذلك :

فاولا : هناك مقاومة لخطـة محو العقل ، يوم الجمعة في كل عنبر هو يوم الصحافة تصدر بكل عنبر مجلة ناطقة تقدم تحليلات سياسية ونصائح طبيـة تقلل من مخاطر الحياة التي نعيشها وموضوعات اقتصادية واجتماعية واخرى ادبيـة وكاريكتيرات ناطقة وفكاهات . في عنبر واحد كانت تصدر مجلة « دوغري » ومجلة « الدبورة » في عنبر(٢) ، وتلفزيون عنبر (٣)،ومجلة « التشوينة » في عنبر (٥) و « الفلكة » في عنبر (٦) .

ويلاحظ ان المجلات اتخذت لها اسماء من بين الكلمـات التـي كانت تتكرر يوميا ، فكلمة «دوغري» معناها قف ، والدبورة هـي قضيب مدبب من الصلب يستخدم لاحداث ثقوب في الصخور توضـع فيهـا المتفجرات لتفتيتها ، والتشوينة هي كومة البازلت الكبيرة بعد تكسيره ، والفلكة هـي الاداة التي كانت ترفع بها اقدامنا للضرب .

وفي المسـاء كانت هناك نواد مختلفة .نادي السينما في عنبر (٢)،ونادي القصة في عنبر (٣) ونادى الرواية في عنبر (٦) كما كان لكـل عنبر لجنتـه الثقافيـة .. كان هناك غذاء للعقل تقدمه كل تلك التشكيلات .

كانوا يضربوننا ضربا مبرحا في صباح اليوم التالي عقابا على سهرنـا نسمع قصة او محاضرة ، او نحتفل باحدى المناسبات كعيد النصر ، او راس السنة او ذكرى شهيـد او عيد الحزب او عيد اول مايـو او عيـد ميـلاد رفيق .. ولقد تم الاحتفال بعيد الام في الثامن من مارس احتفالا عاطفيـا جياشا ، ارتفعت فيه الاغاني التي تعبر عن اجمل المشاعر للام وغنى رفيق لنـا اغنيـة كتبهـا ولحنها واحد منـا بهذه المناسبة :

لا تحزني يا زوجتي .. يا ام طفلي .

وفي الصباح التالي تعرض عنبرنا للمذبحة ، ولكن كان يهون العقاب ازاء

---

(١) الحق ان ذلك كان امرا غريبا ، فبدلا من ان تفكر اللجنة المركزية في خطـة لمواجهـة حملة التعذيب المتصاعدة اذا بقسم منهـا يتزعمه اسماعيل صبري عبدالله يهاجم خطةالحزب، ويتهمها باليسارية ، وبالخروج على مـا كانت اللجنـة المركزية قد اجمعت عليه من ان نظـام عبدالناصر يمثل البرجوازيـة الوطنية ، وطالبت هذه المجموعة بفتح صراع فكري حول خطـة الحزب ـ تحت التعذيب !! ـ والارجح ان الجانب الاخر في اللجنـة المركزية رحب بهذا الطلب لانه يوفـر عليـه مسئوليـة التصدي لعمليـة التعذيب ، ويشغـل الرفاق منهـا بهـذه المنـاقشات .

ما نحس به من تجدد الحيوية بعد كل ليلة من تلك الليالي، فلقد كانت خطتنا هي ان نحول دون النكوص عن المكتسبات الفكرية والحضارية ، وذلـــك بتغذيتهـا قدر الامكـان والابقاء على القيم الخاصة بالانسان حية في وعيه.

ثانيا: كان اي نصر نحرزه على الادارة ، مهمـا كان جزئيا ، ينعش الروح بدرجـة غير متصورة ، اذ من المهم ان يشعر المعتقلون انه بالامكان هزيمـة العدو ولو في معارك صغيرة ، وانه بالامكـان ان نشـعـر من حين لاخر اننا منتصرون فذلك يحفظ على الرفاق طبيعة المقاتل :

فتقديم نصف الكمية المطلوبة من البازلت والاصرار على الا تزيـد رغـم ما صاحب ذلك من اعمال انتقاميـة ثم رضوخ الادارة لهذا الوضع ،ومساعدة الرفاق العاجزيـن عن العمل رغم ان ذلك كان محرمـا ، ورفض ترديـد الاناشيد التي تمجد عبدالناصر وتصدي الرفاق في الصفوف الامامية ،ورفض الهتاف لعبدالناصر فـي تحد ، والمقاومة الباسلـة التي ابداها رفـاق انتقوهم للتعذيب الفردي في محاولة لارغامهم علـى الهتاف لعبدالناصر ، ورفض الاجابة على سؤال الصول: « في هنا حد شيوعي » والادارة تصر على انه اذا تحدث اليها عـن شيء فليتحدث عن نفسه فقط ، ونحن نصر على ان يخرج اليها مندوب تلو الاخـر يتحدث بأسمنا جميعا مقدمـا الاحتجاج على تلك المعاملة رغم ما يتعرض له بسبب ذلك من الحجـز في زنزانة انفراديـة ومعاناة التعذيب الفردي لمدة اسبوع او عشرة ايام .. كل هذه المعارك التي هزمت فيها الادارة كانت تبقي الرفاق في درجـة عاليـة مـن النضاليـة وروح القتـال .

ثالثا: كانت خطتنا تهدف الى التحقير من شأن خصومنا ووضعهـم موضع السخرية دائمـا : فمأمور السجن اسمه فيما بيننا « الست صاحبة الشغل » وهو لقب يطلق على النساء اللاتي يدرن بيوتا مشبوهة ، وعبـد اللطيف رشدي اسمـه « صبي الست » ويونس مرعـي اسمه « ننس » والضابط سيد منصور الذي لم يكف عـن استعراضاته على ظهر حصانـه ومسدسه يتدلى من حزام وسطه مقلدا رعاة البقر كـان اسمه « فارس بني زعبل » اما الضابط مورجان فكـان مجرد اسمه يثير الضحك فهـو دائـم التلعثم ، دائم الاضطراب ، بليد وبطيء الفهم ، ومن نوادره التي كانت تثيـر ضحكنا انه دخل العنبر يوما وقال : « اللي عنده جوابات وموش عايز يكتب امانات يرفع ايده » وبالكاد كتم الرفاق عاصفة من الضحك من ان تنطلق. كان طبعا يريد ان يقول : « اللي عنده امانات وعايز يكتب جوابات » .. كانت بلادته

وبطء فهمه يوقعانه دائما في ازمات ، وكان يعود علينا مسقطا كل ازمته النفسية على اجسادنا المسكينة . وكان هناك الامباشي عبدالحليم ذو النظر الضعيف الذي كانوا يطلقونه علينا ليضرب ضرباته العشواء . كان اسمه فيما بيننا الشاويش « عوكل » وهو اسم يرمز الى جندي البوليس المجرد من اي ذكاء ؛ كان « عوكل » هذا يطرب لمديح الضباط له اذا ما قست ضرباته علينا واخطر ما في الامر انه كان يضرب ونحن في الجبل وعينه على الضباط الجالسين بعيدا ليتأكد من انهم يشاهدون نشاطه مما كان يهدد بان تقع ضربته موقعا قاتلا ومرة نبهه احد الرفاق وهو منهمك في الضرب الى ان الضباط غير ملتفتين اليه فرمى بعصاه غاضبا ، واختطفها رفيق من الارض وسلمها لاخر فاخر حتى اختفت العصا وبعد ذلك اخذ عوكل يبحث عن العصا في جنون وسط ضحكاتنا المكتومة .

اما « الفيلد مارشال » فهو عسكري من الصعيد مفتول الشاربين طويل القامة . امي لا يقرا ولا يكتب ، كان يشمخ بقامته ويرفع يده الى شاربيه ليفتلهما ثم ينادي الواحد منا « يا غبي ! » .

ولعله من الطريف ان هذا العسكري كان مكلفا بحراسة عنبر (٣)وذات يوم انتظمت خطوات الرفاق العسكرية بدرجة ملحوظة اثناء الطابور العسكري فالتفت الصول اليه قائلا : «عنبرك دا كويس ياعبدالصادق » فانتفخت اوداج عبدالصادق ومن يومها وهو لا يفتأ يفتل شاربيه ويفاخر زملاءه الحراس قائلا :« عنبري اجدع عنبر » واذا ما كانت هناك مخالفات في العنبر كالسهر ليلا . او ارتفاع الصوت او التقصير في العمل ؛ ويثور « الفيلد مارشال » فالكلمة السحرية التي تهدىء من ثائرته : « دا عنبرك يا فندم » . حينئذ يزوم قائلا : « آه يا مكارين » حينما كان يصيح الضابط ونحن في الجبل « جرى ايه ، يا عبدالصادق ، عصايتك مابتشتغلش ليه ؟ » كان هذا ينطلق بعصاه على ظهور المعتقلين . . ولكن من سكان عنبر اخر ، ورغم ايلام ضرباته الا ان سلوكه في حد ذاته كان يبعث على الضحك ، ثم يعود الى فرقته ليقول وهو يفتل شاربيه :«ها مبسوطين كده ». كان اذا نقل للحراسة على عنبر اخر ، يحاول الرفاق هنالك استخدام الكلمة السحرية معه قائلين « داعنبرك يا فندم » فيقول لهم في صرامة « لا عنبري هو عنبر (٣) » . ان سكان عنبر (٣) سيظلون يذكرون له ، كم تدخل لدى حراسهم الاخرين ليخفف عنهم الاذى ،وكم بكى هذا العملاق الصعيدي وهو يودعنا محتضنا كل واحد منا يوم غادرنا الاوردي .

ويوم ١٢ يناير كان يوما مشهودا ، لقد فوجئت الادارة بان اولئك الاربعمائة الذين كانت تعتقد انها قد احالتهم الى مخلوقات كسيرة تعسة ما زال في داخلهم وتحت ذلك المظهر الذي يحمل كل سمات الهوان ، روح مرحة عالية ، كان الصول « مطاوع » وهو المكلف بقيادة طابور التمام في اخر اليوم ، قد قام في اجازة وحسب النظام العسكري ، مفروض ان يحل محله اقدم سجان من ناحية مدة الخدمة ، وكان هذا هو الشاويش « عبدالحليم » ـ عوكل ـ فاخذ مكانه امام الطابور ثم نادى « صفا .. انتباه » وكررها تلاثا وعدل وضع القايس (الحزام) على كرشه الكبير ثم رفع يده الى جبهته مؤديا التحية العسكرية ، وفتح فاه ليردد الهتاف واذا بلسانه يتلعثم فيقول « اتحيا الجمـ .. جمـ .. جمـ .. » لم يستطع ان ينطق بكلمة الجمهورية العربية المتحدة الا بمشقة كبيرة وحتى حينما نطقها اخيرا اذا بها « الجمهورية العربية الملتحدة » وهذا هو غاية فهمه للامور .. وضج الطابور بالضحك ..

صحيح انهم انتقموا منا انتقاما رهيبا لاننا ما زلنا آدميين نضحك للنكتة ، ولكنه كان يوما مشهودا امدنا بمادة غنية للفكاهة عن طبيعة النظام الذي يحكمنا .

الفصل الثالث

خرجنا من القصب

خرجنا من القصب

سكون تام ، وكل منا يلتمس ثقبا او فرجة في الستائر الكثيفة التي تغطي السيارة محاولا ان يتبين معالم الطريق الذي نسير فيه ، وما كادت السيارة تخرج الى الطريق الرئيسي ويحمل الينا نسيم رائحة المانجو من البساتين الممتدة على طول الطريق حتى صحنا جميعا في صوت واحد « خرجنا من القصب » . وضحكنا جميعا ، فلم نكن نتصور ان تكون هناك مثل تلك الوحدة في التعبير عن دلالة خروجنا من الاوردي .

ففي ذلك اليوم ، الخامس عشر من يوليو ١٩٦٠ ونحن على وشك الخروج الى المحاجر في الجبل ، وصلت رسالة الى السجن بقائمة تحوي اسماء مائة وعشرين معتقلا ، نودي عليهم ، وصدرت اليهم التعليمات بجمع حاجياتهم والخروج بها الى فناء السجن ، فطوى كل منا بطانيته ، وآنية الطعام ، وملابس السجن في الحصيرة وسرت همهمات وتوقعات ، ثم جاء كاتب السجن ، ففتح المخزن وسلم كلا منا حقيبته التي تحوي ملابسه وحاجياته المدنية . ووقعنا في دفتر السجن على استلامنا لتلك الاشياء : نظرا لترحيلنا الى سجن القناطر الخيرية . عمت المعتقلين موجة من الدردشات حول ذلك النقل الفجائي وماذا عسى ان تكون دلالته ، الا انه ما من احد خطر له ان هناك احتمالا بان يكون الافراج هو الخطوة التالية ،حتى اعضاء المجموعة المتقسمة لم يستطيعوا ابدا ان ينطقوا بتلك الكلمة التي ظلت تراودهم منذ اول يوم في المعتقل . انتظرنا ان يطلبوا منا تسليم مهمات السجن وملابسه وبطاطينه وكلها سلموها لنا يوم دخولنا الاوردي، وان يسمحوا لنا بارتداء ملابسنا المدنية ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ،

وعندما بدأ النهار يقترب من نهايته دون ان يطلبوا منا تسليم ملابس السجن ومهماته ، بدأت الحيرة تأخذ بنفوسنا ، هل سيتم ترحيلنا هكـذا بملابس السجن ، حفاة يحمل كل منا بطانيته ملفوفة في البرش ؟ ان شيئا من ذلك لم يتم ابدا ، في يوم مـن الايام . وهل سجن القناطر تنقصه مثل تلـك المهمـات ؟

وعندما وزعوا على كل منا ستة ارغفة ، اي خبز يومين ، اتضح الموقف تماما .. فالمسافة بين الاوردي وسجن القناطر لا تتعدى ساعتين بالسيارة ولا نحتاج الى هذا الخبز ... لقد سجلوا في دفتر السجن اننا مرحلـون الى سجن القناطر ، وتعمدوا ان نرى ذلك ونحن نوقع على استلام ملابسنا حتى لا يحدث تمرد يشاركنا فيه الثلثمائة معتقل الاخرون الذين سيبقون في الاوردي ، اذا ما علمنا بالجهة التي نحن مرحلون اليها حقيقة ... ان الستة ارغفة التي وزعوها على كـل منا كانت تعني ان الرحلة التي نحن مقدمون عليها ستستغرق يومين ، وترحيلنا بمهام السجن ، كان يعني اننا ذاهبون ـ هكذا استنتجنا في البداية ـ الى معتقل انشيء حديثـا . هل سيكون ذلك هو معتقل الطور في جنوب سيناء ؟

ولكن عندما هدأت الحركة في السجن واغلقت العنابر نهائيـا بعـد الغروب وظللنا وحدنا مع السجانة في الفناء بعيدا عن رقابة الضباط، ابلغنا هؤلاء السجانة اننا مرحلون الى سجن الواحات الخارجة .

كان الرفاق الذين امضوا مدد عقوبتهم التي حكم عليهم بها ثم اتت بهم المباحث الى الاوردي حينما رفضوا استنكار الشيوعية قد قصوا علينـا ، كيف ذهب « همت » الى الواحات بعد اسبوع من استقبال ٩ نوفمبر فـي الاوردي . وصنع نفس الشيء برفاقنا المعتقلين هناك ، ولم تكن لدينا ادنى فكرة عما تطور اليه الموقف في الواحات . وقررنا الا نؤخذ على غفلة في تلك المرة ، واعددنا عدتنا للمقاومة ورد اي اعتداء قد يكون معدا لنا هناك .

كانت اللحظات الاخيرة في الاوردي لحظات مليئة بكل ما هو انساني في طباع شعبنا ، اولئك السجانـة الذين كانوا بالامس القـريب يحملون العصي الغليظة وينهالون بهـا علينا ، الذين كانـوا ينطلقون علينـا كالكلاب المسعورة لدى اية اشارة من احد الضباط ، الذين لم يتركوا واحدا منا دون ان يصيبوه بجرح او كسر ، هؤلاء الرجال الذين كانوا يبدون بالامس القريب وكانهم وحوش ضارية ، اخذوا جميعا ، بما في ذلك اكثرهم غلظة وقسوة، يبكون ويحتضنوننا ، ويطلبون منا الغفران عما بدر منهم ، ويلعنون ظروف

حياتهم التي لم تسمح بفرصة الحصول على قوتهم الا من تلك المهنة القذرة، ان اي تردد منهم ، او تراخ في تنفيذ التعليمات التي كانت لديهم باستخدام اقصى درجات القسوة ، كان يعني العقاب الشديد ، ليس فقط مجرد خصم عشرة ايام او خمسة عشر يوما من راتبهم الهزيل ، بل كانوا دائما يهددونهم بان اعين المباحث العامة عليهم ، وان اي تهاون مع المعتقلين يعني التعاطف معهم ، وان الدولة لا تعادي الشيوعيين بل تعادي ايضا من يتعاطف معهم . وكان المساكين يرتعدون لذلك التهديد ، فهم يرون باعينهم ان بيننا عددا كبيرا لا صلة له بالشيوعية ولا حتى بالسياسة بل ويرون ايضا ضباط جيش سابقين ، فلم يكونوا ليستبعدوا ، ان بدر تقصير من احدهم ان يتهم بالتعاطف معنا ، ثم ينضم الينا : على حد تعبيرهم .

لقد اقسم الكثيرون منهم لنا انهم لم يكونوا يستطيعون تناول طعامهم حينما يجلسون بين ابنائهم وزوجاتهم لغداء او عشاء ، ثم يتذكر ان النقود التي اشترى بها ذلك الطعام قد حصل عليها مقابل ضربنا ...

وحينما نودي علينا لركوب السيارات التي سنرحل بها ، لم يعبأوا بوجود الضباط ومامور السجن واخذوا يشدون على ايدينا ويطلبون منا الصفح وكل منهم يكرر « سامحونا .. احنا اصحاب عيال .. ربنا يعلم اننا مظلومون زيكم » .

وانطلقت بنا السيارات التي اقلتنا بعد ان خيم الظلام ، وما كادت اضواء الطريق الرئيسي تلوح ، وما كادت رائحة المانجو في البساتين المجاورة تداعب خياشيمنا ، حتى صحنا جميعا في وقت واحد : خرجنا من القصب « يا اولاد » ان كلمة القصب في بلادنا تحمل في ظلالها كل معاني التخلف ، حيث لا دولة ولا قانون ولا منطق وانما عربدة مطلقة .

في الصعيد ، وحتى يومنا هذا يأخذ الصراع الاجتماعي شكلا فريدا ، فهذا واحد من فقراء الفلاحين يملك فدانا يلاصق ارض احد الاغنياء، فيقوم هذا بالاستيلاء على ارض الفلاح المسكين قسرا .. وانتزاع ارض الفلاح ، كانتزاع حياته .

وذاك اخر يعمل لدى الاغنياء ، ويكتشف ان هذا الغني او ابنه قد اعتدى على زوجته او ابنته . والاعتداء على عرض احد ابناء الصعيد ، نار تاكل قلبه ، حتى الدم لا يكفي لاطفائها .

وثالث قتل له اخ او ابن او احد اقاربه بيد احد الاغنياء ، والعار يلاصق ابن الصعيد ان لم يأخذ بثار من قتل في عائلته .

ورابع وخامس وعشرات من فقراء الفلاحين يتعرضون لصنوف الاضطهاد من اغنياء الريف ، ويعصف الحقد بنفوسهم ، فيحملون بنادقهم ويتجمعون عصابات في القصب .

وتمتد مزارع القصب في الصعيد ، على مساحات تصل في بعض الاحيان الى ستين الف فدان تغطي كل الارض المحيطة بالنيل بين سلسلتي الجبال المتدتين على ضفتيه الشرقية والغربية ، وينبت القصب متشابك العيدان كثيفا بدرجة مخيفة ويعج بكل وحوش الجبل من ذئاب وضباع وثعالب ، تقتنل على ما تختطفه من دجاج او خراف او صغار الماشية من القرى والعزب المجاورة ، وتدوي جنبات مزارع القصب بعوائها وزئيرها طوال الليل ..

ويضم القصب بين ما يضم تلك المخلوقات التعيسة التي حولها استبداد الاغنياء الى وحوش كاسرة ، عصابات فقراء الفلاحين الذين يقيمون اكواخهم وسط مزارع القصب وهم مطمئنون تماما الى ان يدا لن تمتد اليهم ، فليس هناك من يجرؤ على اقتحام القصب ، فان لم تفترسه الوحوش ، فاجأه الرصاص من حيث لا يدري .

وكما تتسلل الذئاب والضباع لاختطاف فرائسها ، يتسلل هؤلاء التعساء لممارسة ثأرهم ضد من آذوهم ، باختطاف افراد من عائلاتهم والعودة بهم الى القصب ، فهناك يجبروه على ان يكتب خطابا الى ذويه يطلب فدية كبيرة ... والا دفع حياته ، وتتطور عمليات الاختطاف هذه من اجل الثأر الى اسلوب عادي في حياة هذه العصابات التي يصبح افرادها طريدي القانون .

ان الصعيد باسره ، الذي يزرع ذلك القصب ، يخشاه خشية الموت ، فلقد اصبح القصب عالما لا يعرف القانون ، ولا تسود فيه الا القوة .. واثناء الليل ، تتعالى صيحات المختطفين ، اما من الرعب او من التعذيب، بصرخات الفريسة وزمجرة الوحوش .. لا قانون في القصب ، ولا قانون في الاوردي، العربدة في القصب ، والعربدة في الاوردي ، القتل في القصب ، والقتل في الاوردي ، الاختطاف في القصب والاختطاف بالليل من بيوتنا الى الفيوم، ثم الى الاوردي ، وحوش في القصب ، وحوش في الاوردي ، العزلة الرهيبة عن العالم داخل القصب ، والعزلة التامة عنه داخل الاوردي .

والمنطق عند وحوش القصب هو حياتك او خطاب تطلب فيه فدية .

والمنطق عند وحوش الاوردي هو حياتك او استنكار عقيدتك . والذي

يخرج من القصب حيا ، كأنه ولد من جديد .

وكلنا كان يعرف قصة القصب ، وحينما حمل الينا نسيم الليل رائحة المانجو ، شعر كل منا انه خرج من الاوردي حيا ، وكلنا لم يملك الا ان يعبر عن شعوره بالحياة بصيحته .. « خرجنا من القصب يا ولاد » .

وفي كلمة اذا اراد المرء ان يحدد من اي المنابع في حياتنا الاجتماعية استمد رجال النظام تصميم الاوردي كمعسكر للتعذيب ، فسيجد انهم قد استمدوا من دوائر الاقطاعيين حيث استبداد اغنياء الريف بفقرائه ، حيث يجلد الفلاحون ويقتلون ومن الوجه المقابل للدوار .. من القصب ، حيث حياة اخرى معزولة عن العالم ليس فيها الا الوحوش والعصابات ، حيث لا قانون ولا منطق ، ولكن عواصف الحقد الاهوج والثار المعربد .

كل القاهرة تخرج الى النيل في هذا الوقت من العام ، هربا من الحر، وكورنيش النيل يتحول الى معرض لكل ما هو جميل في القاهرة ، شبابها ، فتياتها ، اطفالها .. عائلاتها تجلس على النيل ، تستروح نسيمه ، ورب العائلة وزوجه واطفاله يلهون حولهما .. والام توزع زجاجات المشروبات المثلجة ، نموذج لعشرات الالاف من عائلات القاهرة التي لا تمتلك القدرة على التردد على المصايف، فتكتفي بشاطيء النيل ليلا، وشباب القاهرة الفتي ، جماعات من الاصدقاء ، او فتى وصديقته ، والزوارق تنزلق حالمة على صفحة الماء ، والموسيقى الراقصة تتعالى من الكازينوهات المنتشرة على شاطيء النيل .

هكذا راينا القاهرة والسيارات تقطع بنا كورنيش النيل في الطريق الى محطة الجيزة . ان ثمانية شهور ونصف لا نرى فيها الا حجر البازلت الاسود ، وملابس السجانة الصفراء ، وجدران السجن البيضاء جعلتنا لا نصدق ان ذلك الذي نراه حقيقة من حقائق الحياة ، وانما شيئا اشبه بشريط سينمائي ملون .

كان الرفاق يلتهمون كل شيء بعيونهم التهاما .. حتى الناس الذين كانوا يستروحون النيل ، على الكورنيش ، كانوا يتطلعون في دهشة الى تلك المخلوقات الغريبة التي تحملق من العربات ، وكأنها ترى الحياة لاول مرة .

نزلنا امام محطة الجيزة وقد فرض عليها حصار شديد من رجال البوليس السري والعلني ، ودخلنا الى الرصيف يحمل كل منا في يده حقيبته ، ويحمل على كتفه البرش الذي لفت فيه بطانيته وملابس السجن وآنية الطعام . وكان المنظر غريبا لولا الحقائب التي نحملها ، ولولا الحراسة

المشددة ، لتصور من يرانا اننا احدى فرق العمال التي تستجلب من الصعيد لاعمال البناء الشاقة ، التي تحتاج جهدا عضليا غير عادي ولا يحظى عمالها الا باجر زهيد ، ولا يجد الآلاف من ابناء الصعيد الفقراء غيرها سبيلا للهرب من الموت جوعا .

وفي الحادية عشرة وصل اكسبريس الصعيد ، واطلت الرؤوس كثيرة من نوافذ العربات وهي تمر بنا ، وامتدت اياد كثيرة من عربات الدرجة الثالثة تلوح لنا ، وعبارة تتردد : هؤلاء هم الشيوعيون وما كان ابلغها عبارات تعبر عن شوق مواطنينا الينا .

وحشرنا انفسنا في عربتين ملحقتين بالقطار خصيصا لنقلنا ، كانت العربتان خاليتين من المقاعد وابوابهما كابواب الزنازين لها مزاليج ضخمة ونوافذها كنوافذ الزنازين مقفولة بشبكة من القضبان الحديدية .

استلقينا على امتعتنا ومضى القطار رغم ان الليل قد انتصف ، فلم يرض احد منا ان ينام بل جلسنا الى النوافذ نمتع ابصارنا برؤية الوادي الحبيب ، وتعالت اغانينا الشعبية وحراسنا ، حتى الضباط المرافقون لنا ، طالما انهم قد ابتعدوا عن اعين المباحث العامة ، اندمجوا معنا في دردشاتنا وسخرياتنا من النظام ونقلوا الينا اخر احاديث مواطنينا ، واخر ما تردد بينهم من اخبارنا واخبار تعذيبنا ، واخبار شهدائنا . ونقلوا الينا اخر نكاته تعبيرا عن سخريتهم بالنظام . يردد مواطنونا ، كما قال لنا هؤلاء الحراس تلك الفكاهة : « ذهب عبد الناصر مساء الى احدى دور انسينما يرفه عن نفسه ، متخليا عن كل الاعتبارات الرسمية ، ودون ان يظهر حقيقة شخصيته لاحد ، وقبل ان يبدأ العرض الرئيسي ، عرض فيلم اخباري قصير ، ظهر عبد الناصر خلاله في مناسبات مختلفة ، وكلما ظهرت صورته على الشاشة صفق الجمهور ، ولحظ رجل يجلس الى جانبه انه لا يصفق عند ظهور صورة الرئيس على الشاشة ، فلكزه وهو يقول هامسا : « صفق والا ذهبوا بك الى الاوردي » » .

لقد كان سلوك هؤلاء الحراس يدفع المرء الى ان يقف قليلا متأملا ... هؤلاء الحراس الذين يؤدون عملهم في روتينية بحتة ، والذين اذا ما انفردوا بنا كمعارضين للنظام ، بعيدا عن اعين المباحث ، بدأوا يسخرون من النظام في حرية تامة .. واولئك الجنود الذين يودعوننا بالاحضان في الاوردي ، وجنود المباحث الجنائية العسكرية الذين كانوا يساعدون رفاقنا هناك في محنتهم ، ونماذج كثيرة من هذا القبيل وحينما يقف المرء امامها متأملا ..

لا يملك الا ان يخرج بنتيجة واحدة : ان النظام القائم يرتكز على قاعدة لا تؤمن به ، ولا الجهاز الاداري الذي يقف على قمته يؤمن به .. هذه الآلاف من رجال المخابرات والمباحث العامة ، هل ستستطيع ان تبقي النظام طويلا على ارض لا ترضى تربتها بان تمتد جذور الناصرية في بطنها ؟ هل ستستطيع تلك الآلاف من رجال المخابرات والمباحث ان تثبت الناصرية طويلا على فوهة بركان ثائر يرفض ان يظل مختنقا ؟.

كل المحطات التي مررنا بها كانت تموج برجال البوليس السري والعلني ولم يمنع ذلك الواقفين بالمحطات من مواطنينا من التلويح لنا بأيديهم .. وفي احدى المحطات اقترب من عربتنا صبي من باعة المثلجات وقال بسرعة : « شدوا حيلكم »،وقلنا لهحتى نعرفه بانفسنا « احنا شيوعيين »،فقال بسرعة «احنا عارفين انكم شيوعيين،وعارفين كل اليجرى لكم .. البلد كلها عارفة كل حاجة .. وكنا عارفين انكم جايين » .

لم يكن هناك وقت لنعرف منه كيف وصلتهم اخبارنا واخبار ترحيلنا، ولكن على اية حال كانت لتلك الكلمات فعل السحر في نفوسنا ، ان مجرد معرفتنا ان مواطنينا كانوا يذكروننا دائما ، وانهم كانوا يتتبعون اخبارنا ، كانت تنعش معنوياتنا بدرجة مذهلة بل كانت تغسل عنا عناء الشهور التي قضيناها في الاوردي .. وتهون علينا السنوات المقبلة في المنفى ..

طلع علينا الصباح بعد ان غادر القطار مدينة اسيوط . وكم كان رائعا وكم اهتزت ضلوعنا ونحن نرى في الحقول فلاحا توقف عن العمل واتكأ على فاسه او على دفة محراثه ووقف يرقبنا ويلوح لنا ..

وعند الظهر توقف بنا القطار في محطة«المواصلة» وهي محطة صغيرة بعيدة عن العمران ، مع بداية الطريق الحديدي المتجه الى الواحات الخارجة، على بعد مائتي كيلومترا في الصحراء ، بعيدا عن وادي النيل ، كانت تلك المحطة المعزولة اشبه بميدان حربي فقد حوصرت تلك البقعة الصغيرة بحوالي ثلاثمائة من الجنود مسلحين بمختلف الاسلحة من المسدس الى مدافع البرن والقنابل اليدوية .

وكان في انتظارنا قطار مكون من عربتين وقاطرة ديزل . فانتقلنا اليه حيث سار بنا الى الصحراء .. وبعد قليل غاب الوادي تماما عن الانظار ، ولم يعد هناك ما تطل عليه اعيننا سوى الكثبان الرملية ، الصحراء التي لا يحدها البصر .. الا ان رفاقنا الذين سبق لهم ان جاءوا الى سجن الواحات الخارجة نبهونا الى الا يفوتنا منظر « غيط البطيخ » والواقع انها ظاهرة

طبيعية غاية في العجب فعلى مساحات شاسعة من الصحراء في منتصف الطريق تقريبا كانت تنتشر على الارض عشرات الالاف من الصخور السوداء الصغيرة والمستديرة الشبيهةبالبطيخ ،ومن حين لاخر كنا نمر بتلال رملية ذات الوان مختلفة وفيما عدا ذلك كانت الصحراء عاديه ..

وحوالي العاشرة مساء توقف القطار في محطة المحاريق وهي قرية صغيرة على مشارف الواحات الخارجة ومعروف انها كانت تستخدم من ايام الرومان منفى لاعدائهم ، كما نفي فيها ايضا الزعيم احمد عرابي قبل نقله الى سيلان ونفي فيها سعد زغلول وغيرهما من السياسيين .

كان في انتظارنا الصاغ فريد شنيشن قائد السجن ، وضباطه وحراسه ، وجنود الكتيبة المكلفة بحراسة السجن ، فحملنا امتعتنا وسرنا بين صفين من جنودها على ضوء الفوانيس ، حتى وصلنا السجن الذي يبعد حوالي ٥٠٠ متر ، أن السجن يقع على مساحة تقدر باربعة افدنة ، وبخلاف مبنى الادارة يتكون السجن من ثلاثة عنابر متوارية بكل عنبر عشرون زنزانة.

وكانوا قد اخلوا لنا عنبر (٢) ، فادخلنا اليه ، ولم يسمحوا لنا الا بثمانية زنازين ، حشر في كل منها اربعة عشر منا .

ولاول مرة منذ شهور طوال تذوقنا اكواب الشاي ، فلقد كانت بحقائبنا المخزونة طوال تلك الشهور بعض الكميات من الشاي والسكر ، وزعناها فيما بيننا بواسطة سجانة العنبر ، الذين قابلونا بترحاب شديد ، وزودونا بعد انصراف الضباط بمواقد بدائية مصنوعة من طوب السردين ، خلفها رفاقنا الذين كانوا يسكنون العنبر .

ومع الشاي ، اشعلت لفافات التبغ مما كان محفوظا في امتعتنا ، واشترك كل خمسة او ستة من الرفاق في تدخين اللفافة الواحدة .

ومع الشاي ، ولفافات التبغ والخواطر الشتى التي ازدحمت بها صدورنا حينما تجسد لنا الواقع الجديد .. منفى في جوف الصحراء يباعد ما بيننا وبين وادينا الحبيب بمئات الاميال من الرمال الصفراء .. من التلال والجبال .. من الحر القائظ نهارا والبرد القارس ليلا .. من الحنين والحب .. وخواطر عن ثوار عرفتهم المنافي قبلنا ، وثوار يعانون آلام المنفى معنا في هذه الايام .. ثوار اثينا ولشبونه ومدريد .. مع كل هذا انطلق زميلنا النوبي « حمام » بصوته الاغريقي الممتلىء يغني وقد اسند رأسه على قضبان باب الزنزانة حتى يسمع كل الرفاق ، اغنية بول روبسون :

مدريد

ومقاومتك الباسلة
يـــا أمي الحبيبة
كانوا يريدون الاستيلاء عليـــك
ولكن ابناؤك الشجعان
يا أمي الحبيبة
كلهم دافعوا عنـــك
ولكن في مســاء عيد ميلاد حزين
يـــا امي الحبيبة
شنقوا جميعـــا .

الجزء الخامس

وجها لوجه

الفَصلُ الأوّل

أكلة الضمير

لا يدري احد ، على اية صورة كانوا يدبرون لوضعنا امام ذلك الاختيار النهائي في الاوردي • بين الحياة والعقيدة • لو لم يجبروا علي وقف الضرب كأخطر اشكال التعذيب هناك ، ولكنهم على اية حال بـدأوا يتلمسـون اي حصاد انضجه التعذيب بعد ان نقلونا على دفعات الى منفى الواحات حيث تجمع بها حوالي خمسمائة معتقل .

ذات صباح حضر الى العنبر الضابط عبد العال سلومه فأخلى بعض الزنازين ، واعلن انه على كل من لا يعتبر نفسه شيوعيا ان يتوجه اليهـا ، فسارع اليها عشرات من غير السياسيين .واولئك الذين تهاووا تحت وطـأة التعذيب في الاوردي ، فابتعدوا عن التنظيم الحزبي ، وطلب اعضاء المجموعة المنقسمة ان تفرد لهم زنازين خاصة يعيشون فيها بعيدا عن اعضاء الحزب.

بدأ ذلك الضابط يستـدعي اولئك الذين سارعوا الـى زنازين غير الشيوعيين ويطلب منهم ان يكتبوا تأييدا للحكومة ولسياستها وان يعلنـوا فيما يكتبون انهم ليسوا شيوعيين . وما كاد ينتهي من تلك العملية حتى حضر للسجن العقيـد حسن المصيلحي مستشار الـرئيس لمكافحـة الشيوعية وبصحبته البكباشي احمد صالح داود ، مدير مكتب مكافحة الشيوعيـة ، واخذا في استدعاء عدد من المعتقلين فردا فردا ، فمن ابدى استعداده لتنفيذ تعليماته امر بعزله ، وبلغ عدد المعزولين على هذا النحو حوالي عشرين معتقلا.

بعد مضي خمسة عشر يوما تقريبا ، اي في ١٦ سبتمبر سنة ١٩٦٠ خرجت من الواحات قافلة من ٧٤ معتقـلا ما بين مستقلين ، وحزبيـين واعضاء في مجموعة المنقسمين ، كما ضمت اولئك الذين كان المصيلحي قد امر بعزلهم ، واتجهت تلك القافلة الى معسكر العزب بمديرية الفيوم ...

ويومها كان هناك موقفان في سجن الواحات الخارجة فاعلنت كل من مجلتي « الهواء » و « الطريق » وهما مجلتان ناطقتان يصدرهما الحزب الشيوعي : ان ترحيل المعتقلين الى معسكر العزب بالفيوم هو استمرار في خطة تصفية المعتقلين سياسيا ، وانهم سيوضعون هناك في معتقل العزب على عتبة الحياة ، ثم يخيرون بين استنكار الشيوعية وما يتبعه من الافراج عنهم او العودة الى منفى الواحات ، اما اعضاء المجموعة المنقسمة فقد تجمعوا حول احد كبار قادتهم ، الذي اخذ يرقص على تصفيق اتباعه ويصيح قائلا « خط الافراج .. النصر يا اولاد .. الثقة بيننا وبين الحكومة بدات تعود يا اولاد» .

ان العودة الى الواحات كانت تعني العودة الى طوابير السخرة تحت شمس الصحراء المحرقة من الثانية صباحا الى الثانية ظهرا وكانت تعني ان تعود الاقدام الحافية لتحترق بالرمال الملتهبة وان تدمي من الشوك والحصى، والعودة الى الجوع ، الى الحساء النازي ،الى الزنازين المقفلة مدة عشرين ساعة في اليوم ، وكانت تعني العودة الى ملابس السجن الخشنة والى الحرمان من كل شيء ، من صحيفة او كتاب ، او خطاب من الزوجة او الخطيبة او الام والاب .. من الابناء او الاخوة ، كانت باختصار تعني ان المرء سيلقى مرة اخرى في تلك البقعة المهملة .. السحيقة في جوف الصحراء وما يدري متى يعود منها .

ولئن كانت سياسة القتل المباشر قد توقفت ، فانما لتبدا سياسة الموت البطيء ، حيث الامراض تفتك بنا ، امراض بسبب سوء التغذية ، وامراض بسبب الارهاق ، واخرى بسبب القذارة التي مفروض ان نعيش وسطها ، امراض الصدر والمسالك البولية والروماتزم والحمى الروماتيزمية ، ولا علاج لاي منها ، بل حتى الانفلونزا كثيرا ما يندر ان يجد المرء اقراص الاسبرين لعلاجها .

وعلى واقع من تلك المقارنة البشعة يذهب حسن الصيلحي الى معسكر العزب بالفيوم ليواجه المعتقلين هناك بهذا الاختيار الصعب ، الحياة والعودة الى الاهل والى العمل على بعد ساعتين عبر الطريق الصحراوي من الفيوم الى القاهرة ، او الواحات عبر الطريق الطويل الشاق ، الى المنفى والحرمان والسخرة .

استنكار الشيوعية او الموت البطيء ...

تقديم اعترافات مكتوبة عن كل صلاتك السياسية ، او الموت البطيء...

ان تكون بعد خروجك اداة طيعة في ايدي المباحث العامة او الموت البطيء ..

واستخدموا كل الوسائل حتى يكون الاختيار الى صفهم : خطابات من الاهل مع صور الاطفال ، مفتاح شقة احد الرفاق يقدمه له « المصيلحي » قائلا : « لقد ارسلته زوجتك معي اليك انها تنتظرك هناك» لقد اتوا للمعتقلين بكل ما يجعل رائحة الحياة قوية في خياشيمهم .

وذلك الشيخ الكبير « عبدالعليم عمارة » الذي يعاني مرضا مزمنا في عينيه ، يستدعيه المصيلحي ويقول له : « انت تعلم ان زوجتك واولادك الاربعة قد ماتوا في حادث تسمم اثناء اعتقالك ولم يبق لك من اسرتك الا طفلتك اصغر ابنائك . اتريد أن تتركها لتموت هي الاخرى بسبب اهمالك لها ؟! »

ويرد الشيخ الذي يحمل بين جنبيه كل تقاليد البروليتاريا ونضاليتها: « اما زوجتي واطفالي الاربعة فانت قاتلهم . واما طفلتي التي نبقت لي فدعها وشانها . »

وانصرف المصيلحي وجاء من بعده بعض ضباط المباحث ، استدعوا المعتقلين واحدا واحدا بكل عنجهية . وبورقة بيضاء وقلم يقدمونهما يسألون سوالا واحد مختصرا .. هل ستكتب ؟

من قال نعم اعطي الورقة والقلم ، ومن قال « لا » ، اعيد الى عنبره ، كانوا ثمانية وثلاثين هم الذين تلقفوا الورقة والقلم ، وستة وثلاثون هم الذين رفضوا .. ووضع من تلقفوا الورقة والقلم في عنبرين وسمح لهم بالنوم على الاسرة ، وسمح لهم بقراءة الصحف وبالاستماع الى الراديو ، وتركت لهم الابواب مفتوحة طوال النهار .

اما الستة والثلاثون الاخرون فتركوا ليناموا على ابراش رقيقة وغطاؤهم بطانيتان مهلهلتان والابواب مغلقة عليهم الا ساعة في الصباح ، واخرى في المساء. بصوت الراديو .. الاخبار والموسيقى ، والغناء .. صوت الحياة يأتيهم من بعيد من عنابر المستنكرين مشوشا غير واضح ، وتمط الاذان علها تسمع شيئا من صوت الحياة ولكن يصدمها صوت المستنكرين وقد اوقفوهم طابورا وجعلوهم يهتفون بحياة عبد الناصر وبسقوط الشيوعية. وخلال ذلك تقذف المباحث العامة اولئك الذين استعصوا عليها بخطابات من ذويهم ، من الزوجة ، من الطفلة او الطفل يطالبون فيها الازواج والاباء بالعودة ، ولكن تمر الاسابيع والذين قالوا « لا » لا تتخلخل صفوفهم فتصدر الاوامر باعادتهم الى سجن الواحات الخارجة .

اما اولئك الذين اختاروا الورقة والقلم فقد رحلوا فيما بعد الى معتقل القلعة في القاهرة حيث امضوا ثلاثة شهور يستمعون فيها الى محاضرات من الدكتور طعيمه الجرف والشيخ محمد ابو زهرة وغيرهما من اساتذة

جامعة القاهرة الذين ارتضوا ان يساهموا في تلك المهمة القذرة ، مهمة انتزاع العقيدة وتخريب الضمير . كانوا يلقون عليهم محاضرات حول الاشتراكية الناصرية ، وعن الشيوعية ومطامعها الاستعمارية ثم اجريت لهم امتحانات تحريرية فيما استمعوا اليه من محاضرات ، واعطوا الورقة والقلم من جديد ليسطروا مزيدا من الاستنكار للشيوعية ومزيدا من الاعترافات ... عن حياتهم السياسية ، وليدلوا بمعلوماتهم التي تجمعت لديهم عن الشيوعيين اثناء اقامتهم معهم في المعتقلات .

كان بين اولئك الذين سقطوا اربعة من أعضاء الحزب لم يصمدوا للتجربة ، واثنا عشر من المجموعة المنقسمة والباقون كانوا من غير السياسيين ولقد كان من بين الذين عادوا الى الواحات شخصيات ديمقراطية منهم : الدكتور فوزي منصور عضو المجلس القومي للسلام ، والنقابي حامد ابو قمر ، والنقابي سيد العطار رئيس نقابة عمال السكر بكرم امبو والدكتور فائق فريد عضو مجلس الامة السابق ، والدكتور حسين كمال الدين عضو المجلس القومي للسلام .

وفي هذه التجربة يتكشف جانب جديد في عربدة رجال المباحث ، واستهتارهم بالانسان واحتقارهم له ، واستعدادهم للتضحية به في تجاربهم المختلفة من اجل تحقيق اغراضهم .

لقد شهد « بوخنوالد » كيف استخدم النازيون المعتقلين السياسيين لكي يجروا عليهم ما سمي بالتجارب الطبية كوضعهم في الماء المثلج لاختبار تأثير البرودة على الانسان او تركهم ليلا في العراء عراة الإجسام لمعرفة ما سيتركه ذلك فيهم من آثار او حقنهم بجراثيم الامراض الفتاكة لتتبع تطور المرض فيهم ، ولا يذكر الفيورون على قدسية الجسد البشري تجارب اخرى اجريت على الانسان كتلك التي اجريت في بلادنا ، لقد تبين لنا في الاوردي سر اعتقال تلك الاعداد الغفيرة من المواطنين العاديين الذين لم يسبق لهم الاشتغال بالسياسة او حتى الاهتمام بها ، لقد اعتقلوا وعرضوا لكل تلك التجارب المميتة ليكونوا قوة انهزامية في صفوف المعتقلين اما اليوم وبعد رحلة الفيوم ، فقد تكشف جانب اخر من ذلك السر .

ان رجال مكافحة الشيوعية ، الذين خبروا الشيوعيين المصريين اعواما طوالا ولمسوا مدى عنادهم وصلابتهم ، لم يكونوا واثقين تماما من نتيجة حمامات الدم المصحوبة بعملية غسيل المخ ، ولذلك فقد اعدوا ذلك الرصيد الكبير من العناصر التي لا ترتبط بعقيدة ما تقاتل من اجلها والتي لا يعنيها كثيرا ان تعلن استنكارها للشيوعية خصوصا بعد ما عانوه في الفيوم

والاوردي وبذلك يضمنون قائمة طويلة من مستنكري الشيوعية يستعرضونها امام الراي العام المحلي والعالمي يشوهون بها سمعة الشيوعيين المصريين ، ويظهرونهم بمظهر المنهارين بالجملة ، ومن ناحية اخرى يثبتون كفاءتهم في محاربة الشيوعية .

لقد احترقت في الفيوم بعض الاوراق الجافة ، اوراق اثخنتها جراح ابي زعبل ويبستها شمس الواحات الملتهبة ، اوراق ذابلة هزيلة ، تفتت بما حملت من افكار مرتدة متعبة ، الا ان قوى الطليعة ، وانصار السلام ، والنقابيين والديمقراطيين الشرفاء ، عادت وقد ركلت محرقة النظام ، وبصقت عليها ، عادت اشد مضاء وعزما ،لم يرهبها الوعيدبحبس مديد ، ولا الترغيب بالمستقبل المفتوح والزوجة والولد الحبيب .

وفي الواحات استقبل العائدون استقبال الابطال ، وفي قلب الشاعر، هذا القلب الذي عاش المعركة ، عاشها بكل ابعادها السياسية والنضالية والانسانية انطلق النغم تحية للمناضل ، وصرخة في وجه المرتد .. في وجه المراكع ...

كان مناضلو قطاع غزه الفلسطينيون قد جيء بهم من السجن الحربي بعد ان امضوا فيه عاما ونصف بين كلابه المتوحشة وسياطه المجدولة من السلك ، جيء بهم الى الواحات لتفرض عليهم معنا نفس المعركة ، الجوع ، والسخرة والعري والحفاء ، ويساهم المناضلون الفلسطينيون في المعركة ضد التصفية ،وتنطلق قصيدة « المرتد » يلقي بها الشاعر الفلسطيني « معين بسيسو » قذيفة مدوية في وجه الارتداد ويتلقفها الرفاق سلاحا يشهرونه في وجه اعداء الفكرة واكلة الضمير البشري .

المرتد ....

اركع للورقة
اغرس قلمك
في عيني طفلك ، واكتب ما امرك
ان تكتب من ذبحك
بالقلم على عتبة بيتك
كوّم ايامك قدامك ، اوراقا واسال
لا تخجل
جلادك عن عود ثقاب
اعجن من وحل دخانك ، ورمادك ،
صفحات كتاب

اعجن اوراقك وتذكر
لو كـان الميت يتذكر
انك من هذي الكلمات تضفر
حبلا ، وتعلق من هذي الاسطر
عض كذئب قلب حبيبتك ،
وقدمه على طبق من ورق اصفر
قص ضفائرها لتضمد
جرح الضبع الاســود
الدغ كالعقرب عينيها اقدم
لا تحجـم
اقدم واقــرع
كـالضفدع
اجراسك للمستنقــع
وقــع وقــع
اسمك في ذيل الورقة وقــع
وقع وتسلل
كاللص الى بيتك واحذر
ظلك ان يقــع على مصنع
فامضغ ظلك منديلا من سم واهرع
اطرق اطرق
بابــك حتى تتمزق
يدك فلــن تسمع
خطوة من كانت تهواك ويخفق
ساعدها في يدك كسيف مــن ماس
وكبــيرق
فالان كعود رماد وكخيط دخان اسود
ساعدك تبدد
اقــرع اقرع
لن تسمع خطوتها لن تسمع
قد نزعت طوقا مــن شوك
خاتمك من الاصبع
المهرب اين المهــرب

لم تقهر اطفال لينين ولـم تعذب
قـد كذب المخلب
قد كذبت كل عصى الجلاد فلم تفشل
في ابي زعبل
اطفال لينين ولم تهرع
تملأ شدقي ذئب الفيوم الاصفر
ورقا هو لحم الحزب وقد فتح
علما مـن ورد احمر قد فتح
يتحـدى سكين المذبح
فاغرز عينيك كظفر وتطلع
لو تقوى ان تتطلـع
انـا الملح فوق الرمل الاصفـر
قضبـان المزة « بتكسر »
ودمشق بدميـة « عمار » دمشق تلوح
لكم اطفال القاهرة تلـوح
فتطلع ولتتوقد
على عنقك جمرة جرح اسـود
جمرة جرح لا يخمـد
فتطلع لو تقوى ان تتطلع .. ان تتصور
قلب فريـد المصلوب على قلبـي نـور
كروانـا احمـر
قلبـي كروان احمر
قلبي حنجرة الاسوار ولن يهدأ يصدح
لن يهدأ شرر الاغنية يقدم
القلم السكران من السم ترنـح
عبثا يسنده السجان وتسنده الأسطر
والذكرى موجة شوك تتكسر
فوق جفونك وتؤرق
حتى الصمت ، فلا يهدأ بالقدم
العريانـة يطرق
ارض الزنزانة ، والليـل علـى
صدرك بـاب مغلـق

سجانك اقبــل
كالحفرة كالمعــول
اين ستمضي ؟ البيتك ؟
بيتــك في ظهرك خنجــر
اطفلك ؟ طفلك فوق صليب
الاوراق بدميته سحر
ستساق الى الشارع فتعثر
في ظل السجــان تعثر
ايــن ستمضي والريــح تطيــر
خطواتك اسطــر ورقــة .

الفَصلُ الثَاني

بصقة في وجه الذئب

مرة اخرى يتسلل ذئب الفيوم الى الواحات ، على امل ان يملأ شدقيه بأوراق جديدة علها تكون قد جفت وتساقطت بفعل شمس الصحراء الحارقة ، والمنفي البعيد ، والحرمان الطويل .

في صباح ذلك اليوم ، الثاني عشر من فبراير ١٩٦١ ، ساد سجن الواحات الخارجة جو غير عادي ، وسرت شائعة ان شخصيتين كبيرتين من وزارة الداخلية في طريقهما الى السجن .توقعنا ان القادمين هما : حسن المصيلحي واحمد صالح داود ، فتجمع المعتقلون في احدى الزنازين فيعنبر (١) والقى فيهم فخري لبيب كلمة عن طبيعة تلك الزيارة وما هو موقفنا منها ، ثم اسرع الى عنبر (٢) حيث تجمع المعتقلون المقيمون فيه والقى فيهم كلمة اخرى .

قال فخري لبيب في كلمتيه :

« ايها الرفاق :

يا من حملتم على عاتقكم عبء نضال مر ، نضال شاق ، يا من واجهتم الفيوم وهزمتموه ، وعلى انقاضه ارتفعت اغانيكم واناشيدكم ، يا من واجهتم الاوردي ، ووضعتم حدا لمذبحته ، يا من عشتم ايام السخرة اقوى من اعدائكم واشد مضاء وكرامة من سجانكم .

ايها الرفاق :

يا من تصنعون اليوم ملحمة نضال خالدة ، وتعيشون اياما سوف تخفق فوق بلادنا رايات ظفر وانتصار .

اننا نواجه اليوم ذلك الجزار ، ذلك الرجل الذي يحضر الينا وفي اعتقاده اننا خراف سهل ذبحها او جز صوفها « لحين الذبح » . ولكنناابناء

الشعب المصري ابناء عرابي ومحمد فريد ورجال ثورة ١٩ ، ابناء العمال والفلاحين ، ابناء « دنشواي » « ويهوت » وكفر الدوار وشبرا الخيمة ، نحن ورثة كل امجاد شعبنا ونحن حملة الامانة خلال هذا التاريخ . نحن لسنا وحدنا ، اننا جزء من معركة عاتية في الشرق العربي ، جزء من قوى النضال الوطني الديمقراطي في بلادنا ، جزء من قوى التحرر العربية ،جزء من قوى السلام والاشتراكية على النطاق العالمي . اننا نواجه مندوب النظام ، وكل منا تراث من النضال ، وكل منا يمثل هذه الامجاد وكل منا يعبر عن اصرار شعبنا وعناده .

ان ثمانين عاما في النضال الدبمقراطي تتطلع الينا اليوم ، ثمانون عاما منذ وقف عرابي على صهوة جواده يركل الخديو باسم الشعب ،باسم الفلاحين ويطالب بحياة دستورية .

ان محمد عثمان وفريد حداد وطابور الشهداء ، هؤلاء الذين رسموا لنا طريق النصر وكانوا علامات الدرب الظاهر نحو الديمقراطية والاشتراكية ، يتطلعون الى دمائهم وقد جرت في عروقنا ، هل صارت ماء باردا ، او وقودا مضطرما من اجل الاهداف التي ماتوا في سبيلها .اننا اليوم نستلهم نضال رفاقنا في اسبانيا والبرتغال واليونان رفاقناالذين صنعوا اكتوبر ، في موسكو وفي بكين ،رفاقنا في كل مكان . اننا نقف في ذلك الطابور المترامي ، الطابور الزاحف المنتصر ، اننا باسم تراث شعبنا وامجاده ونضاله وراياته ، وباسم تراث الانسانية التقدمية نواجه العنف ورايات الطغيان .

ان عبدالناصر يعلن دوما انه على موعد مع القدر ، ونحن هذا القدر، نحن قدر الناصرية ، نحن الصخرة التي ستتمزق عليها الراياتالشرسة، رايات العداء للديمقراطية والاشتراكية والشيوعية .

وفوق كل الرايات ستعلو رايتنا ، وفي المقدمة راية حمراء صبغتها دماء الشهداء ترفرف مزهوة ، لقد عبدّوا الطريق وسرنا على الطريق .

فلنواجه مندوب النظام ، بكل عناد شعبنا وعراقة نضاله ، اننا نواجهه باسم الام وباسم الابن ، باسم الاسرة باسم الوطن باسم الاب وباسمالشعب. ليواجه كل منا هذا الرجل لا كفرد ولكن كممثل للشعب . كمعبر عن حركة التاريخ ، كمعبر عن الثورة التي تغلي لتنضج في المستقبل » .

والواقع ان يوم الثاني عشر من فبراير ١٩٦١ كان مسرحا لمعركة بين رايتين واحدة منهما تحمل تراث شعبنا المجيد في معاركه الباسلة طوال القرون ، والاخرى تحمل تراث كل الرجعيين والمستعمرين الذين ناضل

شعبنا بلا هوادة ضدهم ، الاولى رايتنا نحن الشيوعيين ، ورثة كل بطولات شعبنا والثانية راية مكافحة الشيوعية ، وريثة كل العفن الذي ركله شعبنا وناضل لغسله بدماء شهدائه .

لقد خاض الشيوعيون معركة ذلك اليوم ترفرف عليهم راية رائد ابطال المقاومة الوطنية في التاريخ الحديث ، السيد محمد كريم :

كان السيد محمد كريم حاكما للاسكندرية حينما زحف عليها نابليون بجيوشه في اواخر القرن الثامن العاشر . ورفض السيد محمد كريم الاستسلام ، وحصن المدينة ونظم اهلها للمقاومة ، ولم يستطع الفرنسيون ان يحتلوا الاسكندرية الا بعد معركة عنيفة ، فقدوا فيها الافا من رجالهم ، وجرح فيها اعلى ضابطين في الحملة ، كليبر ومينو ، وكاد يقتل فيها نابليون نفسه ..

وببسالة محمد كريم ، وبفدائية قائد الاسكندرية البطل، واجهنا نحن الشيوعيين ، اصلب من حمل راية الوطنية ، ابطال معارك المقاومة الوطنية في ميدان الاسماعيلية امام ثكنات قصر النيل ، وامام القيادة البريطانية في الاسكندرية ابطال الكفاح المسلح في القنال ، رفاق الشهيد عباس الاعسر، ابطا لالمقاومة السرية في بور سعيد ، رفاق الشهيد الشيوعي حسن حمود ، واجهنا حسن المصيلحي ، رئيس مكتب مكافحة الشيوعية ، ومستشار الرئيس لهذه المهمة ، الذي يدبر لنا نحن اعز ابناء وطننا الموت كما دبر « مينو » الموت للسيد كريم .

كان الغزاة الفرنسيون في ١٧٩٨ هم اول من حاول حرمان شعبنا حقه في الاشتغال بالسياسة ومناقشة مقدراته ، وحينما لمحوا نذر الثورة تتجمع ، اصدروا بيانهم الى الشعب محذرين فيه .. « انه على العامة ان يتركوا الفضولوالكلام في شئونالدولة .. وانه ان بلغ الحاكم منالمتجسسين عن احد يتكلم في ذلك عوقب او قتل » .

ان شعبنا البطل لم يرهب انذار الفرنسيين ، بل جعل مقامهم فيمصر اشبه بالمقام في الجحيم ، وظلت المقاومة مشتعلة في كل ركن من بلادنا وقدم شعبنا ابطالا وشهداء في المعركة ضد الفرنسيين متحدين انذارهم بعدم « الكلام في امور الدولة » متحدين اوامر نابليون بحرق القرى ونهبها وقتل كل من يبدي مقاومة .. قدم شعبنا محمد كريم الذي ظل يقود وينظم المقاومة في الاسكندرية . .وبينما قبض عليه الفرنسيون رفض في كبرياء ان يدفع مبلغا من المال ، او ان يعتكف في داره مقابل الافراج عنه ..وقدم شعبنا السيد عمر النقيب ، واحمد المحروقي قادة ثورة القاهرة وقدم

المناضل « ابو فورة » بطل « المنصورة » وابن شقير بطل قرية « عشما : وحسن طوبار قائد جيش الفلاحين في المنزلة ، والامام مهدي قائد جيش الشعب في دمنهور .

لقد وجه النظام للشعب نفس الانذار الذي وجهه اليه الفرنسيون قبل قرن ونصف ، ففي اول يوم لهم حذروا من انهم سيضربون بيد من حديد كل من يقوم بالمظاهرات ثم شنقوا خميس والقبري لانهم تجرأوا وقادوا العمال في المطالبة بحقوقهم ، وتطور نظام يوليو في محاولته ابعاد الشعب عن مناقشة « امور الدولة » وعن العمل بالسياسة ، فحرم قيام الاحزاب السياسية ، وحرم اصدار الصحف والغى الحياة النيابية ، واحتفظ لنفسه وحده بحق الاشتغال بالسياسة ، وبحق مناقشة امور الدولة ، وبحق اصدار الصحف !

وكما لم يكترث شعبنا بانذار الفرنسيين ، لم يكترث شعبنا بانذارات النظام ، وقدم كل ركن في وطننا مناضلين اشداء من اجل حق الشعب في الاشتغال بالسياسة ومناقشة امور الدولة وابداء رايه في مقدراته .

وكما استخدم الفرنسيون « المتجسسين » للتبليغ عمن يناقش امور الدولة انتشرت المباحث والمخابرات في كل شبر من ارضنا للارشاد عمن يتجرأ على الخوض في امور الدولة . لقد قتل الفرنسيون مواطنين ابطالا رفضوا انذار الفرنسيين وتحدوه ، وقتلت السلطة مناضلين بواسل رفضوا الوصاية على شعبنا ، واخيرا ياتي مندوب النظام ليطلب منا الكف عن الاشتغال بالسياسة والتخلي عن عقائدنا التي تحدد لنا موقفنا من امور الدولة ، متى تكون لصالح الشعب ومتى تكون معاكسة لها .

بعد قرن ونصف من الزمان ياتي مندوب النظام ليتحدث بلغة المستعمرين الفرنسيين ايام غزوهم لبلادنا .

***

وبدات المعركة ..

اتخذ حسن المصيلحي مستشار عبدالناصر لمكافحة الشيوعية هو ومعاونه احمد صالح داود مكانهما في مكتب قائد السجن وبدأ يستدعي سكان كل زنزانة من المعتقلين دفعة واحدة .

كان اول من استدعاهم سكان الزنزانة رقم (١) بعنبر ١ ، وكان يقطنها بعض المصريين ، وبعض المناضلين الفلسطينيين من قطاع غزة .

وفي مقدمة سكان الزنزانة ، دخل احمد يس عبدون ، وهو مناضل قديم من ابناء اسوان .. ودهش المصيلحي حينما وجده يتوجه مباشرة الى

كرسي « فوتيل » بجوار المكتب ثم يجلس عليه فقال له :«لم تجلس؟ » فرد عليه المناضل الاسواني .. « ولم اقف ؟ » .. و « امام من اقف ». قال له المصيلحي:« طب استاذن اولا في الجلوس ؟» .. فرد عليه عبدون : «استأذن منك انت ؟.. اسمع نحن لنا مطالب .. لا بد من وقف هذا الاسلوب الذي تعاملوننا به .. اننا نريد دستورا ديمقراطيا ، اما دستوركم هذا الذي تضعونه فانه يولد سفاحا .. والشعب لا يعترف به » ..

واستمر المناضل الاسواني يكيل الاتهامات للمصيلحي وللنظام ، ويذكرهم بمقتل محمد عثمان وفريد حداد وغيرهم من الشهداء ..

لقد بلغ من عنف المناضل عبدون في هجومه ان استفز احمد صالح داود والمصيلحي فقال داود : « نعم .. نحن امرنا بقتل محمد عثمان وفريد حداد » .

فقال له عبدون « اذن فستحاكمون كقتلة » ..وعلى صوت تلك المشادة جاء المامور والصول وقوة من الجنود فاخرجوا عبدون وزملائه من امام المصيلحي .. وكانت كلمات عبدون هي الطلقة الاولى في معركة ذلك اليوم ..

وتوالت بعدها القذائف في وجه المصيلحي ..

قال الاستاذ خليل عويضة مدير التعليم في قطاع غزة واحد قادة الجبهة الشعبية في قطاع غزة .. « ما شانكم بنا .. ما شانكم يا ممثلي السلطات المصرية بابناء شعب اخر ، قولوا انكم تتحكمون فينا كسادة .. وانكم بهذه الصفة تلقون بنا في المنفى في بلد غير بلدنا .. قولوا انكم فرضتم وصايتكم على بلدنا .. وانكن بهذه الصفة تتصرفون معنا بلا قانون ..»

لقد كان الاستاذ خليل عويضة واحدا من العشرات من المناضلين الفلسطينيين في قطاع غزة ، وعلى رأسهم الشاعرين .. معين بسيسو ، وعبدالرحمن عوض الله .. سيقوا من قطاع غزة في ابريل ١٩٥٩ – الى السجن الحربي في القاهرة ، ومعهم لاول مرة في تاريخ بلدنا فتاة في الثامنة عشرة ،هي « صهباء البربري » لكي يذوقوا كل اصناف التعذيب في ذلك السجن اللعين من جلد بالسياط المجدولة من السلك .. الى الكلاب المتوحشة .. ثم جيء بهم الى الواحات في اغسطس ١٩٦٠ .

واستدعى المصيلحي سكان الزنزانة رقم ٣ بعنبر ١ ..

كانوا اربعة عشر رفيقا ، ملابسهم ممزقة ، حفاة الاقدام ،ولكن نارا مشتعلة كانت تتاجج في صدورهم ..

وحينما وقفوا امام حسن المصيلحي ، واحمد صالح داود ، أخذ

الاخير في كتابة اسمائهم .. ثم نظر اليهم المصيلحي بجفوته المتنفخة وقال:
ـ هـه ؟..
وتقدم فخري لبيب ليتكلم :
ـ احنا لنا مطاليب ،هي وقف السخرة ؛ والسماح انا بالجرائدوالاذاعة والمكتبة وزيادة التعامل مع الكانتين والزيارة ..
ولكن المصيلحي قاطعه قائلا :
ـ عندك حاجة ثانية ؟
وبدأ الرفاق جميعا يتكلمون واحدا بعد الاخر ، كل يعرض بعض المطالب .. وعاد فخري لبيب يؤكد تلك المطالب من جديد ..
ولكن المصيلحي عاد فقاطعه :
ـ بلاش سفسطة ..
فرد عليه فخري لبيب محتدا :
ـ الاوضاع اللي انتوا فارضيها علينا هي السفسطة :
وقال المصيلحي في برود ..
ـ المسألة في بساطة .. انتو شيوعيين ؟
وبلغ الاستفزاز اشده ، ورد عليه فايز علام سكرتير نقابة شركة مصر للغزل والنسج الرفيع
ـ ايوه ، امال انتو جايبينا من الكباريهات ؟ .. احنا جايين من وسط الشعب ..
وتدافع كل الرفاق : نعم نحن شيوعيين ..
وصرخ المصيلحي .. واسرع الصول المكلف بالحراسة يطلب من الرفاق الخروج ، ولكنهم شعروا انهم لم يوفوا ذلك الرجل حقه ، فحاولوا العودة مرة ثانية الى حجرته ، فتزاحم الجنود وضباط السجن لمنعهم من اقتحام غرفة المكتب عليه ..
فصاح به فخري لبيب على عتبة الباب :
ـ انا فخري لبيب يا حسن مصيلحي، انا بقولك حايجي اليوم اللي نحاسبك فيه ، ودم محمد عثمان على راسك وموش حانسيبك .. يا قاتل .. يا مجرم ..
وارتفعت اصوات الرفاق في مظاهرة عارمة .. وتجمهر الرفاق الذين كانوا خارج الزنازين وكانت زنزانة رقم ٤ معدة لمقابلة المصيلحي ، فسارت تهتف ضد الجزار وضد القاتل . ومنعها قائد السجن وجنوده من الدخول، ثم اسرع المصيلحي ومعاونه بمغادرة المكان ..

غادر المصيلحي ومعاونه السجن .. وران الصمت على مبنى الادارة .. ولكن في داخل العنابر كانت مظاهرات تحية للرفاق الذين اجبروا المصيلحي على الفرار ..

وجاءت انباء من خارج العنبر بان المصيلحي قد اتجه هو ومعاونه وقائد السجن الى بلدة الخارجة حيث مقر المحافظ ..

وسرت اشاعة بانه يعد العدة بالاتفاق مع المحافظ لاستخدام العنف انتقاما لما حدث له .. لن نؤخذ على غرة مرة اخرى .. هكذا كان يفكر كل الرفاق .. ويجب ان نستعد لمواجهتهم .. فلن يعود الاوردي مرةاخرى .. حتى ولو ادى الامر الى اشتباك دموي يسقط فيه العشرات وصدرت التوجيهات للرفاق :

رد اي اهانة .. مقاومة اي اعتداء ... في حالة استدعاء رفيق لاستخدام العنف معه فليهتف بحياة الحزب الشيوعي ، وحياة ذكرى الشهداء .. وستكون تلك اشارة لسكان العنبر حتى ينطلقوا هم ايضا لتنفيذ الخطة التي اتفق عليها ..

ومرت الساعات .. العنابر مغلقة .. والزنازين مغلقة .. ولا يدري احد ماذا يدبر في الخارج وجاء المساء .. ولم تتم المجزرة ..

وبعد ان حمل سجانة العنابر « التمام » الى الضابط النوبجي ،تناولنا عشاءنا .. وشربناالشاي الذي نحصل عليهتهريبا .. ونصنعه خلسة بوسائل بدائية ... وانطلق الرفاق في ثرثراتهم المعتادة .. اقاصيص .. وذكريات .. وتأملات .. ومناقشات سياسية واخرى ادبية .. ثم فتح باب العنبر .. ودخل ضابط نادى بضعة اسماء .. المعركة لم تنته اذن ..

لقد غير المصيلحي خطته .. سيقابل بعض المعتقلين . . فردا فردا ..

كان من بين من استدعاهم قدري حنفي .. المعيد بكلية الاداب جامعة عين شمس ..

قال له المصيلحي : الا تريد الخروج ..

فاجابه قدري حنفي : لا ...

وانتهت المقابلة ..

وجاء دور محمود عطاالله رئيس نقابة عمال النسيج بكفر الدوار ..

قال له المصيلحي : انني اريد مساعدتك ..

فاجابه .. : يفتح الله ..

وانتهت المقابلة ..

ثم جاء دور .واضع هذا الكتاب ، وهنا اراد المصيلحي ان يستغل علاقة

مصاهرة بينه وبين احد اقاربه ، ليدير حديثا هادئا يكسر به حـدة ذلـك اليوم .. وجرى الحوار على النحـو التالي :

قال المصيلحي : « انني اخاطبك باسم الاسرة .. باسم والدتك .. واخوتك واقربائك ..

كان ردي عليه : اتلقى بشقيقتي في السجن .. وتنفى بي في الاوردي ثم في الواحات .. وتأتي الان لتتحدث باسم العائلة ؟.. لا تتحـدث عـن روابط عائليـة انت لا تعرفهـا ولا تحترمها ..

فقال المصيلحي : لننسى الذي كان ، ولتحدثني لا باعتباري العقيـد حسن المصيلحي ولكن باعتباري فردا من الاسرة ..

فجاءه الرد : ليس بيني وبينك سوى شقيقتي المسجونة بلا اتهام ولا تحقيق ، محرومة من دراستها لما يزيد الان عن عاميـن ، والسخرة والحفاء اللذيـن نعانيهمـا هنـا .

فقال المصيلحي : اعـدك بشرفي اني سافرج عنهـا حتـى ولو كانت شيوعيـة ..

طاهر : بعد ان تعلن استنكارها للشيوعية ؟

المصيلحي : بشرفي لن اطلب منهـا استنكـارا لاي شـيء ، اعتبـر موضوعها قد انتهى .. ولنتحدث في امرك انت .. وفي خروجك ..

طاهر : سأخرج يومـا .. فهذا حقي كمواطن ، ولكن ليس بالطريقة التي تحددهـا انت ...

المصيلحي : اقسم بشرفي اني لا اطلب منك استنكارا .. فقط دع تلك المرارة وخاطبني كفرد من الاسرة ..

طاهر : ستبقى المرارة ما بقيت ذكريات الماضي وما بقيت ذكريـات شهور طويلة في الاوردي واربعة شهداء سقطوا هناك ، كان مـن الممكـن اكثر من مرة ان اكون خامسهم ..

المصيلحي : انتم تتحدثون كثيرا عن مسئوليتي عما حدث في الاوردي، ولا تعرفون اني كنت مسئولا عن اشياء طيبة كثيرة حدثت هناك ..

طاهر : نعم .. انت مسئول عن اشياء طيبة حدثت هناك : السخرة .. والجوع .. والضرب واربعة قتلوا ..

المصيلحي : مرة اخرى .. ارجوك ان تتخلى عن تلـك المرارة حتـى نستطيع ان نتفاهم ..

طاهر : ومرة اخرى ، ستظل تلك المرارة ما بقيت ذكريات الماضى، وتلك الوقفة التي تجبرني عليهـا امامك حافيا بتلك الملابس المزرية ..

المصيلحي : تفضل بالجلوس ..

طاهر : افضل البقاء واقفا ككل الذين سبقوني لاخاطبك بنفس النغمة التي خاطبوك بها ..

المصيلحي : بشرفي لا اطالبك بشيء .. سوى ان تتعقل ..

طاهر : لا داعي لتلك الكلمات .. فكل ما قدمته من اجل بلدي ..وكل ما كتبته دفاعا عن قضاياها ، .. وانتصارا لسلامها وسلام العالم وعلى صفحات جريدة ، كان يملكها رئيسكم نفسه .. كل ذلك لم يكن جنونا اللهم الا اذا كنت تعترف الان ان مقاييسكم تغيرت وان النضال من اجل الوطن وضد الاستعمار ، ومن اجل السلام قد اصبح في نظركم اليوم جنونا..وان العقل في نظركم ان اضع قلمي في خدمتكم الى جوار اقلام المرتدين وعملاء المخابرات الاستعمارية والموالية لامريكا ..

المصيلحي : من هم عملاء المخابرات الاستعمارية هؤلاء ؟ ومن تقصد بالموالين لامريكا ؟

طاهر : انت تعرفهم جيدا .. رجال اخبار اليوم والمصور والاهرام .. مصطفى وعلى امين وهيكل وغيرهم .. الذين وقفوا الى جانب كل اعداء الشعب ، والذين تضعونهم اليوم في قمة صحافتكم .. مساومتك مرفوضة.

المصيلحي : ارجو ان تفهمني ..

طاهر : كل ما افهمه انني امقت ذلك الحديث ، وامقت الاستمرار فيه واستدرت خارجا .. كان قائد السجن وبعض الضباط قد اسرعوا الى غرفة القائد على صوت تلك المشادة الحادة ، وكان الذهول على وجوههم للذلك الذي يرفض الخروج بلا استنكار ، ولكن شدني اكثر من كل ذلك احد الموظفين المدنيين كان يشرف على بعض مرافق السجن لمحته من خلال الباب واقفا خارج الغرفة ، فضم قبضته لي بقوة معبرا عن تاييده .

كنت بالباب حينما سمعت صوت المصيلحي من خلفي يسال :

ـ الا تريد ان ترسل كلمة او رسالة لوالدتك ؟

واجبته : ليس عن طريقك ..

ومع رفض تلك المساومة الرخيصة ، ذاب القسم الذي اقسمه حسن المصيلحي بشرفه ان يفرج عن ليلى عبدالحكيم شقيقتي ، وظلت رهينة سجن القناطر الافراج عنها مرهون بان اضع قلمي في خدمة سياسات النظام ..

وهو الامر الذي الح .. ولمح اليه المصيلحي في حديثه (١)

كانت الكلمة الشريفة سلاحا هائلا في يد شعبنا اثناء معاركه المتعددة ضد اعدائه ، ولاقى اصحاب الكلمة اضطهادا لا مثيل له على يد كل اعداء شعبنا .

في تاريخنا .. ان معلمي الكتاتيب كانوا يخرجون بتلاميذهم ، ايام الغزو الفرنسي البونابرتي في اواخر القرن الثامن عشر .. ويدورون في شوارع القاهرة .. يرددون .. اللهم انصر السلطان .. واهزم فرط الرمان » ..

كان الفرنسيون هم المعنيون « بفرط الرمان » .. ولم يكن تشبيههم .. « بفرط الرمان » فقط من زاوية احمرار بشرتهم كاحمرار الرمان .. ولكن المقصود به ايضا ان الفرنسيين كفرط الرمان .. اشياء متهاويه لا اصل لها ولا رابط ..

كان مشايخ الازهر ، وهم رواد الثقافة في تلك الايام .. هم قادة الثورة ودعاتها .. ومثيروها .. ومنظموها .. ولقي كل هؤلاء من الفرنسيين العنت الشديد .. القتل والاعتقال ..

وفي تاريخنا ايضا ان الخديوي اسماعيل تآمر على حياة « يعقوب صنوع » – ابو نضاره .. اكثر من مرة ، بسبب مسرحياته التي كان يؤلفها ويخرجها ويمثلها على مسرحه ، وينقد فيها حكم اسماعيل ..

وبسبب ما كان ينشره في مجلته .. « ابو نظارة » ولما فشل اسماعيل في قتل « يعقوب صنوع » نفاه الى خارج البلاد حيث واصل اصدار مجلته في باريس وارسالها لتوزع سرا في مصر .. الى ان مات يعقوب المناضل الديمقراطي غريبا عن وطنه ..

وجاء جمال الدين الافغاني لينشر تعاليمه في اصلاح نظم الحكم .. وركز حملته على الحكم الاستبدادي ، وضرورة استبداله بحكم يستند الى الشورى – اي حكم نيابي – وصدر الامر بابعاده هو الاخر من البلاد ..

ولكن تعاليمه وجدت ارضا خصبة بين صفوف شعبنا . لقد ابعد الافغاني .. ولكنه ترك وراءه تلاميذ مخلصين لتعاليمه .. ورأيا عاما يلتف حول دعوته للنظام النيابي .

---

(١) .. افرج عنها وهي واربعة من زميلاتها المعتقلات في سجن القناطر في اكتوبر سنة ١٩٦٢ بعد هذا الحديث بعام ونصف تقريبا .. وبعد ان ساءت حالتهم الصحية بدرجة غير عادية ، وعلى اثر تدخل بعض الهيئات النسائية الدولية .

وكان ابرز تلاميذه « الشيخ عبدالله النديم » .. ذلك المناضل العتيد من اجل الديمقراطية ضد استبداد اسرة محمد علي .. والذي سار في انحاء الريف المصري ، يدعو الفلاحين للالتفاف حول عرابي .. والتبرع لحركته .. وقام يشرح اهدافها ، للمواطنين .. ويجمع توقيعاتهم على بيانات تأييد عرابي وحينما هزمت الثورة العرابية صدر الامر بنفي « عبدالله النديم » : فهرب الى الريف ،وظل سنوات يتجول فيه متنكرا رافعا راية النضال من اجل حكم نيابي ، الى ان قبض عليه ، ونفى من البلاد ثم عرض عليه الخديوي عباس حلمي الثاني العفو والعودة مشترطا عليه « عدم الاشتغال بالسياسة » ولكن رغم ذلك ، عاد « عبدالله النديم » ليصدر مجلة « الاستاذ » التي واصل على صفحاتها تعبئة الراي العام ضد الاحتلال البريطاني ، ومن اجل الحريات العامة ، ولم يطق « اللورد كرومر » المندوب السامي البريطاني في مصر ذلك ، فاصدر امره بنفي « عبدالله النديم » .. فابعد عن البلاد ، وظل غريبا الى ان مات بعيدا عن وطنه وشعبه ودفن في احدى ضواحي مدينة استانبول بتركيا الى جوار استاذه جمال الدين الافغاني .

وهكذا نستطيع ان نلمح المنابع التاريخية لذلك العداء للكلمةالشريفة. في تاريخنا ان كل اعداء الشعب ، واعداء حريته ، واعداءالديمقراطية واعداء الدستور والحكم النيابي قد واجهوا كل اصحاب الكلمة المنادية بالحرية والديمقراطية وبالدستور وبالنظام النيابي ، بالنفي والاغتيال واشتراط عدم الاشتغال بالسياسة مقابل العفو .. وبنفس هذه الاساليب واجه النظام باجهزة انشاها المستعمرون اصحاب الكلمة ، من كتاب وصحفيين وفنانين ، ممن يطالبون للشعب بحريته ودستوره ، وحقه في ان يقول كلمته في مقدراته من خلال نوابه المنتخبين انتخابا مباشرا حرا .

نراثان تقابلا في ذلك اليوم على ارض الواحات : كل التراث الرجعي العفن جاء يحمله حسن المصيلحي الذي عمل في خدمة الملك السابق وتدرب على ايدي الانجليز والامريكان ، وكل التراث النضالي الديمقراطي حملناه في مواجهته وعاد المصيلحي ، وما يحمله من تراث عفن ، مهزوما في ذلكاليوم .. عاد وهو على يقين اننا على استعداد ان نموت لكي تحيا الكلمة الشريفة .. لانها كلمة الشعب .

عاد وهو على يقين اننا على استعداد ان ياكل الرمل الاصفر لحمنا ،ولا ان نسلمه له لينهشه .. عاد وقد ترك لنا ، بهزيمته ، يوما مشهودا ،صار عيدا من اعياد الشيوعيين .

الفصل الثالث

الانسان ارادة

في شهر ديسمبر ١٩٦٠ ، وفي واحدة من زنازين السجن ، كان هناك حفل وداع ، كان الرفاق يدخلون في صمت ثم يجلسون في هدوء ونظراتهم تتجه الى واحد من اركان الحجرة ،حيث جلس علي زهران ، وهو عامل معتقل ، السرطان ينهش جسده .

كانت الكلمات قصيرة ومؤثرة ، وكان علي يبتسم للرفاق ويشكرهم بالكلمات الرقيقة ويعدهم بان يكون ابنا بارا من ابناء الطبقة العاملة ، في مواجهة المرض ، شجاعا في مواجهة العدو الذي مزقه شهورا طوالا في معسكرات القتل والتعذيب ...

كان المرض قد هدّ قواه ، وحول العامل الفارع ، القوي البنيان الى شبح يتحرك والآلام القاتلة تمزق احشاءه . .

كان الحفل بمثابة التأبين ، فسرنا حواليه الى باب المعتقل وهو يرفض ان يسنده احد ، ويبتسم ليوحي لنا انه بخير ، اما نحن فقد كان لدينا شعور يقيني باننا نشيعه وباننا نراه لاخر مرة . كان يشد على ايدينا ويحلم بالصحة ،ورؤية النيل والناس واطفاله وزوجته فلم يكن يعلم ان السرطان ياكل احشاءه ويجعل ايامه في الحياة محدودة .

وذهب علي زهران الى احدى المستشفيات بالقاهرة ولم يعد ، فقد افرجوا عنه ليلفظ انفاسه الاخيرة في بيته بعيدا عن مسئولية السلطات . .

اما المعسكر فقد كان يسير الى حافة بركان . العامل حسب الله مرسي يصاب « باليوريميا » ـ التسمم البولي ـ وتنقذه ايدي رفيق طبيب من موت محقق بمعجزة وسليمان سيدادروس يسقط وهو ينزف حياته قطرة قطرة، ورفاق كثيرون تهاجمهم امراض القلب ، والصدر ، والحمى الروماتزمية ،

وامراض الفيتامينات والمواد الغذائية الاساسية ، كالانميا ، والانهيار البدني، بلا مقدمات تجتاح المعسكر ، والحفاء والعري والسخرة ، الموت البطيء المنظم الجوع ، والاهمال المتعمد في علاج المرضى ، وشبح المجاعة يلمسه الجميع، وعلم الموت يرفرف فوق الرؤوس وافواج الرفاق المسجونين يذهبون الى القاهرة للافراج فيعودون الى اصفاد المعتقل، واستنكار العقيدة ثمن الخروج، والاعترافات والجاسوسية ثمن الحرية الكاذبة .

الابواب موصدة على المسجونين والمعتقلين : اما حياتك واما عقيدتك ، وفرجة الباب ضيقة للخونة والمرتدين والمستنكرين هؤلاء الذين اتعبهم طول الطريق واضنتهم وعورة مسالكه .

والعقيد حسن المصيلحي مستشار الرئيس لمكافحة الشيوعية ومن كبار المعادين للشيوعية والديمقراطية والذي تربى على ايدي « رسل الباشا » و« فيتز باتريك باشا » حكمداري القاهرة ومن رجال المخابرات البريطانية ايام الاحتلال . هذا الرجل يزور سجن الواحات ويواجه المعتقلين بسؤاله : هل انت شيوعي ؟ ويصفعه المعتقلون بجوابهم : نعم نحن شيوعيون . ويهرب المصيلحي الى القاهرة ليتوعدنا من هناك بالموت .

واليوزباشي « فتحي قته » ضابط المباحث العامة وعضو مكتب مكافحة الشيوعية يصل الى السجن ليقيم فيه متنكرا في زي واحد من ضباطه ويبدأ نشاطه المريب : التجسس على الزنازين ليلا .والاستماع الى ما يدور داخلها من مناقشات . استخدام السلم المتحرك للنظر من طاقات الزنازين وتكشف ما يجري بداخلها . الاتصال بالعناصر الضعيفة والمنهارة لتشكيل شبكة من الجاسوسية تمده بكل ما يحدث داخل العنابر والزنازين خلال اليوم . ثم استدعاء المعتقلين وعرض الاستنكار والتجسس عليهم مقابل وضعهم في قوائم الافراج المرتقب ثم يسافر اليوزباشي فتحي قته الى القاهرة ليعود ومعه عدد كبير من ضباط السجون وقوائم بتغيير توزيع المعتقلين والمسجونين على العنابر والزنازين .

لقد قصد بهذه العملية فرض تسكين معين علينا بهدف توزيع شبكة من الجواسيس في مختلف الحجرات ، وتجميع عناصر من مختلف الاتجاهات السياسية في مكان واحد ، لعل ذلك يوفر ارضية صالحة لنشوب المشاجرات وبلوغها درجة حادة من العنف ، خاصة وان المعتقل يضم اعضاء الحزب الشيوعي المصري وله موقفه المعارض لعبدالناصر كما يضم الجماعة المنقسمة على الحزب والتي تتبع خط المراجعة السياسية والمساندة المطلقة

للنظام الناصري .

كان اليوزباشي فتحي قته يتلصص بالليل ليسمع ما يدور في الزنازين ، وصدمه ان ما ارادته المباحث العامة لم يحدث ، لقد ادرك الحزب تلك اللعبة ، وشن هجوما فكريا مضادا لها ودعا الرفاق الى عدم الاستجابة لاية اعمال استفزازية ، وان يتخذوا من هذا السكن المشترك فرصة لفضح افكار تلك المجموعة المطرودة من الحزب ، ولكن باسلوب موضوعي بعيد عن المهاترات .

لم يخف ذلك اليوزباشي صدمته ، بل اعرب عن دهشته لاكثر من رفيق، لان معارك ما لم تنشب ، بل وصل به الامر الى ابداء دهشته البالغة لانه يسمع حفلات سمر وقصص واغاني .

لم يكن الهدف هو المشاجرات في حد ذاتها اذ ان ذلك كان شيئا ثانويا، بل كان الهدف الاصيل هو شل العمل الحزبي تماما وخلق ارضية مواتية للتفكك والتصفية السياسية ، كذلك كان هذا العمل علامة على جولة من الهجوم جديدة .

وسرعان ما عاد المسجونون والمعتقلون الى تسكينهم السابق رافضين التسكين الجديد ، معلنين انهم على استعداد لخوض اي معركة في حالة اي محاولة جديدة لارغامهم على العودة الى الوضع الذي ارادته المباحث العامة .

المنفى السحيق والمسافات الشاسعة من الصحاري لم تمنع صوتنا من ان يصل الى العالم ، ويهب الشيوعيون والديمقراطيون والشرفاء في كل مكان يدافعون عن المعتقلين السياسيين في الجمهورية العربية .. اصوات الشرفاء في موسكو وبكين في لندن وباريس في بيروت وفي امريكا اللاتينية تحتج على اعتقال السياسيين في مصر ومعاملتهم بذلك الاسلوب غير الانساني .

والواحة ارض من الشوك والثعابين ، في وادي الموت وسط بحر الرمال الاصفر الملتهب الخانق ، والوجود الانساني يقاتل من اجل البقاء في عناد واصرار ، واسطورة تنسج من خيوط الاحلام ، والمستقبل والاطفال والزهور ، والوادي وماء النيل ، والرخاء والحب والسلام ، والاحلام ارادة والانسان ارادة ، لن تكون بلادي غربتي ، والارض التي ولدتني لن تكون منفاي .. لن تكون القبر والنسيان ..

وصرختي نشيد .. اضراب ونداء .

وجدار الرمل الاصفر .. وجبال الاصفاد ، لن تحول دون ان يسمع العالم نداء الانســان .

وهكذا بدأ الاعداد لمعركة الاضراب عن الطعام ، بيانات الى كل الهيئات فــي مصر والعالم ، الى المدرسين والصحفيين والاطباء والادباء ، الىالنقابات والشخصيات العماليــة ، الى الامهات والاباء والاصدقاء .

ورغم العيون المغروزة في القضبان ، ورغم قبضات السجان ، قرات عيون الاصدقاء وعقولهم نداءاتنا ، فارتفعت قبضاتهم تؤازر معركتنا . وعبر الحصار المفروض علينــا سمعنــا اصوات الرفاق والاصدقاء تدافع عنا : راديــو موسكو ، وراديو بكين .. « الاخبار » البيروتيــة و« الاومانتيه » و« اليونيتــا » .وتشكلت لجنة لقيادة الاضراب عن الطعام من فخري لبيب، وطاهــر عبدالحكيم ، ونبيل زكي .

وفي المعتقل كان الرفاق يناضلون كي يكونوا في الدفعات الاولىوحتى المرضى كانوا يصرون على ان ياخذوا مكانهم في صفوف المضربين عنالطعام.

وفي ٤ يوليو سنة ١٩٦١ بدأت الدفعة الاولى للاضراب .. كانوا سبعة من الرفاق انهوا عقوبة السجن في مدد تتــراوح بيــن الخمس والسبــع سنوات ، ثم تحولوا الى معتقليــن لانهم رفضوا استنكار عقيدتهم .

وحددت الادارة زنزانة لعزل المضربين عن الطعام في عنبر اخرمخصص للسجناء من القتلة وتجار المخدرات وودعت تلك الدفعــة الاولى منالمضربين وهي في طريقهــا الى مكــان عزلهــا بالهتافات والاناشيد .

وفي طرف العنبر الذي نقيم فيه علقت صورة كبيرة رسمها فنـــان شاب مناضل : نجمة تلمع فوق الواحات ، ويد قويــة تنبض فــي عروقها ارادة الملاييــن من الاصدقاء تزيح اسلاك المعتقل .

وفي المساء عندمــا اضيئت انوار المعتقل والسجن ارتفعــت اصوات المسجونين والمعتقليــن تنشــد :

في ثورة علــى الطغــاه
والكادحــون حولنــا
نبنــي دعائم الحيــاه
من دمنا وعمــرنــا

والليل صامت ، وزئير النشيد يهز الجدران تحية للمضربين :

انهضوا وارفعــوا راسكــم
بالساعــد المفتــول

حطموا وجه اعدائكم
والفجر يبدو ينادي
هيا ارفعوا اعلامنا
قد خضبت من دمنا
هيا ارفعوا اعلامنا
قد خضبت من دمنا
بالساعد المفتول
حطموا وجه اعدائكم
والفجر يبدو ينادي
هيا ارفعوا اعلامنا
قد خضبت من دمنا

واليوم التالي ، يصفق باكف ملتهبة لنداء الديمقراطيين وانصار السلام والنقابيين الى مصر والعالم ، وهم ينضمون الى الاضراب :

« ان الحملة التي يشنها النظام الناصري ، هي حملة للقضاء على الديمقراطية والديمقراطيين ، للقضاء على حق التنظيم والتعبير ، انها حملة لسحق الكلمة الشريفة واعلاء الزيف والخداع . انه لا يخص الشيوعيين وحدهم ,وان كان لهم لديه النصيب الاوفى ،ولكنه يصب سخطه على كل من يريد تنظيما لحركة الجماهير ، على كل معبر عن ارادتها » .

انها اليوم معركة الديمقراطية .

وترتفع النداءات ، نداءات المعلمين ، نداءات الاطباء ، نداءات المحامين، نداءات الصحفيين ، نداءات النقابيين ، نداءات الطلاب .

ونداء المعتقلين جميعا .

« انها معركة ضد القتل المتعمد البطيء:انها معركة ضد محرقة الفكر والارادة ،انها معركة شعارها لن يمر شعار العدو ، سنحطم شعار « حياتك او عقيدتك » وسنرفع علم المنفى ، صليبا يطوف افاق العالم ، صلب عليه نظام عبدالناصر محمد عثمان ، فريد حداد ، البهناوي ، عبد التواب جبريل ، وعلي الديب ، وسيد امين ، رشدي خليل وكل الشهداء .. علم غمس في الدم وزين باروع التضحيات .

انها نداء للعالم ليتعرف علينا ، وعلى ما يدور في بلادنا ، وما يدور على ارض المعتقلات انها نداء للعالم ، ان بوخنوالد ، او شفتز ، وداخاو، تعاد على ارض النيل : الفيوم وابي زعبل والسجن الحربي ,والواحات .

انها نداء للعالم : بان السلطــة وان عجزت حتى الان عــن ان تقيــم محرقة للاجساد فقد اقامت ابشــع منهــا ، محرقــة الضمير والارادة : الاستنكار والاعتراف والتجسس والخيانــة .

انها نداء للعالم ، اننــا الحفاة العراة ، الواقفون على حافة الهاويــة السحيقــة من الموت جوعا وبلا علاج ، ناضلنــا بكل بسالة الانسان ، دفاعــا عــن حقوق الانسان ، وعــن الوجود الانساني .

انها نداء للعالم : انهفي النصف الثاني من القرن العشريــن وبينما الانسان صانع الحياة ، يغزو الكون والفضاء ، فان السخرة وسلاسلالعبيد، والشوم والكرباج ، والقتل الغادر ، والقتل العاجل والقتل البطيء هي اهم منجزات النظام الحاكم في مصر .

انها نداء للعالم : اننا ، من زج بنا داخل هذه المجزرة بلا قانون ، وبلا محاكمــة بلا عرف وبلا انسانية ، نحــن ضمير هذا الشعب وارادته الحرة ، سنقاوم الى النهايــة كل عدوان على هذا الضمير وعلى هذه الارادة .

ان معركتنا هذه نداء للعالــم .

فليتبدد دخان الاكذوبة التي روجها النظام : ان لا معتقلات وان الحجة تقــارع بالحجــة ».

***

اليوم الثامن من يوليو : الدفعــة الثالثة تبدأ الاضراب عن الطعام ،مائة واربعون مناضلا يدخاون الاضراب عن الطعــام دفعــــة واحــدة . وادارة المعتقل تعد عنبرا كاملا للمضربين الجدد والسابقين وعلى الوجوه بسمات ثقة واعتزاز ، والرفاق الذيــن سيغادرون العنبر بعد اخلائه للمضربين يودعوننا بالاحضان والمشاعر الجياشة . الصمت يغمر العنبر والابواب مغلقة ،وصوت مهيب رهيب ينطلق في تماسك هادئا ثم راعدا ، صوت باقي المضربيــن القادميــن من العنبر الاخر الى عنبر الاضراب :

ياشعــوب الشرق هــذا   وقت رد الغاصبيــن
فاركبوا الهــول الشدادا   واصطلوهــا باسلين
طال عهد النــوم فيكــم   والاعــادي ساهرين
انعيــــم وبنوكــــــم   في المنافي تائهيــن
شتتونــــا فــي المنافــي   واملأوا منا السجون
سوف تأتيكــم ليالــــي   برقها حتف المنون

ويدوي العنبر بصوت المضربين يستقبلون القادمين :

یاشعوب الشرق هیا لنضال لا یلین
سوف یحیا الشرق حرا رغم انف الغاصبین

المساء ، والسجن يضج بالاناشيد والهتاف من الرفاق غير المضربين في عنبر (١) تحيات وامنيات للمضربين في عنبر (٢) . واوامر الرفيق الطبيب وهو واحد من المضربين مشددة : الزم الراحة التامة ، وحافظ على كل قدر من جهدك ، فستحتاجه ، والصمت في عنبر الاضراب ، فقط تحيات من خلال قضبان الزنازين وبسمات ، وشعور بمواجهة المجهول ، ولكن العالم معنا والزنازين تفيض بالثقة الهائلة والقدرة على مواجهة كل الاحتمالات .

لقد فتش حرس السجن المضربين عن الطعام تفتيشا دقيقا ، ومنعوهم من اخذ معجون الاسنان ، فقط الملابس والبرش والبطاطين .

ان ادارة السجن ما كانت لتتصور ان هنالك اضرابا حقيقيا ، فاولئك المتخمون لم تكن هنالك قوة تقنعهم بان في قدرة الانسان ان يبقى اياما بلا طعام .

وتمر الايام ، ودفعات جديدة تغذي الاضراب من بينها دفعة من المناضلين الفلسطينيين دخلوا معنا الاضراب من اجل نفس الاهداف مضافا اليها احتجاجهم على انتزاعهم من وطنهم والقائهم في منافي مصر .

ويبلغ عدد المضربين عن الطعام مائة وستة وتسعين مضربا .

اليوم التاسع من يوليو . وصل الى السجن ضابط كبير برتبة اميرالاي يرافقه ضابط برتبة يوزباشي من مصلحة السجون وطبيب وعدد من الممرضين ، وكذلك نائب الاحكام العسكري في منطقة الواحات الخارجة لتسجيل محضر بالاضراب . ويطلب الاميرالاي مقابلة مندوبين للتفاوض ، وفي لحظات تحسم المناقشة ، قال انه يساوم على الاضراب ،وان الحكومة لا تستجيب لاي مطلب الا اذا « حل » الاضراب ، وكانت المساومة في حدود تحسينات تافهة في حدود المعاملة المحلية لا تمس جوهر القضية ولا جوانبها الاساسية . وحددت له نيابة عن اللجنة القيادية وعن مجموع المضربين اهداف الاضراب على النحو التالي :

« الافراج عن المعتقلين ،وحتى يتم هذا نطالب بالغاء السخرة ووقف سياسة الاستنكار الاجرامية والتعهدات بعدم الاشتغال بالسياسة ، والافراج عن المسجونين الذين ينهون الفترة المحكوم بها عليهم ، ومحاكمة المسئولين عن جرائم التعذيب والقتل » .

ويتقبل المضربون هذه النتيجة بالتأييد الكامل .

ويصدر الطبيب القادم من مصلحة السجون امرا بسحب البطاطين من المضربين ما عدا واحدة بحجة ارسالها للتبخير ولكنه في واقع الامر ينفذ عقوبة على المضربين ، وهكذا يصير كل مضرب ، وكأنه ينام على الارض مباشرة . ويحتج المضربون ويواجهون الطبيب بكذبه وخيانته لشرف مهنته .

وتدخل دفعة جديدة وكأنها رد على وعد ووعيد القادمين من القاهرة ، وتعود المفاوضات مع قائد المعتقل وضباطه والاميرالاي ويوزباشي مباحث السجون يرقب اقوال المضربين ، ولا جديد ، كل لزم مكانه .

والطبيب لا يقدم التقارير عن حقيقة حالة المضربين ، فهو يسجل انهم في حالة طيبة وواقع الامران الاضراب يدخل في اليوم الثامن وحالة المضربين الصحية تسير من سيء الى اسوأ ، ويقاطع المضربون الطبيب ويمنعونه من دخول الزنازين . والطبيب جاهل ولص ومرتش وجبان ، وهذه الصفات المعروفة لرؤسائه جيدا هي التي اهلته ليكون طبيب الحكومة للاشراف على المضربين .

ويعتذر الطبيب ، ويقرر انه سيقدم تقارير حقيقية عن حالة المضربين، ولكنه يعود الى جولة جديدة ، انه يناقش في السياسة وفي ضرورة تأييد الحكومة والخروج من هذا الموت بتنفيذ رغباتها، فيسبه المضربون ويطردونه.

دفعات جديدة تتوالى ، دماء جديدة تغذي الاضراب وعيون الرفاق غائرة ، ووجناتهم بارزة ، والكثيرون منهم صار في حاجة لمن يعتمد عليه حتى يصل الى دورة المياه . ولكن شيئا ما يضيء وجوههم ويلمع فيها . بسمات زاهية وعيون تومض وكأنها تستمد ذلك البريق من شيء عميق في اعمق اعماق الانسان ، قدرته على ان يقبض على مصيره بيده .. في هذا المكان تعيش ارادة الانسان .. والزنازين تعبقها اساطير النضال الشعبي وبطولات المناضلين ، فوتشك ، بيريه ، وابطال مدريد واثينا ومسيرة المناضلين الصينيين الكبرى ، وثوار اكتوبر وشهداء اول مايو . كل ليلة كان المضربون يستمعون من بعض رفاقهم الى واحدة او اكثر من هذه القصص .

والنائب العسكري يسجل محضر الاضراب ، يسجل فهمنا السياسي للنظام الناصري ، يسجل اوردي ابي زعبل والفيوم والواحات والسجن الحربي ، والشهداء واحدا بعد الاخر يبعثون احياء ، تاريخهم وتضحياتهم ونضالهم وجريمة قتلهم ، وصفحات المحضر تترى حتى تبلغ تسعمائة صفحة

من الحجم الكبير . (١)

القاهرة تتابع الاضراب يوما بيوم والسجن ليس جدارا ، ولكنه الان فوهات مدافع سريعة الطلقات وبنادق ، لقد حوصر من كل مكان استعدادا لاي طاريء ، فصحة المعتقلين المضربين في تدهور متزايد ، ومن المحتمل في اية لحظة ان يسقط من بينهم شهداء وان ينفجر الموقف .

وعنبر الاضراب محاصر بفرق القنابل المسيلة للدموع ، والاسلحة سريعة الطلقات ، وكذلك عنبر (١) حيث الذين لم يدخلوا الاضراب .

اليوم الرابع عشر والاجساد قد ازداد هزالها ونقل الى المستشفى حوالي اربعين مضربا حالتهم تنذر بالخطر ، وهناك يرفضون اي علاج ، واما المعنويات ففي ذروتها.ان نداءنا قد بلغ العالم ، وصرختنا قد حطمت ستار الرمل الاصفر ، الى النيل الحبيب ، الى كل العالم ، لقد حقق الاضراب هدفه ، فالواقع الحي يدحض الاكذوبة والعالم قد عرف كيف يعادي هذا النظام الفكرة ، وكيف يقف اصحاب الفكرة في بسالة ضد عدوان النظام عليهم .

اليوم الخامس عشر : مندوب عن رئاسة الجمهورية ، يصل الى السجن قادما من القاهرة وتستمر المفاوضات حتى الساعات الاولى من اليوم الجديد ، ويسجل محضر كامل بالمعاملة التي واجهناها . وسؤال حائر ينطلق على شفاه المسئولين من حين لاخر . : لماذا اضربتم في هذه الظروف ؟ ، او كنتم على موعد مع الحملة التي قامت في العالم من اجلكم ؟.

واجابة منا واضحة : ان الحملة العالمية من اجلنا ، سواعد من فولاذ تساندنا . . . نحن جزء من نضال العالم في طريق السعادة الانسانية . . اننا مع عالم التقدم وعالم التقدم معنا .

---

(١) نائب الاحكام العسكري لمنطقة الواحات الخارجة، اليوزباشي وحيد ابو العلا ، كان ضابطا في اللواء السادس مدرعات ، الذي جرت فيه آنذاك حملة تطهير واسعة بتهمة انه « لواء احمر » ، وكان نصيب هذا الضابط من حملة التطهير انه نقل للواحات الخارجة ، وعندما تقرر انهاء الاضراب ، وذهبت لابلاغ ٥٠ رفيقا كانوا قد نقلوا الى المستشفى بذلك ، كان هو موجودا هناك ، ثم جاءته رسالة عاجلة ابلغني بمضمونها وهي ان القيادة العامة تستدعيه الى القاهرة ، وانه يعتقد ان ذلك يعني محاكمة عسكرية له . ـ تقبلت ما قاله في تحفظ ، وتمنيت له التوفيق ، ولكنه كان صادقا في توقعاته ، فحالما وصل القاهرة جرد من رتبته العسكرية والقي القبض عليه ووضع في السجن الحربي دون محاكمة حتى ١٩٦٦ .

وينتهي الاضراب في مجموعه في اليوم السادس عشر .

والاضراب المنتصر نداء للعالم ، وصفعه لكل سياسة التصفية والاستنكار . ان هؤلاء الذين واجهوا الموت الجاثم فوق ابي زعبل ، والحرب النفسية والمعنوية في الفيوم والكلاب المسعورة في السجن الحربي ، والسخرة في الواحات ، يعلنون في وجه النظام صمودهم البطولي ، وان شيئا من هذا لم ولن ينال من عزيمتهم واصرارهم .

وتوقفت السخرة وسمح لنا باستخدام الملابس الداخلية وانتعال الاحذية ... ركنان اساسيان من اركان خطة التصفية هدمهما الاضراب : السخرة والقدم العارية .

وادارة السجن ، من ضباط ، وصف ضباط ، وجنود ، والنزلاء العاديون يرون الاسطورة تتحقق امامهم ، ارادة الانسان تتجسد في هؤلاء المضربين ، التضحية بالحياة من اجل الحياة .

والاضراب المنتصر يرفع علم الاصرار فيوجهشعار : (اما حياتك واما عقيدتك) الذي رفعه النظام في مواجهتنا ، انه يبصق على علم التصفية الرث . والاضراب المنتصر راية منقوش عليها بتضحيات المئات وبعشرات السنين التي دفعناها من عمرنا « لن تمر المؤامرة » لن تنتصر المحرقة .

والاضراب المنتصر ، امل لشعبنا ،وقد مالت المأساة بجناحها وعربدت في ظلالها كل الخفافيش ، ان اولئك الذين يحملون للشعب تراثه امناء على هذا التراث ، وسيأتي اليوم الذي ينطلقون فيه حاملين النور ليبددوا ظلام المأساة وليطردوا الخفافيش .

الجزء السادس

الكلمة المسمومة

الفصل الأول

للمرتد وظيفة

كان ابو الهول الذي لاقاه « اوديب » على اسوار مدينة « طيبه » يقتل من لا يستطيع ان يجيب على سؤاله : « ما هو الشيء الذي يمشي في الصباح على اربع ، وفي الظهيرة على اثنين ، وفي المساء على ثلاثة ارجل ؟» .

اما ابو الهول الذي نصبه نظام التكنوقراط على ابواب الحياة في بلادنا، فيقتل من يجيب ومن لا يجيب على سؤاله : « هل تستنكر الشيوعية ؟ هل تعترف ؟ » من قال « نعم » اخرجه الى الحياة خرقة بالية ، يلعق ما تبقى من ايامه تحت اقدام النظام ورجاله ، ومن قال : لا ، اعاده الى المنفى ، ليواجه الموت البطيء .

ان اي نظام يريد ان يلوي عنق التاريخ ويرسم له مسارا تعسفيا ، لا بد وان يحارب الحقيقة ، فالحقيقة الى جانب الشعب ، مع حقه في ان يأخذ قضاياه بين يديه ، مع حقه في حكم نيابي سليم ، ودستور ديمقراطي ، والحقيقة تفترض حق الناس في ان يعرفوا ماذا يراد بهم ، وان يقولوا ماذا يريدون ، ان يعرفوا اي طريق تسير فيه البلاد ، واي طريق يريدونه هم لكي تسير فيه البلاد ، والذين لا يستطيعون الا العمل في الظلام ، بعيدا عن رقابة الشعب ، لا يطيقون النور ، والذين لا يحترمون ارادة التاريخ ، لا يطيقون المعرفة ، والذين يكرهون الحقيقة يجدون انفسهم في حاجة الى نظرية زائفة تبرر وجودهم التعسفي ، والنظرية في حاجة الى اقلام ماجورة تحملها الى الناس . ومنذ وجد الناصريون في نهاية سنة ١٩٥٨ انهم مجبرون على خوض معركة احتكارهم للسلطة في وجه معارضة الجماهير ، بدأوا يبحثون عن تلك الاقلام المأجورة التي تسطر لهم تلك النظرية الزائفة .

لقد كان لهم رجالهم الذين باعوهم اقلامهم من زمن ، ولكن هؤلاء كانوا

مفضوحين ، مما دفع النظام للبحث عن اقلام جديدة يكون لها رصيد من ثقة الجماهير .

ان اغراء المال من جانب وسعار الحملة ضد الشيوعيين والديمقراطيين من جانب اخر ، وسيف الاعتقال المسلط على رقاب الجميع ، كل هذا ادى الى ان تسقط في يد النظام بعض الاقلام التي ساندت الشعب في مراحل كفاحه السابقة وكانت لذلك عزيزة عليه . كما تهاوى بين ايديهم فنانون كانت لهم مكانة كبيرة في صفوف شعبنا .

ثم تصيد النظام من بين المعتقلين بعض المفكرين والكتاب بعد ان اذاقهم ويلات الفيوم والاوردي ، ليفرض عليهم ان يضعوا اسماءهم على صفحات صحافته التي اصابها الهزال . كما وجد رجالا تخلوا عن كل تراثهم الفكري .. وعن كل التزام لهم بشرف الكلمة .. وعن كل القيم التي تكونت لهم من خلال ثقافة حرة ، ارتبطت بكفاح طويل من اجل الحرية . ليقدموا الزيف للشعب على انه الحقيقة خرجوا لينفثوا سمومهم على صفحات الجرائد والمجلات:ثلاثة من المرتدين،« المطيعي »،حسني ناتان ، حمدان الذين اشتروا حريتهم بالارتداد والعمالة للمباحث العامة ، نامع اسمؤهم اليوم في جريدة المساء على نفس الصفحات التي كانت تمتلىء يوما بكتابات الشرفاء من امثال : خالد محي الدين . سعد التائه ، وبقية اسرة تحرير المساء .

المرتدون تفتح لهم صفحات جريدة « الجرائد » المستنكرين المحتاون من امثال عبدالمنعم صبحي يتقيأون وجدانهم المتآكل ، واوراقهم المهترئة على ثقافة شعبنا وحضارته .. وللمرء ان يحكم : أي فكر هذا الذي لا يجد الناصريون من يروج له ، سوى هؤلاء المنهارين المتعبين الذين خطوا بايديهم تنازلهم عن حقهم في حرية العقيدة ، واشتروا وجودهم بالركوع امام المباحث العامة .

ولئن كان هؤلاء يستطيعون ان يقذفوا بالكلمة المسمومة في وجه شعبنا من صحف النظام واذاعته ، فالعشرات ممن استنكروا الشيوعية ، وقدموا اعترافات بكل معلوماتهم عن الشيوعيين ، سواء ما عرفوه في تاريخهم السياسي ـ ان كان لهم تاريخ ـ او ما عرفوه داخل المعتقل ، ان لم يكن لهم سابق صلة بالعمل السياسي ، هؤلاء لم تتركهم المباحث العامة وشانهم ، فابواب الرزق المغلقة امامهم ، والمنفى ، والتهديد بالعودة اليه ، كل ذلك جعلهم ادوات طيعة في ايدي المباحث العامة .. انها تدبر لهم الاماكن التي يعملون بها . ولكي تطوعهم على حياة التجسس والعمالة، عليهم

ان يكونوا عيونا لها هناك ، وان يقدموا لها تقارير دورية عمن يعملون معهم .. اية تقارير حتى ولو تحوي اية معلومات لا دلالة لها .. المهم .. ان يمارسوا مهنة التجسس . ولكن عليهم ان يقوموا بمهمة اخرى تلك هي ان يساهموا مع المباحث في الحصار النفسي ، الذي تفرضه على المعتقلين . ان عليهم ان يواصلوا قذف عائلات المعتقلين بالكلمات المسمومة ، ان يثيروها ضد من هو معتقل من افرادها ، وان يحولوها الى احتياطي للمباحث العامة في خطتها لتصفية المعتقلين سياسيا .

ان كل واحد من هؤلاء حددت له المباحث عددا من الاسر ، ممن كانت له بها سابق صلة ، ومهمته هي ان يدفع تلك الاسر الى تحويل كلماته السامة الى خطابات مسمومة يرسلون بها الى ذويهم المعتقلين .. وهذه فقط هي الخطابات التي تسمح المباحث العامة ـ كأستثناء ـ بان تسلم للمعتقلين .

« خطيبتك تريدك »

ممتاز حسين فرغلي ، مناضل في مقتبل العمر من كلية دار العلوم ، توطدت الصداقة بينه وبين طالبة زميلة له في الكلية ، كانت نضاليته تضفي على شخصيته من الملامح الطيبة ما حببه اليها ، وكسب له احترامها واعزازها ، واتفقا على الزواج بعد التخرج الذي كان وشيكا .. ولكنه يعتقل .

وتمر سنوات ثلاث ، وبشكل ما او بالاخر ، كانت تصل منها كلمة .. تقول له فيها انها تنتظره ، وستظل تنتظره ، ومهما طال الزمن فانها تريده ان يخرج اليها رجلا .

ثم بدأ واحد من هؤلاء الافاعي يتردد على اسرة ممتاز ، وتبتلع اسرته سم الافعى ، ان الابن لكي يخرج ، يجب ان يلين عوده ، ويكتب سطورا للمباحث ، ولكن لكي يلين عوده ، يجب ان يحس ان بقاءه في المعتقل سيجلب عليه خسارة اعز الناس اليه ... ويتسلم ممتاز خطابا من اخيه يقول فيه :

« ارجوك يا اخي ان تشد حيلك ، وتعمل قصارى جهدك للخروج لاجل خاطرنا وخاطر والدك الذي يبكي ليل نهار عليك . ارجوك يا اخي ان تخرج لاجل خاطر (...) خطيبتك وموقفها الحرج ، فان اهلها يريدون ان يزوجوها ، وهي زعلانة منك كثيرا فلا تخيب آمالها ومستقبلها لانها ضحت بعرسان كثر ، واصبحت في موضع حرج . » .

« خطاب من جاسوس »

وفي مدينة الفيوم ، سعى واحد من هذه الافاعي التي اطلقها

« المصيلحي » على عائلات المعتقلين ، وراح ينفث سمومه ، ففور خروج واحد من المرتدين يدعى « صليب ابراهيم » انهال على بعض المعتقلين من ابناء مدينة الفيوم سيل من تلك الخطابات السامة .

العامل الميكانيكي « رمضان شمبولية » يصله من شقيقته خطاب تقول فيه :

« ان والدك قد اصيب بالشلل ، واصبح لا يستطيع الحركة ، والجراج الذي كان مصدر رزقنا قفلناه واصبحت الحياة صعبة جدا ، فلا يوجد احد يعول الاسرة من بعده » .

وترسل ام « صفوت حماد » من مدينة الفيوم ايضا خطابا تقول فيه: « ولدي صفوت .. مضت ثلاث سنوات ونحن في انتظارك ، وللان لم نرك، فماذا تنتظر يا صفوت .. ماذا تنتظر من امك التي لا حول لها ولا قوة وهي وسط اطفال صغار لا تدري ماذا تفعل ، لقد مات والدك ولكني لم اياس ، قد عوضني الله بك واعتمدت عليك في تربية اخوتك الصغار ولكنك تركتنا وآثرت الحياة مع هؤلاء الكفرة الملحدين الخونة الجبناء ، لقد كان والدك رجل دين يا صفوت .. الا تخاف على عرض امك وعرض اختك التي كبرت، الا تهتم باخوتك الذين يقاسون من العري والجوع .. اعلم ان ما كان يجود علينا به الاقارب قد منعوه ولم يعد احد منهم يسأل عنا ، فاترك هؤلاء الكلاب المنحلين .

ان دينك ووطنك واهلك ينادونك فلا تتأخر ، وان زملاءك قد خرجوا واستلموا اعمالهم . واعلم اننا نعيش فيعهد جديد يعمه الخير فاخرج لكي تساهم في بناء الوطن » .

والدتك

حبيبة عثمان

ان الامم تتحدث عن « الزملاء » الذين خرجوا واستلموا اعمالهم وليس هناك من خرج من المعتقل من ابناء تلك المدينة الا ذلك الجاسوس « صليب ابراهيم » الذي انفضح في اخر ايامه بسجن الواحات كأحد عيون الادارة على الشيوعيين . والابن يؤكد ان الخط الذي كتبت به تلك الرسالة ليس خط امه . بل ويجزم بان الخطاب كتب بيد ذلك الجاسوس .

« زوجة بين الافاعي »

ان دور هذه الافاعي لا يقف عند حد املاء تلك الرسائل المثيرة لقلق المعتقلين على الخطيبة وعلى الام او الاب او الاطفال الصغار او على عرض

الاخت ، بل يذهبون في وضاعتهم الى تخريب العلاقة بين الزوج وزوجته .

فما كاد « النقابي » المرتد « ابراهيم شرف » يفرج عنه ، حتى كان من بين مهامه التي كلفته بها المباحث ، السعي لدى زوجة العامل « ابراهيم موسى » السكرتير السابق لمجلس ادارة نقابة عمال نسيج القاهرة وضواحيها . ويصر المرتد « ابراهيم شرف » على ايغار صدر الزوجة على زوجها المعتقل . لقد كان « ابراهيم موسى » يتلقى من زوجته ، بصورة او باخرى ، ما يفيد تفانيها في خدمة ابنائه مهما طال الزمن ..

قالت له في احد خطاباتها :

« عزيزي وحبيبي ..

تحية طيبة ، تخرج من اعماق قلبي ، وشوقا زائدا لرؤياك والتمتع بوجهك الصبوح ... انني اعتبرك معي ، ولا يفارقني خيالك ، وخاصة الاولاد ، وبالمناسبة احب ان اعرفك بان « عصمت » في السنة الثانية اعدادي ، واخوه في السنة السادسة ، و « علاء » « وعنايات » بالفرقة الثالثة ، و « عاطف » بالسنة الاولى ، وهم جميعا بخير ، ولا يكن عندك اي شاغل من جهتنا .. عزيزي .. لقد مضت مدة كبيرة على فراقنا . ومنذ هذه الايام وانا افكر فيها وفي السعادة التي غمرتني بها ولا يسعني الا ان القول :

« فوالله ما كان البعاد بخاطري   ولكن هكذا حكمت بيننا الايام »

ان هذه الافاعي تلتف بالزوجة الوفية المخلصة ، وينفردون بها وهي غير مسلحة بشيء ضد سمومهم الا ذكريات حياة ماضية كانت الزوجة تغالب بها عبء اعتقال زوجها ، وما تحملته من مسؤوليات ضخام ازاء اطفالهما وتربيتهم . وتسري سموم تلك الافاعي في دماء الزوجة ، ويجري قلمها بكلماتهم المسمومة ، فتقول لزوجها في خطاب سمحت المباحث بتسليمه للزوج :

« عزيزي ..

لقد وصلنا خطابك ، وحمدنا الله على صحتك ، وسالنا الله عزت قدرته ان تعود الى رشدك وتفيق من سكرتك وتكون واقعيا ، وتنظر الى الدنيا بمنظار ابيض وتخلع ذلك المنظار القاتم الذي لبسته زمنا طويلا وكان سببا في حرمانك من اولادك وفي تربيتهم بعيدا عنك ، محرومين من عطف الابوة مع وجودك ، فكن – يا عزيزي – واقعيا واعلم انك لن تغير شيئا ابرمه الله .. ان اولادك يعانون من شظف العيش ومر الحياة ويعانون من

جراء اليتم الذي هو من صنع يدك .

ابنك عصمت انتقل الـى ثالثة اعدادي والحمد للـه وذلك بفضل مجهودي المالي والادبي والجسماني . وعزت دخل الامتحان خالي الذهن لانه مستهتر بسبب الحرية الفوضوية التي منحتها له منذ طفولته ، امـا بقية اخوته فهم يسيرون سير السلحفاة ، على كل حال ، انا التي جني علي ، فانا كالشمعة احترق لاضيء لغيري .

اما الحالة المعيشية فاعباؤها ثقيلة وخصوصا على من ابتلاه اللـه بابناء ستة لا مدد لهم ولا عون سوى راتبي البسيط ، هذا حظي من الدنيا، حظي ان يحترق شبابي في خدمة غيري ، ويا ليتني اكافأ . »

ما ابشع الجريمة ، ان الزوجـة التي كانت ترسل التحيات والاشواق، وتعيش في ذكرى السعادة التي فاض عليها بها زوجها ، تغير لهجتهـا فتتهمه بانه تسبب في يتم اطفاله وهو على قيد الحياة ، وانه فـي سكره وفي غير رشده .. الزوجة التي كانت تتحدث في اعتزاز عن تقدم اطفالها في الدراسة ، تقول اليوم انهم يسيرون سير السلحفاة ، وان احـدهم مستهتر بسبب تربية ابيه ...

الزوجة التي كانت تقول : « لا يكن لك شاغل من جهتنا » تتحـدث اليوم عن شبابها الذي يحترق في خدمة « غيرها » و« غيرهـا » هذا هـم « ابناؤك » وانها لا تكافأ .

ان جريمة تلك الافاعي وموجهيها تصل قمتها حينما يواصلون الوقيعة بين زوجات المعتقلين حتى يصل الامر الى الطلاق .. عشرات الزوجـات ارسلن الى ازواجهن طالبات منهم الاستسلام والخروج والا الطلاق، وانتهى الامر بالطلاق .

« حتى الاطفـال »

ولكن الذي يفزع له الضمير حقا هو ان تمتد انياب تلك المخلوقات الكريهة الى الاطفال لتشوه العلاقة بينهم وبين ابائهم ، وتمزق اعز الروابط الانسانية .

الطفل « عمر » الذي كان يعيش ومثلاه الاعلوان في الحياة هما امه وابوه ، يزوره المرتد « رشاد خميس » وينفرد به فى غيبة امه المعتقلة فى سجن القناطر ، وابيه المعتقل في سجن الواحات الخارجة ، ولا يتركه الا وقد كتب الطفل الى امه المناضلة « انتصار » خطابا يقول :

« عليك ان تقومي بتنفيذ المطلوب منك ، لتخرجي ، لان اولادك محتاجون اليك ، خصوصا « هشام » الصغير .. ومن غير المعقول ان تبقي في السجن انت وزوجك ، واولادك وحدهم في الخارج » .

الطفل يخاطب اعز مخلوق لديه بعبارات تبين مدى التمزيق الذي اصابوا به صورة الام والاب في ذهن ابنهم .. الطفل يقول لامه : « انت » ويتحدث عن اخوته ، فيقول « اولادك » ويحدثها عن ابيه بقوله « زوجك ».

« بابا ... لا احبك »

وتبذل محاولات شتى من جانب اخوة الصاغ صيدلي محمود القويسني عضو المجلس القومي للسلام لدى السلطات للافراج عنه ، وتشترط السلطات ان يبدأ « القويسني » من جانبه باعلان تأييده من المنفى لسياسة « الرئيس » عبد الناصر ، وتفشل تلك المحاولات ، وبايحاء من السلطات تلقى الكلمات المسمومة في اذني ابنته « اماني » وترسل له هذه الطفلة البريئة تقول :

« انا ما بحبكش يا بابا ، علشان انت مش عاوز تيجي لنا ، ومش معقول انك تقول بانك تحبني وانت مش عاوز ترجع لنا ، لو كنت بتحبنا صحيح ، زي ما بتقول ، كنت لازم ترجع لنا لكن انت ما بتحبناش ، وانا علشان كده ما بحبكش » .

ان مثل هذه الكلمات ، كلمة « ما بحبكش » من طفلة لابيها . لاقسى عليه من حكم الاعدام .. ان الاب يتلقى تلك الكلمات طعنات في صدره .. ابنته .. انفردت بها الافاعي ، انهم لا يحرمونها من حنانه ، ولا يحرمونه من حنانها وحبها وحسب ، بل يقتلونها كابنة ، حينما يمزقون علاقاتها بأبيها على هذا النحو ، حينما تعيش وتكبر ، وقد وضعوا في ذهنها ان اباها لا يحبها وانه قد اهملها ، وانها لا يجب ان تحبه .. ولتتعذب الطفلة ولتنهشها تلك الافكار الوحشية التي زوروها في راسها ، ولتبكي كل مساء قبل ان تنام اذ تنتظر قبلة الاب فلا تاتي .. لان اباها « لا يحبها وقد اهملها » ولتمزق الحسرة نفسها الغضة ، كلما رات ابا يحمل طفلته ، او يسير بها يدها في يده ..ان يدها الصغيرة تمتد لكي تمسك بها يد ابيها، فلا تجدها .. « فهو لا يحبها » وهو « قد اهملها » ...

ولتتمزق كل القيم الجميلة التي تنبت حول عاطفة البنوة والابوة ، ولتنبت مكانها المرارة ، والتمرد ، والحقد ، والكراهية ، « فابوها لا يحبها »

« وابوها قد اهملها » ... هكذا علموها .. وهكذا يعلمونها .

والاب مغلول اليدين في الواحات ، يراهم يقتلون ابنته ، ولا يستطيع حراكا ، كيف يكتب اليها شارحا الموقف ؟.. واذا استطاع ان يكتب لها ، فكيف ستفهم ؟.. انها ما زالت طفلة ، ولا تفهم ما هي الثورة ، وما هي الديمقراطية وما هو التسلط ، وما هو الاستبداد ... لن تفهم ماذا تعني كلمة العقيدة ، وماذا يعني ان يستنكر المرء عقيدته .

« حكاية قديمة »

ان قصة الصاغ صيدلي محمود القويسني وابنته اماني التي يحاولون الانتقام من ابيها في شخصها قد تكتمل دلالاتها ، حينما توضع في اطار الصورة الاكبر ، الا وهي قصته هو نفسه مع رجال ٢٣ يوليو . ان علاقته بالضباط الاحرار ترجع الى عام ١٩٤٩ حينما انضم الى احدى تشكيلاتهم، وعمل في تنظيمهم الى ان فصل من الجيش في يونيو سنة ١٩٥٤ .

ومنذ بدأت الثورة ، اخذ مكانه الى جانب ذلك الفريق من الضباط الذي كان يرى ان خلع الملك فاروق يفتح الباب امام الشعب لكي يمارس حرياته بشكل افضل عن ذي قبل ، وعليه فلا بد من اطلاق الحريات واقامة حياة دستورية ودعوة الشعب لانتخاب ممثليه .

تأزمت الامور في مجلس قيادة الثورة حول هذا الموضوع في ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٤ ، وابعد اللواء محمد نجيب من مجلس الثورة ومن رياسة الجمهورية ، وكان « القويسني » واحدا من عشرات الضباط الذين تجمعوا من مختلف الاسلحة في ذلك اليوم بثكنات سلاح الفرسان الذي يقع في مواجهة القيادة العامة للقوات المسلحة حيث كان مجلس الثورة مجتمعا لمناقشة الوضع . ومما يذكر ان الصاغ خالد محي الدين ممثل الاتجاه الديمقراطي في مجلس الثورة وقتذاك ، كان واحدا من ضباط سلاح الفرسان . وفي تلك الظروف كان الصاغ « القويسني » من الضباط النشطين في تجميع رأي عام قوي داخل الجيش حول قضايا الديمقراطية.

في ذلك اليوم حاصرت المدفعية ، بامر من جمال عبد الناصر ، مبنى سلاح الفرسان ، وتوجه عبد الناصر الى الضباط المجتمعين في سلاح الفرسان ، وكان على راسهم اليوزباشي المهندس جمال علام من سلاح الصيانة . كان الوقت بعد منتصف الليل ، وتصدى الضباط لجمال عبد الناصر معلنين تمسكهم بكلمة خالد محي الدين : **« ان الشعب هو الذي املى علينا الثورة ، ومن حقه علينا ان نطلق جميع حرياته »** .

لقد اعلن الضباط في تلك الليلة رأيهم الحازم في ضرورة حل مجلس الثورة ، وعودة الجيش الى ثكناته ، ودعوة الشعب لانتخاب برلمانه ورئيس جمهوريته ، والغاء الرقابة على الصحف فورا ، وتراجع جمال عبد الناصر امام اصرارهم ، وعاد الى مجلس الثورة حيث اوفد خالد محي الدين لاحضار اللواء محمد نجيب الى المجلس ، وكان المجلس قد حدد اقامته بمنزله في ذلك الوقت .

وفي منتصف مارس سنة ١٩٥٤ ، كان « الصاغ القويسني » واحدا من الضباط الذين نشطوا في الاعداد لمؤتمر ضباط الجيش الذي عقد بنادي الضباط بالزمالك وحضره ١٠٠٠ ضابط من مختلف الاسلحة، واتخذ قرارا جماعيا بعودة الجيش الى ثكناته ، وحل مجلس الثورة ، واقامة حياة ديمقراطية ، ودعوة الشعب لانتخاب ممثليه وحكامه .

ازاء ذلك التصميم من مختلف الاسلحة ، اصدر مجلس الثورة قراراته المشهورة في ٢٥ مارس سنة ١٩٥٤ ، بعودة الجيش الى ثكناته وحل مجلس الثورة وتسليم الحكم للمدنيين .

الا ان امرا اخر كان يدبر في الخفاء ، فاذا بعبد الناصر - عن طريق جهازه السري الخاص - يدبر اضرابات وهمية من جانب عمال السكك الحديدية والنقل ، وواقع الامر ان رجال البوليس الحربي قد احاطوا بالمخازن والورش الاساسية ، ومنعوا خروج القطارات والترام وسيارات الاتوبيس ، واذيعت بيانات بالراديو نسبت الى بعض النقابات تطالب باستمرار مجلس الثورة .

واجتمع مجلس الثورة في ٢٨ مارس سنة ٩٥٤ ، في غيبة خالد محي الدين وبعض الاعضاء ممن يحملون اتجاهه ، واتخذ قرارا بالغاء قرارات ٢٥ مارس وببقاء مجلس الثورة ، وصدرت الاوامر الداخلية في الجيش بانه « على الضباط عدم الاشتغال بالسياسة والالتزام بقانون الاحكام العسكرية ، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للعقاب » .

وفي ١٢ ابريل ، استدعى جمال عبد الناصر مجالس ادارة النقابات المهنية لمناقشتها في الامر ، وكانت كلها قد سبق ان ايدت قرارات ٢٥ مارس بحل مجلس الثورة واقامة الحياة الديمقراطية . وجاء دور نقابة الصيادلة ، وكان (القويسني) بصفته صيدليا عضوا بمجلس ادارتها . طلب منه عبد الناصر ان يتكلم ، فقال القويسني : « انني متمسك بآخر منشور اصدرته قيادة الضباط الاحرار وانت على راسها قبل حركة ٢٣

يوليو ، نطالب فيه بالغاء الاحكام العرفية واعادة الحياة النيابية الدستورية، واذا كان قد حدث ما حولك عن التمسك بما جاء في هذا المنشور ، فلم يحدث بالنسبة لي ما يحولني عن ذلك ، وما زلت ارى ان هذا هو الطريق الذي يحقق للبلاد مصالحها العليا » .

كان القويسني مكلفا بمهمة في المملكة السعودية ، فاستقل اول طائرة في فجر اليوم التالي ، ولم تكد الطائرة تصل الى جده ، حتى وصله نبأ بان منزله قد فتش وانه مطلوب القبض عليه ...

« مسألة اخلاق »

لقد سمحوا له بعد ذلك بالعودة الى مصر ، وفور وصوله توجه الى المستشفى العسكري العام التي كان يشغل منصب اركان حربها ليصرف مبلغا من المال كان متبقيا له فيها ، اذ انه كان قد فصل من الجيش ، وهناك التقى « بالبكباشي » احمد انور قائد البوليس الحربي ، الذي بادر « القويسني » بقوله : « انت عارف انت اتفصلت ليه من الجيش » ؟ فرد القويسني : « اذا كنت تعرف السبب فاخطرني به » ، فقال البكباشي احمد انور « لانك شيوعي ابن كلب » ...

فلما طلب منه « القويسني » ان يتحفظ في كلامه ، هجم عليه كالوحش الضاري محاولا ضربه ، لولا ان تدخل بينهما ضباط المستشفى .
وهنا مسألة لها دلالتها الاخلاقية ..

ذات ليلة قبل ذلك بعدة اعوام في عام ١٩٥٠ ، وصلت الى مستشفى العريش العسكري اشارة من محطة « القصف » : اشارة تلفونية تقول ان القطار قد توقف وان به سيدة هي زوجة احد الضباط تعاني آلام الوضع، ولا بد من ارسال نجدة طبية لانقاذها ، ورفض الضباط الاطباء الموجودون ان يقوموا باي عمل ، متعللين بانه ليس هناك طريق ممهد بين العريش والقصف ، وانه من الغباء ان يحضر ضابط زوجته الحامل في تلك الرحلة الطويلة الشاقة من القاهرة الى العريش ..

ولكن القويسني الذي كان موجودا بمستشفى العريش العسكري حينذاك ، بحث عن احد الجراحين واقنعه بمرافقته ، وجهز كل المعدات الطبية اللازمة ، وانطلق مع الجراح في منتصف الليل بسيارة اسعاف « رينو » مسافة ٣٠٠ كم في الصحراء الوعرة حتى وصلوا الى حيث وقف القطار . وعلى منضدة في عربة الطعام ، اجريت عملية جراحية للسيدة

وانقذت هي ووليدها من موت محقق ، وعاد بها « القويسني » واقـام لهـا جناحا في المستشفى العسكري ، حتى يضمن لها الرعاية الطبية ، مخالفا بذلك اللوائح العسكرية ، التي راى انها لا يمكن ان تقف في وجه الاعتبارات الانسانية ، الى ان حضر زوجها الذي كان يعمل في المخافر الامامية .

كانت السيدة هي زوجة البكباشي « احمد انور » قائد البـوليس الحربي بعد حركة ٢٣ يوليو .

الجزء السابع

حياتك او عقيدتك

الفصل الاول

في وادي الموت

حقيقة توقف التعذيب البدني الذي ساد الاوردي ؛ وحقيقة استطعنا بعد معارك دائمة ، وخاصة بعد اضراب يوليو ١٩٦١ ، ان ننتقل الى ظروف معيشية احسن نسبيا ، فقد تمكنا من الغاء السخرة ، ومن الحصول على حق انتعال الاحذية ، ولكن خطة النظام لتصفية اصحاب العقيدة اخطبوط ذو اربعين ذراعا ، **تعتمد في الاساس على استغلال الطبيعة** البشرية ا تجد لها عملاء في بعض العناصر ، وخاصة تلك التي انجذبت الى صفوف النضال في سنوات الكفاح الوطني الاخيرة ، ولم تتأصل فيهم طبيعة المناضل ونباته وصلابته .

كانت خطة التصفية تستهدف هؤلاء على وجه الخصوص . فالمنفى البعيد وقسوة الحياة ، والحرمان العاطفي والمادي ، وانقطاع الصلة بالاهل ، لا زيارات ولا رسائل .. والزمن ... والشعور بالغربة .. والاحساس الذي يتكون عند البعض بانه مهمل .. وان العالم قد نسيه .. وتلك الخطابات المسمومة التي تبذر القلق على مصير الاهل ، الاب والام والاخوة الصغار ؛ الزوجة او الاطفال ، كلها عوامل يطمعون من ورائها الى ان يسيروا بالطبيعة البشرية خطوة خطوة نحو حالة من القلق المتصل ، والملل من المقاومة المتصلة تدفع صاحبها الى ان يكيف نفسه فكريا بما يتلاءم مع مقاومته التي ينال منها القلق والملل ، فتبرر اتجاهات المصالحة مع الحكومة ونظريات جوهرها النظر الى التمسك بالعقيدة وكانه طريق مسدود ، والبحث عن طريق من خلال الناصرية .. وتبلور الموقف نهائيا لحملة تلك الافكار في هجران صفوف الحزب ... ومن ثم يكون هؤلاء ضمن المرشحين للترحيل الى معتقل الدرجة الثانية في الفيوم ، حيث

تعتصرهم المباحث نهائيا .. فلقد سار الواحد من هؤلاء شوطا بعيـدا في التخلي عن تاريخه وقيمه ومعتقداته املا في المصالحة مع النظام .. ولقد سار الواحد من هؤلاء شوطا بعيدا لم يعد سهلا العودة منه ومن هنا يكون الانزلاق اسهل .. والاستنكار ، وتقديم الاعترافات .. والنظام لا يعتمـد في الوصول ببعض العناصر الذين يأمل افتراسهم الى هذا الحال على عامل الزمن والقلق والملل فحسب ، بل يصر على ترك المعتقلين دائما مهـددين بالموت ، ويرسم رجال النظام خطتهم ، بحيث يسقط عـدد مـن المعتقلين موتى بسبب اهمال العلاج الطبي ، حتى يكون الموت كمصير مسألة مـادية مجسدة لا مجرد خطر يتهدد ..

ان حسن المصيلحي مستشار الرئيس لمكافحة الشيوعية يقول للرفاق الذين ينهون مدد عقوبتهم ويرفضون استنكار مبادئهم كثمن للافراج عنهم :
« ساعيدكم الى الواحات حتى تموتوا كما يموت شعبان حافظ » .
وبالفعل يصاب العامل علي زهران ويترك دون علاج وصرخاته تدوي في المعتقل حتى اخر لحظة فينقل الى المستشفى ثم يفرج عنه افراجـا صحيا ليموت فور وصوله الى بيته .

والمهندس رشدي خليل « يصاب بالتيفوئيد » ويتقدم الى الطبيـب ، فيصيح مأمور السجن متهما اياه بادعاء المرض ، ويجيب الطبيب ودون كشف على المريض يقرر ان لا مرض به ، ويظل اربعين يوما والحمى تفري امعاءه حتى اذا اشرف على الموت ، نقل الى مستشفى سجن القـاهرة ، حيث يترك مهملا ، وتـأخذ الحمى بخناقه فينتفض بشكـل عصبي راكضا ملتمسا ما يخفف عنه الحمى حتى يصل الى جوار بوابة السجن فيسقط وقد لفظ انفاسه الاخيرة ، وتلقى على جثمانه بطانية قذرة ويترك حيث سقط وتاتي عربة تسلمه جثة هامدة لامه العجوز واشقائه الصغار وخطيبته التي كانت تنتظره .

ويصاب النقابي « سيد امين » عضو مجلس ادارة عمال نسيج القاهرة بالسل ، فيترك مهملا ، يتحالف عليه البرد والجوع والمرض حتى اخر لحظة، ثم ينقل الى المستشفى حيث يموت وتسلم جثته الى زوجته في شماتة ، فلقد اعتقلوها رهينة حينما اختفى زوجها المناضل النقابي عند صدور امر باعتقاله وكم ضربوها على قدميها وكم عذبوها واهانوها ليجبروها عـلى الادلاء على المكان الذي يختفي فيه ، ولكنها صمدت وقاومت وابـت ان تسلم زوجها بيديها الى ان سلموها هم زوجها جثة هامدة .

ويصاب العامل « حسب الله علي موسى » عضو مجلس ادارة النقابة العامة لعمال النسيج بشبرا الخيمة بتسمم بولي « يوريميا » للمرة الثانية ويترك دون علاج ثم ينقل في اخر لحظة الى المستشفى حيث يموت وتسلم جثته لزوجته واولاده ، ولم يكن لهم في الحياة غيره .

والمناضل « احمد البكار » يصاب بسرطان في المعدة ، ويفحصه طبيب السجن اكثر من مرة ويقرر الا مرض به ، ويرفض ملاحظات الاطباء المعتقلين الذين يبدون قلقهم لان اعراض المرض التي يرونها ، هي اعراض الداء الخبيث . حتى اذا تدهورت حالته ، نقل الى المستشفى الجامعى في القاهرة ، وهناك يضعه الجراحون على منضدة العمليات ولما شقوا بطنه وجدوا السرطان قد استشرى بما لا يترك ثمة بصيص من امل في انقاذه ، فلا يجرون له اية عملية جراحية ويفرج عنه افراجا صحيا ليموت فور وصوله الى داره .

الفصل الثاني

« خيط من الماضي »

ولكن المصيلحي مستشار الرئيس لم يكن ليكتفي بذلك ، بل كان يريد للموت ان يتم امـام اعين المعتقلين في الواحات الخارجة ، فرؤيـة الموت اوقع اثرا من السماع به ، وكانت كلمات الرفاق العائدين تشير الى انه قد اختار شعبان حافظ لهذه التجربة .

فمن الشكاوى المستمرة التي كان يرسلها الشهيد شعبان حـافظ كان المصيلحي يعلم ان هذا الشيخ الذي ناهز الستين من عمره مريض بالقلب وانه مهدد بالذبحة الصدرية ولذلك فحينما انتهت في اول ينـاير سنة ٩٦٢ السنوات الثلاث المحكوم بها عليه من المحكمة العسكرية العليا ، رفض المصيلحي الافراج عنه ، واستصدر امرا عسكريا باعتقاله ، ابقـاه بمقتضاه في سجن الواحات الخارجة معتقلا ، كل الذي حدث انه نقل من سجلات السجن من قائمة المسجونين الى قائمة المعتقلين ، وسلمت لـه ملابس المعتقلين الخشنة البيضاء ، بدلا من ملابس المسجونين الزرقاء .

وعلى الرغم من ان الطبيب الذي يمر بالسجن مرة كل اسبوع مرورا عابرا لم يستطع امام حالة الشيخ المتدهورة الا ان يقرر خطورة وضـ وضرورة نقله الى احدى المستشفيات لعلاجه ، وسجل الطبيب ذلك فى تقاريره التي ارسل بها الى المباحث العامة ، ورغم كل ذلك اصر المصيلحى على تجاهل حالة الشيخ وتقارير الطبيب ورفض السماح بنقله الـى اي مستشفى للعلاج .

ان اختيار شعبان حافظ لكي يموت بين ايدي المعتقلين في الواحات لم يكن فقط لان السلطات تعلم بانه مهدد بالذبحة الصدرية وانها توشك ان تجهز عليه ، ولكن ايضا لثأر قديم بين سلطات مكافحة الشيوعية وبين الشهيد .

فهذا **البروليتاري الشيخ** ، كان واحدا من قادة الحزب الشيوعي المصري الذي تأسس عام ١٩٢١ ، وساهم مع سكرتير الحزب الرفيق « انطون مارون » في تأسيس اتحاد عمال مصر الذي حله سعد زغلول عام ١٩٢٤ حينما اصدر في نفس الوقت قرارا بحل الحزب الشيوعي وقام بمطاردة اعضائه .

كان **شعبان حافظ** من ابرز المناضلين الشيوعيين في ذلك الوقت ، ومثل مصر في مؤتمرات « الكومنترن » وهو الوحيد الذي استطاع الافلات من الحملة التي شنها سعد زغلول على اعضاء الحزب . وحينما القي القبض عليه بعد ذلك اسقطت عنه الجنسية المصرية ونفي الى خارج البلاد فعاش في الاتحاد السوفيتي زمنا ، ثم عاد سرا الى مصر عام ١٩٣٦ ، وواصل نشاطه في تنظيم صفوف العمال ملتجئا الى الريف كلما احس بايدي رجال مكافحة الشيوعية تقترب منه ، والقي القبض عليه مرة ثانية ، فحكم عليه بالسجن لمدة ستة اشهر ابعد فور انقضائها عن البلاد ، وعاد سرا للمرة الثانية ، وانخرط في صفوف الحركة الشيوعية الجديدة التي تأسست اثناء الحرب العالمية الثانية ، وساهم في انضاج قضية توحيد المنظمات الشيوعية في حزب واحد للطبقة العاملة .

وامتدت اليه الايدي الآثمة في اول يناير سنة ١٩٥٩ .

لقد ظل الشهيد وسط قسوة المنفى ، ورغم كبر سنه وآلامه التي كان يكتمها ، يعيش بيننا بجسده الضئيل ووجهه المغضن وبسمته التي لا تفارق شفتيه ، رمزا للصلابة البروليتارية وقبسا من الرواد الاوائل شهداء ١٩٢٤ وخيطا ممتدا من امام شهداء الشيوعية في مصر الرفيق (انطون مارون) . لقد اخذ على عاتقه رغم مرضه ، ان يبيت كل ليلة في زنزانة من زنازين السجن يحكي لابنائه مناضلي حزب ٨ يناير قصة ابائهم مناضلي حزب ١٩٢٤ .

وفي صبيحة ١٤ مارس سنة ١٩٦٢ ، خرج معنا الى بوابة السجن لتوديع مجموعة من الرفاق الذين انهوا مدة عقوبتهم ، وهم يرحلون الى القاهرة ، ليخيروا بين عقيدتهم ، وبين العودة الى منفى الواحات . وعاد شعبان حافظ الى زنزانته ، وهناك فاجأته ازمته القلبية . وفي اقل من عشر دقائق وقبل ان يصل اليه طبيب من زملائنا المعتقلين كان شعبان حافظ قد لحق برفيقه وزميل نضاله « انطون مارون » .

وتجمعنا امام زنزانة الشهيد ، والحزن والغضب يغمران المكان

والكلمات النارية يلقيها بعض الرفاق « فليكن الدرس الذي نتعلمه من حياة الرفيق الشهيد هو كيف نمسك برايتنا في قوة وثبات مهما كانت الأهوال، وليكن الدرس الذي نتعلمه من موته ، هو كيف نحقد على قتلته من اعماق قلوبنا » .

ان الفزع والقلق ، والخوف من الموت ، الذي اراد المصيلحي ان يبذر بذوره في نفوس المسجونين والمعتقلين بموت شعبان حافظ بينهم قد تحول الى عاصفة من الحقد .

لففنا نعش الشهيد في بطانية حمراء وزين بالزهور ، وثبتنا فيه بطاقة ، كتب عليها « من اجل انبل قضية مات شعبان حافظ » وفي الرابعة بعد الظهر حمل اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري نعش الشهيد وسار خلفه خمسمائة من المسجونين والمعتقلين ولاول مرة يرى سجن من سجون مصر مثل هذه الجنازة المهيبة حيث طفنا به جنبات السجن والاصوات تدوي من حوله بنشيد الشهداء :

سلام نقدمه في فخار	جنود الكفاح لابطاله
الى اكتوبر والثوار	والى يوم مايو وعماله
لكل شجاع الى الانتصار	مضى في ثبات الى حتفه
سلام يزلزل قلب الطغاة	يحطم من ليس يحيا به
سلام نقاتل دون حماه	ونمشي الى الموت من اجله
سلام يقيم بناة الحياة	نعيم الملايين في ظله
سلام عليكم رفاق أباة	ومن جاد منكم بانفاسه
على قبركم في مهب الرياح	حمراء تخفق راياتنا
نحيي رفاقا خاضوا الكفاح	وماتوا ليحيا بهم حزبنا
ازاحوا الظلام بحد السلاح	وبالدم خطوا تقاليدنا
وما دام ليل يليه صباح	يعيش ويخلد شهداؤنا

لقد شاركنا في تشييع جنازة الشهيد كل من في السجن ، وكلما مر جثمانه بواحد من الحراس اخذ بجلال الموقف فأدى للجثمان التحية العسكرية ثم وضع النعش في السيارة التي ستقله الى محطة اسيوط ؛ حيث ينقله القطار ليسلم الى ذويه في الاسكندرية ، حيث تحتضنه الارض التي كافح من اجلها ، والتي حاولوا عبثا ان يبعدوه عنها . وفي بطء تحركت السيارة خارجة من السجن وحراسها يلوحون بايديهم ، يردون عن الشهيد تحياتنا الاخيرة له ، وخرجت السيارة من باب السجن واصوات خمسمائة من المسجونين والمعتقلين تدوي في سماء السجن مودعة الشهيد :

تحيا ذكرى شعبـان حافظ .
عاش كفاح الشعب المصري .
عاش كفاح الشيوعيين المصريين .
تحيا ذكرى شهداء الشيوعية .

لقد اثار موت الرفيق الشهيد شعبان حافظ مشكلـة العلاج الطبـي والاهمال المتعمد فيه ، خاصة وقد جاء موته في اعقاب « انفلونزا » اجتاحت السجن بشكل وبائي ، وظهر من آثارها ، كيف تدهورت حالتنا الصحيـة بحيث ادت الى عجز ما يزيـد على المائتين ممن اصيبوا بها عن الحركة تماما لمـدة اسبوعيـن .

فما زلنـا حتى اليوم نعيش في سجن الواحات الخارجة على قطعـة جبن من نوع رديء للغايـة فيالفطور وكمية هزيلةمن الفول او العدسللغداء وبضعـة ملاعق من الارز الى جوار ماء ساخن يسمى كذبا بالحساء، وقطعـة صورية من اللحم تقدم ثلاث مرات في الاسبوع لطعام العشاء . وغير مسموح لنـا بالتعامل مع مقصف السجن الا في حدود الجنيهين للفرد خلالالشهر الواحـد ، ولما كانت الاقليـة منا هي التي تملك نقودا للتعامل مع المقصف فان نصيب الفرد من المتوسط لا يتعدى بضعـة قروش لا يمكن ان يشترى بهـا المرء الا اشياء هزيلة اذ تنص لائحة المقصف في السجون على ان يكـون الربح في السلعـة ٢٥ بالمئة من ثمنهـا الذي تباع به في السوق .

لقد طال الحاحنا على ادارة السجن بضرورة نقل الحالات المرضيـة الخطيرة الى المستشفى الجامعي في القاهرة للعلاج ، اذ بيننا عشرات مـن حالات القرح المعدية والتهابات القولون ، وامراض المسالك البولية وضغط الدم ، والربو ، وامراض القلب والسل والانيميا الحادة وغيرها من الحالات التي تحتاج الى تشخيص دقيـق .

وازاء تلكؤ الادارة ومماطلتها امتنعنـا عن تسلم الطعام لمـدة يومين احتجاجا على هذا الاسلوب ، وبالطبع رفضت قيـادة المجموعة المنقسمـة مشاركتنا في ذلك الاحتجاج، اذ على حد قول احد المسئولين فيهم : « اننا نبالغ اذا ما طلبنا للمسجون والمعتقل مستوى من الرعاية الطبية مساويـا لما يحظى به المواطن خارج الاسوار» .

وواجهت الادارة الموقف بترحيل بعض الحالات الخطيرة الآتية : اديب ديمتري عضو مجلس السلام القومي المصري ، اشتباه سرطان في الحنجرة. محمود عطاالله ، رئيس نقابة عمـال شركة مصر لكفر الدوار للغـزل

والنسيج ، ضغط دم ، نزلة شعبية ربوية ، جيوب انفية ، التهاب في المثانة.

سعيد عارف ، رسام بجريدة الشعب ، سل رئوي .
احمد رضا ، مهندس ديكور ، سل رئوي .
عبدالمنعم ناطوره ،عامل نسيج ،سل رئوي .

ولكن ترحيل هذه الحالات لم يكن يعني اي تحول في الموقف ازاء حالة المعتقلين الصحية ، ولقد ظهرت حالات من حمى التفوئيد والتهاب الكبد المعوي ورفضت الادارة ارسالها الى مستشفى الحميات للعلاج ولابعادها عن الزنازين المزدحمة والتي يضم كل منها اربعة عشر معتقلا ، مما يهدد بانتشار تلك الامراض الوبائية بينهم وهم في زنازين مغلقة، داخل عنابر مغلقة ، داخل سجن معزول ، وسط بحر من الرمال لا توجد به الادوية اللازمة مثل حبوب الكلورومايسين وحقن الجلوكوز والفيتامينات، وحيث لا توجد صيدلية قريبة ، وحيث لا تنبت الصحراء خضرا اوفاكهة، وباختصار حيث لا غذاء ولا دواء ، وبين المعتقلين اربعة اطباء وعدد من طلبة الطب تحاول الادارة عزلهم عن المرضى وتحرم عليه قراءة اي كتاب طبي ، او مرجع علمي ، وتسفه من ارائهم ولا تعطى لاحكامهم اذنا صاغية.

الفصل الثالث

اردنا له الحياة

لقد حذر الدكتور عبد المنعم عبيد ، وهو احد الاطباء المعتقلين من ان حالات اخرى من التهاب الكبد الوبائي يمكن ان تظهر نتيجة عدم توافر امكانية العزل او تنظيف الاواني ، ونقص المطهرات والادوية .

وفي احدى الزنازين المغلقة ليلا، ارتفعت الحرارة لدى احد المعتقلين وانتابته ادوار من القيء الشديد مدة يومين ، وفحصه الدكتور عبيد فتبين ان بوله له لون العرقسوس الداكن فاخذ منه عينة ، وحدث ان استدعت الادارة طبيب مستشفى بلدة الخارجة ليأمر بترحيل صحفي شاب كاد يفقد بصره ، بعد ان اضرب عدد من زملائه المعتقلين عن الطعام مطالبين بضرورة ترحيله الى احدى المستشفيات لانقاذ نور عينيه ، وطالبنا بان يأتي الطبيب لفحص اسماعيل عبدالحكيم وهو المريض الجديد ، فتوجه الطبيب الحكومي الى زنزانته ليراه راقدا على برش على الارض الصخرية ، ودون ان يفحصه او يقيس درجة حرارته ادار وجهه وانصرف قائلا : انها مجرد حالة انفلونزا . ورغم عينة البول التي اراها له الطبيب المعتقل منبها الى ان المريض مصاب بحمى التهاب الكبد الوبائي وانه يجب ترحيله الى مستشفى الحميات ،فان الطبيب الحكومي لم يعبأ لكل هذا خوفا من غضب السلطات اذا هو امر بترحيل المريض ، واستجابة لاوامر سرية من المباحث العامة بعدم ترحيل اي مريض جديد الى المستشفى .

وبدأ الدكتور عبيد يعالج المريض الجديد بالكميات الضئيلة من الجلوكوز التي امكن وجودها في السجن الا انه في اليوم التالي بدأ المريض يهذي ويردد بعض الكلمات بلا توقف ، وكان هذا انذارا بان المريض قد دخل في مرحلة شبه الاغماء الناتج عن التسمم الصفراوي .

ومع ذلك اصرت الادارة على عدم نقل المريض ، لقد افهمنا قائدالسجن انه اتصل بالمباحث العامة بالقاهرة بخصوص تلك الحالة الجديدة ولكنهم رفضوا ترحيلة وكان هذا يعني انهم قد حكموا عليه بالموت في الواحات .

وثارت ثائرة المعتقلين والمسجونين ، ورأى قائد السجن ان الامور تنذر بالانفجار مما قد يؤدي الى موقف لا يستطيع التحكم فيه ، خاصة وان حالة الهياج لدى المريض قد ازدادت حدة واخذ يتقلب في السرير كل عدة ثوان ويتشنج كلما حقن بالجلوكوز ومع ازدياد حالته خطورة تزداد حالةالهياج لدى المعتقلين والمسجونين الذين تجمعوا عن بكرة ابيهم امام حجرة المريض حيث كان قائد السجن فيها في ذلك الوقت .

وازاء هذا الموقف اضطر الى ان يرسل مستدعيا طبيب مستشفى بلده الخارجة وان يحضر معه بعض الادوية والاجهزة التي طلبها الاطباء المعتقلون الذين تجمعوا حول المريض . كان المريض يحقن بالجلوكوز بمعدل ٦٠ سم٣ في درجة تركيز ٤٠ بالمئة كل ثلاث ساعات مع حقن فيتامين ج وخلاصة الكبد وفيتامين ب المركب ومحلول الملح بوساطة جهاز نقل الدم الذي علق في حبل نظرا لعدم وجود حامل .

ظهر الاثنين ٤ يونيو :

المريض في حالة اغماء ، ساكن في سريره ، لا يستجيب لاي نداء ، وتنفسه ثقيل ، لا يستطيع البلع ، وبانت على شفتيه واذنيه واطرافه زرقة خفيفة ، لا يستجيب حتى لوخزات الابر الكثيرة . أعطي المريض ثلاثين انبوب جلوكوز ٢٠ سم٣ ٤٠ بالمئة في الوريد ولترا من محلول الملح على مدة طويلة مع الكلسيوم وفيتامين ك ، وخلاصة الكبد .

مساء ٤ يونيو :

بدا اللون الازرق الترابي يغطي الوجه والاطراف مختلطا بالصفرة الشديدة والمريض لا يعي انه يبول على نفسه بولا في لون عصارة الكبد .

ولفت نظر الاطباء المعتقلين حالة صعوبة التنفس والزرقة الشديدة والاغماء الكامل . كان التنفس بواسطة عضلات البطن علامة مزعجة ، الى جانب صدور صفير من الانف اثناء الشهيق ، مما يشير الى ان الجهاز التنفسي قد تأثر بالحالة . ولما ارتفعت الحرارة الى ٣٩/٥ تبين الاطباء المعتقلون انهم امام حالة جديدة هي الالتهاب الرئوي وادركوا ان مهمتهم في شفاء المريض المغمى عليه قد غدت شيئا بالغ العسر والمشقة وجرى البحث

في كل السجن عن اي دواء مضاد للحيويات ، وبالكاد عثر على ثلاث حقن « تتراسيكلين » ولما اعطي المريض اول قطرة في الوريد اصيب بصدمة وتقيأ ولكنهم واصلوا اعطاء الدواء .

٤ يونيو ليلا :

امضى المريض اسوأ لحظاته ، وكل لحظة تمضي به بسرعة نحو الموت، وحينما ادرك بعض الاطباء المحيطين به ذلك ، بدأوا يتسربون من الحجرة واحدا اثر الاخر ، وفي طرقة العنبر حيث لم تستطع الادارة اغلاق الزنازين ، كان مئات الرفاق يجلسون واجمين ، مصممين في حالة الوفاه ان يمنعوا خروج الجثة بالقوة حتى تأتي النيابة لتسجل ان الموت قد تم نتيجة للاهمال المتعمد مما يشكل حالة جنائية .

المريض في اغماء تام ، ووصل التنفس الى مرحلة «تشاين ـ نتوك » وهي علامة خطيرة على قرب الوفاة وصار النبض ضعيفا للغاية .

الساعة الرابعة صباحا ٥ يونيو :

توقفت ماكنة النور التي تمد السجن بالكهرباء عن العمل واضيء مشعل صغير . الدكتور عبدالمنعم عبيد هو الوحيد الذي بقي الى جانب المريض يراقبه وقد اشتدت عليه الحمى .. المريض يلفظ انفاسه الاخيرة وقد اكتست يداه وساقاه باللون الازرق واخذ يأتي بحركات بسيطة من يديه ويمشط شعره باصابعه بينما يصدر حشرجات متقطعة ، وتطرقع قطرات اللعاب في حنجرته مع الانفاس الضئيلة، وليست هناك اسطوانة اوكسجين.

ادرك الجميع انه لم يبق سوى دقائق ويستقبلون جثة رفيقهم .. ولكن كلما سألوا الدكتور عبيد عن حالته ، اجاب : طالما انه يتنفس فهناك امل.

وفي غمرة اليأس اعطى الدكتور عبيد للمريض انبوب « اميتوفيلن »ربع جرام ،ثم اتبعه بانبوب « كورامين » ٥سم٣ كان قد حصل عليه لتوه بعد صراخ المعتقلين لمدة خمس عشرة دقيقة حتى حضر جندي ذهب فايقظ المرض واحضر منه انبوب الكورامين هذا رغم ان المرض كان ينكر وجوده طوال تلك المدة . ولما لم يحدث تقدم يذكر بدأ الدكتور عبيد في اعطاء النقط الاولى من انبول كورامين جديد، ولكنه وجد ان النفس بدأ يتوقف فترك الحقنة في يد احد زملائه ، وقام بعمل تنفس صناعي عن طريق الضغط على الصدر فوق القلب والرئتين ، الا ان المريض بدأ يعطس بعد ثوان عطسا شديدا ، اضطر الطبيب الى سحب الحقنة من ذراع المريض بعد تكرر

العطس والشهيق الشديدين مرات عديدة ، وبدا التنفس يعود تدريجيا وفي مدى ربع الساعة صار منتظما ، وذا عمق معقول ونام المريض في هدوء وعاد النبض الى حجم متوسط وتحسن اللون ، وبدأ الرفاق الساهر يقابلون هذه الانباء الجديدة بأمل بسيط حذر .

صباح الثلاثاء ٥ يونيو :

واصل الاطباء المساعدون من المعتقلين اعطاء كميات كبيرة من حقن الغذاء والدواءومحلول الملح والمقويات بكثرة وتركيز ،كررت حقنةالتتراسيلكين ٣٥٠ مج بعد ١٢ ساعة من الحقنة الاولى ، استمر انتظام التنفس ، وصار من السهل ان تدرك الانظار العديدة المسلطة على المريض انه يقلق اذا ما كان لديه رغبة في التبول فكانوا يساعدونه ليتمكن من ذلك ، وصار في قدرة المريض أن يبلع بعض شراب الليمون ، الا ان الفواق «الزغطة» بدا يسيطر على المريض ويضايق تنفسه ،مع ارتفاع الحرارة الى ٣٩ رغم الجرعة الثالثة من التتراسكلين ، وبحلول المساء بدأت الزرقة تعود ولكن بشكل اقل من الليلة السابقة ، وبفعل الكمادات المثلجة انخفضت درجة الحرارة ، وكان الخبر الذي هز السجن كله هو ان المريض قد جلس في سريره في شبه اغماء واستجمع كل قوته ليهمس في اذن من يسندونه بثلاث كلمات يعبر بها عن رغبته في التبرز ، وبعدها نام . ولما استيقظ استطاع ان يتعرف على اثنين من المحيطين به .

الاربعاء ٦ يونيو :

كان المريض في حالة تسمح بنقله. ومنذ يومين كان قائد السجن بعد اتصاله بالمباحث وابلاغها بخطورة الموقف قد حاول نقل المريض الى القاهرة ولكن الاطباء قرروا انه لن يتحمل الرحلة وانه من المؤكد انه سيموت فور مغادرته السجن ولذلك اوقفنا عملية النقل . اما اليوم وبعد ان قرر اطباؤنا انه بمقدور المريض ان يتحمل الرحلة فقد طلبنا من قائد السجن تنفيذ ذلك وازاء المرجل الذي كان يغلي ويهدد بالانفجار اضطر القائد ان يقوم بنقل المريض .

وفي العاشرة من صباح ذلك اليوم تجمع على طول العنبر الى باب السجن مئات من المسجونين والمعتقلين الشيوعيين ، والمسجونين من غير الشيوعيين والسجانة وجنود الكتيبة التي تحرس السجن والموظفين ليشهدوا المعجزة التي تحققت .ليشهدوا ذلك الذي ارادت له السلطة ان يموت ، واراد له الشيوعيون البقاء ، فعاش وحمل اعضاء اللجنة المركزية سرير المريض

وخرجوا به وسط ذلك الحشد الهائل والمريض يحيى من حوله بحركة خفيفة من يده الى ان وضعوه في سيارة انطلقت به .

لقد رأت المباحث المصرية ان موت شعبان حافظ لم يحدث فينا الاثر الذي كانت تريده وبدلا من ان يشيع بيننا الرعب من الموت فقد اثار فينا روح المقاومة ضد الموت الذي يفرضونه علينا فيالواحات، ولهذا رات ان تكرر التجربةبشكل اعنف وفي شاب لم يتجاوز السادسة والعشرين ، الا ان خطتها تحطمت حينما اصطدمت بارادتنا الا يموت .

اضطرت السلطات ازاء الثورة العارمة في سجن الواحات ان تسمح لنا بتسلم طرود الاغذية ، وان يكن ذلك في حدود ، وان يكن عدد الذين في قدرتهم تسلم الطرود محدودا ، كما سمحت لنا بحق الاطلاع علىالصحف بعد ان ادركت ان خطتها في عزلنا عن تتبع العالم الخارجي فاشلة ، وذلك على اثر ضبط جهازي راديو ترانزستور لدينا . ولكنها اصرت على متابعة سياسة الموت البطيء وفيتحد ، وكما لو كانت تنتقم لهزيمتها في محاولة قتل اسماعيل عبدالحكيم .

فبعد اسبوعين فوجئنا بزملائنا المرضى ، الذين كانوا قد رحلوا الى القاهرة للعلاج ، يعادون الى سجن الواحات ، ويروون لنا اغرب قصة ..

لقد نقلوا الى سجن القاهرة بدلا من مستشفى النيل الجامعي وظلوا هناك طوال تلك المدة تحت الحراسة المشددة ، يلقون في زنازين قذرة لا متاع لهم الا بطانيتين مهلهلتين على الارض مباشرة حتى حصيرة الليف الرقيقة « البرش » قد حرموا منها ، والقمل والبق يملآن الزنزانة ، واردأ اصناف الاطعمة تقدم اليهم ، وتفتيش تعسفي في الصباح وفي المساء دون ان يعرضوا على طبيب ، فلما امتنعوا عن الطعام لمدة يومين اعيدوا جميعا الى سجن الخارجة .

كان موقف السلطات من المرضى ، هو باختصار « لا علاج لكم عوا لتموتوا في الواحات » . وكان موقفها منا معشر المعتقلين هو « لئن لم يمت اسماعيل عبدالحكم ، فكل من يمرض منكم لا علاج له » :

حتى الجنون لم يشفع لصاحبه ، فلقد اصيب المعتقل رزق مكاري بالجنون ، واعادته السلطات الى المنفى ،وكانما لتقول :« حتى الجنون لن يشفع لصاحبه » .

لقد تطور موقف السلطة من قضية العلاج الطبي الى مساومة المرضى على صحتهم . وهنا نترك لمذكرات الصحفي الشاب فتحي خليل عبدالفتاح المحرر بجريدة المساء الحديث عن ذلك الطور الجديد :

الفصل الرابع

بصرك أو عقيدتك

الاثنين ٧ مايو :

« واخيرا اجتازت السيارة بوابة مستشفى النيل الجامعي ، ونزلنا جميعا : الجنديان يحمل احدهما بندقية سريعة الطلقات ، والضابط الشاب في المقدمة يتلفت دائما حوله ويتحسس بين الحين والاخر اوراقا يحملها وانا - المعتقل السياسي - يزين معصمي القيد الحديدي .

كانت هذه القافلة قد تحركت بالامس من سجن الوادي الجديد بالواحات الخارجة بقصد عرضي على اطباء العيون بالمستشفى الجامعي . ثلاث سنوات مرت علي انا وزملائي في هذا السجن حيث الصحراء يتبدد عليها البصر، وحيث الشمس عملاقة جبارة لا يحد من سلطانها سحب او مطر ، كان علينا طوال تلك السنين ان نمشي باقدامنا العارية على الرمال الملتهبة ، والاشواك المضنية ، تستبد بنا الشمس المحرقة ونحن نقوم بالعمل الاجباري وسط الهضاب والزوابع الرملية .

ومنذ عشرة شهور وبالتحديد في يوليو ١٩٦١ بدأت احس آلاما حادة في العينين ، وخاصة العين اليسرى التي بدأ ابصارها يضعف ، وطالبت في الحاح بان امنح فرصة لعلاج عيني ، ولكن اي علاج في ذلك المنفى ؟

حالة عيني تتدهور ، والابصار ضعيف باستمرار وشكوت ، ولكن الى من اشكو ؟ الى من رموني انا وزملائي في هذا المكان بغرض آثم لا يقل عن الرغبة في القضاء علينا ؟

ومرت الشهور ، وكل يوم يمر يحرمني من قدر من ابصار عيني ، وصوتي مع صوت زملائي الذي ارتفع مطالبا بانقاذ بصري ، يتبخر مع اشعة الشمس الحارقة ، او يتسرب في الرمال .

فقدت عيني اليسرى الجزء الاكبر من ابصارها واصبحت لا ارى بها سوى خيالات غير مؤكـدة ، عشرة شهور اعاني فيها صداعا مستمرا والاما لا حـد لهـا في العين ، وشبح العمى يقترب مني يوما بعد يوم وها هـم يرسلونني اخيرا الى المستشفى ، ومع الضابط رسالة مكتوب عليهـا « سري جدا » فيها تعليمات بعرضي على طبيب الرمد واعادتي الى السجن .

وتكشفت لي الخطة ، فهم بعد ان استحال عليهم تركي اكثر من عشرة شهـور دون علاج ، يعرضونني الان على الطبيب حتى لا تكون هناك مسئولية من الناحيـة الشكليـة .. ثم العودة الى السجن دون علاج .

ولكن كانت هناك نقطة ضعف في خطتهم ـ وان تداركوها فيما بعد ـ وهي انهم لم يختاروا الطبيب الذي يعرضونني عليه .. فحينما دخلنا قسم الرمد قدم الضابط اوراقي لاحد الاطباء .. طبيب شاب عرفت فيما بعد انه مدرس بكلية الطب ، اسمه الدكتور عصام توفيق ، قادني الى غرفـة مظلمة وكان يبدو على ملامحه انه غير مرتاح لتلك المهمة ، واجرى الكشف على عيني ثم هز راسه ، وصمت قليلا وحينما نظر اليّ ، احسست خطورة حالتي من نظرته ..

قال : ليه سكت على عينك بالشكل ده ؟.. وكان جوابي القيد الحديدي حول معصمي ابرزته له . ثم استطرد قائلا : « عينـك اليسرى مصابـة ب « جلوكوما » ـ اي عليها ماء ازرق ـ ولقد تأخر علاجها ، واصبح استرداد البصر المفقود غير ممكن » .

وصمت .. واحسست بصراع يدور في داخله تكشف عنه ملامحه ، صراع بين واجبه كطبيب عليه ان يقوم بواجبه الانساني ، وبين التعليمـات التي يحملها الضابط باعادتي الى السجن مع تقديم تقارير زائفة تبرر ذلك .

وقطع الصمت قائلا : « لكن ما زال هناك امـل ، وساجري لك عملية كشط لوقف تدهور الحالة ولانقاذ ما يمكن انقاذه من ابصار ولوقف تأثير المرض على العين اليمنى » . كان قد حسم الصراع الذي يعتمل في داخله ولكن الى صف واجبه الانساني .. الى صفي ..

وكتب لي الدخول فـورا في قسم « ١٣ » رمد ، وحـاول الضابط الاعتراض ، فهذا مخالف للتعليمات التي يحملها لاعادتي الى السجن ، ولكن الطبيب قال رأيه في وضوح ، وهو انني في حاجة الى عملية عاجلة. فاضطر الضابط الى الاتصال بالمباحث العامة التي اسقط في يدها ولم تملك الا ان تسلم بما قرر الطبيب .

واشرق الامل في نفسي ، لقد وجدت اخيرا من يعالجني ومن ينقذني من العمى .. الاربعاء ٩ مايو :

مضى علي في المستشفى يومان ، قام الطبيب بالابحاث اللازمة على العين توتر العين ٨٠ (التوتر العادي ٢٠) والضغط عال كما حلل الدموع وخلايا العين وبدأ يعدني لاجراء العملية . استلقيت على سريري، وسرحت قليلا مع اضواء القاهرة التي تتلألأ امامي على البعد . والحارسان منهمكان في شرب الشاي الاسود .

هل ستنجح العملية ؟..

لقد اكد لي الطبيب انه رغم تأخر العلاج ، فهناك امل .. امل كبير .

ام ترى سأفقد عيني ؟ وتحسستها .. واستعدت كلمات الطبيب ، وبسمته المطمئنة ونظراته المليئة بالثقة ، والمفعمة بالحب الانساني، وارتسمت على شفتي ابتسامة ، وتنهدت في ارتياح ساجري العملية ، وستنجح وسينقذ بصري .

وعدت من جديد انظر عبر النافذة المفتوحة ، القاهرة امامي غارقة في الاضواء ، والنيل يرسل تحياته في نسمة منعشة .. وادرت مفتاح الراديو .. وعشت مع اغنية دافئة .. ان ثلاث سنوات لم تنجح في ان تقتل في نفسي كل معاني الحياة الجميلة .

وجاءت التلميذة السهرانة .. حلوة رشيقة تدفع امامها في خفة عربتها الصغيرة المحملة بانواع القطرة والمراهم ، واقتربت مني وهي تحمل في يدها زجاجة القطرة وقالت في ابتسامة حانية « موش تحط القطرة ، وتنام ، علشان تريح عينك ؟ »

واسلمتها عيني تملاها بالمرهم والقطرة ، وبوجهها الصغير المليء بالامل والحياة .

الخميس ١٠ مايو :

استيقظت في الساعات الاولى من الصباح .. الهواء الرطب المنعش يلمس وجهي في رفق ، فيبدد ما تبقى من اثار النعاس في عيني،واستمتعت بمرأى القاهرة في ذلك الوقت المبكر ، حيث الحركة قليلة تتجدد وتزداد كل دقيقة .

لقد نمت ليلة الامس نوما هادئا لم انعم بمثله منذ ثلاث سنوات .

جاءت الحكيمة ممتلئة نسبيا ، وان لم يقلل ذلك من جمالها وخفة دمها ، واخبرتني ان كل شيء على ما يرام ، وانني قد تجرى لي العملية غدا

او في الايام القليلة المقبلة .

كم هو جميل ان تحس العطف والحنان ممن حولك ، بعد سنوات ثلاث لا يسمع فيها المرء الا الاوامر الخشنة ، وصوت الريح يعوي حول السجن كعواء الذئاب ..

وحوالي العاشرة ابلغتني الحكيمة بان الدكتور امين زايد يطلبني في عنبر العمليات .. ماذا ؟ هل سأجري العملية ؟ هكذا وبهذه السرعة ؟ ولكن من هو امين زايد هذا ؟ وهل هو الذي سيجري العملية ؟..

واجابت الحكيمة بابتسامتها الحلوة : لا لا انت تتبع قسم الدكتور عصام .. الدكتور زايد في قسم اخر ..

وسألتها اذن لماذا يطلبني ؟

وقالت الحكيمة ، واعتقد انها كانت صادقة : لا اعرف .

ذهبت وخلفي الحرس الى عنبر العمليات ، وجلسنا ، وعقلي يدور ويفتش عن السبب الذي من اجله طلبني ذلك الطبيب . انني لا اعرفه . كما انه ليس الطبيب المعالج ، وليس هو المشرف على القسم الذي اقيم به .. هل كذبت علي الحكيمة ؟ وهل ساجري العملية ؟ عشرات الاسئلة تجهد ذهني ولا اجد لها الجواب الحاسم .

واخيرا حضر امين زايد .. شاب طويل معقود الجبهة ، ضيق العينين، في ملامحه برود ، يبدو وكأنه لا يبتسم الا نادرا .

وبادرني في صوت عال : انت فتحي خليل عبد الفتاح المعتقل الشيوعي؟

فأجبته : ايوه يا دكتور . واحسست قلقا للهجته الحادة دون ما داع.

رمقني بنظرة لم استرح لها ، ثم اخذ اوراق علاجي ، ودون ان يتكلم كتب في صمت وبخط عريض « خروج من المستشفى » . وناولني اوراق العلاج ثم ادار ظهره لنا :

ماذا ..؟ خروج ؟ اي طردي من المستشفى ، وافقت على الحقيقة المؤلمة .. ان تسليم المباحث العامة للامر الواقع ، كان شيئا مؤقتا ، الى ان وجدوا الطبيب الذي ينفذ لهم ما يريدون ..

خمسة حروف كبيرة كتبها ذلك الطبيب تحمل الحكم علي بالعودة الى الصحراء دون اجراء العملية ، ولاعطائي الفرصة كاملة للعمى كي يطبق علي.

لحقت به ، ماذا يا دكتور ؟ ان حالتي خطيرة ، اقرأ التقارير المرفقة ، انني مهدد بالعمى ، الدكتور عصام توفيق قرر اجراء عملية سريعة .

كانت الكلمات تخرج من فمي في جمل قصيرة سريعة غير مربوطة ،

ونظر الي امين زايد هذا الطبيب الذي لا يشرف على علاجي ولم يكلف نفسه حتى مجرد الكشف علي ، ومع ذلك يكتب لي امرا بالخروج من المستشفى .

نظر الي في برود غريب وقال : حالتك ميئوس منها .. ثم تركني ..

لقد وجدت المباحث العامة رجلا ينفذ لها مؤامرتها على بصري بعد ان كاد الدكتور عصام توفيق يحبط تدبيرهم ... وفي الساعة الثامنة والنصف مساء ، جاء الضابط ومعه الحارسان لينقلني الى السجن البعيد ، في الصحراء على بعد ثمنمائة كيلومتر من المكان الذي يمكن ان تعالج فيه عيني .. غادرت المستشفى والقيد الحديدي حول معصمي ، واضواء القاهرة تتراقص من خلال الدموع .. دموع الحكيمة ودموع الممرضات بل حتى الحراس كانت في عيونهم دموع .. وفي ظلام الليل تحرك بي القطار صوب الصحراء ..

من الجمعة ١١ مايو الى الخميس ٣١ مايو :

وصلت سجن الواحات الخارجة صبيحة الجمعة ، وكانت مفاجأة لكل الزملاء ، اذ لم يمض على ترحيلي الى المستشفى الجامعي سوى خمسة ايام ، وها انذا اعود اليهم بدون علاج .

الرفاق جميعا ثائرون .. وطبيب يأتي من مستشفى اسيوط مرة كل شهرين ، فاتقدم له ليكتب تقريرا عن حالتي ، فيثبت ان الضغط على العين مرتفع جدا ، وان عيني الاثنين في خطر ، ويطلب ترحيلي فورا الى مستشفى النيل الجامعي للعلاج .

مر اسبوع ولم ارحل ، كان كل يوم يمر يجعل اجراء العملية امرا اكثر صعوبة ويزيد الحالة خطورة ، بصري يتدهور كل يوم احس ذلك واراقبه .

قابلت قائد السجن وقدمت له شكوى بحالة عيني ، وطلبت منه سرعة ترحيلي ومر اسبوع اخر ، واكد لي القائد كما اكد لزملائي ان المباحث مصرة على تجاهل كل هذا .. وان في نيتها تركي دون علاج لافقد بصري في الصحراء ..

محاولة خسيسة لمساومتي على عيني .. فهمت ان والدي ذهب الى المباحث العامة يشكو من اعادتي الى السجن دون اجراء العملية ، وقالوا له : ان ابنك يشرف على تحرير مجلة شيوعية في الواحات تهاجم الحكومة.

هكذا اذن يعاقبونني ، ويحاولون ارهاب زملائي .. وافهامهم ان كل من يعارض الناصرية سيدفع حياته او بصره ثمنا لذلك .

في يوم ٢٩ مايو اضرب عدد من زملائي عن الطعـام مطالبين بضرورة ترحيلي فورا ، وازاء هذا الموقف اتصل القائد بالمباحث العامة، واستحضروا طبيبا من بلده الخارجة كتب تقريرا يقول فيه بضرورة ترحيلي فورا للعلاج لانني مهدد بالعمى .

وفي الخميس ٣١ مايو غادرت سجن الواحات الخارجة مرحـلا الى القاهرة ، غادرته وزملائي يخوضون معركة جديدة من اجل اسماعيل عبـد الحكم الذي اصيب بانهيار مفاجىء في الكبد ، وحالته تتدهور ويدخل في نوبة اغماء طويلة ، والادارة ترفض نقله الى احدى المستشفيات .

الاحد ٣ يونيـو :

مرة اخرى دخلت القافلة مستشفى النيل الجامعي — خـلال شهر واحد — ضابط شاب وحارسان وانا والقيد حول معصمي وتقرير يقول انني مهدد بالعمى .

لقد وصلت الى سجن القاهرة يوم الجمعة الماضي ، ولم ادر لمـاذا ذهبوا بي الى هناك بدلا من ان يتوجهوا مباشرة الى المستشفى كما حدث في المرة الاولى ؟ كما لم ادر لم لم انقل الى المستشفى في يوم السبت ؟

دخلت انا وحراسي استقبال قسم الرمد ، وفوجئت ان الطبيب المختص لاستقبال المرضى الجدد هذا اليوم هو نفسه .. امين زايد . الـذي امر بطردي من المستشفى منذ عشرين يوما .

هذا هو السبب اذن في نقلي الى سجن القاهرة اولا .. كان لا بد من ترحيلي فورا من سجن الواحات حتى يتجنبوا تبعات الموقف هنـاك بعـد اضراب زملائي من اجل ترحيلي ، ولكنهم لم يكونوا يريدون ان يسلموني مرة ثانية للدكتور عصام توفيق الذي كاد ان يحبط خطتهم في المرة الاولى، فذهبوا الى السجن وانتظروا الى الاحد حتى يكون رجلهم ، امين زايد هو المسئول عن قسم الرمد في ذلك اليوم ..

استقبلني هذا الرجل بتجهم وهو يقول : « هو أنت .. ايه اللي جابك تانـي » ؟..

وقدم له الضابط تقرير اخصائي الرمد الذي زار السجن منذ عشرين يوما ، ورغم يقيني من حقيقة الدور الذي يقوم به امين زايد حاولت ان اشرح له حالي ، لعل فيه بقية من انسانية . لم يوقع الكشف علي ، ولكنه قـال بلهجة خشنة آمرة لا يألفها المرء الا في رجل البوليس الفظ « ما فيش فايده في عينك ، لازم نستأصلها » واصابتني كلماته كالخنجر ... هل هنـاك

ضرورة حقا لاستئصال العين ؟ ان جميع الاطباء بما فيهم الدكتور عصام توفيق المدرس بكلية الطب لا يرون ضرورة لذلك ، بل قرروا اجراء عملية كشط فقط .

اذن لماذا يصر امين زايد هذا على استئصال عيني ؟
انها عملية انتقامية يقوم بها طبيب لحساب المباحث العامة .
وهكذا يتلف كل شيء في بلادنا .. حتى ضمير الاطباء ..

حاولت ان اناقش هذا الطبيب لعله يتراجع عن غرضه الاثيم ولكنه اصر على موقفه ، حاولت ان استنجد بطبيبة شابة حضرت كل الحديث ، وكان يبدو في عينيها الواسعتين عطفا على حالتي، المح في ثنايا وجهها اشمئزازا من موقف امين زايد .. ولكنها لم تكن تملك شيئا ، فهي مجرد نائبة ، وامين زايد في درجة اعلى وله الكلمة النهائية ، وله سطوة المتصل بأجهزة المباحث .

وكتب على اوراقي بالخط العريض « دخول لاستئصال العين » .
الاثنين ٤ يونيو « مساء » .

الهدوء يلف العنبر كله ، عنبر (٢) رمد بمستشفى النيل الجامعي، حتى سامي الطفل الصغير الشقي والذي كان يملأ العنبر بلعبه وصخبه نام مع الساعات الاولى من الليل وبعد ان ابلغته الحكيمة انه ستجرى له العملية في اليوم التالي لاستئصال احدى عينيه .

افترش احد الحارسين بطانية في الشرفة واخذ يقرا في كتاب الاوراد الذي لا يفارقه ، اما الاخر وهو شاب لطيف لا تتفق قسماته مع الرداء العسكري الذي يلبسه قد غمز عينيه وذهب في اثر التلميذة ذات العينين الناعستين والتي كانت تسهر تلك الليلة .

ضفة النيل الساكن اراها من خلال النافذة ، والاضواء المنعكسة على صفحة الماء ، والحان كمان تنبعث من احد الزوارق التي انسابت على النيل، وضحكة خافتة لعلها من زوجة شابة او من خطيبة تصل الى اذني من الكازينو القريب .. ومن الشاطىء الاخر يأتي النسيم بانغام متقطعة لعلها من احدى العوامات ، تعلو حينا فارهف لها اذني ، وتضيع حينا مع النسمات .

وجدت نفسي ابحث عن المرآة ، واخذت انظر الى عيني ، عيني التي يريد امين زايد ان يستأصلها .. ان يحرمني منها .

وتخيلته بقامته المديدة وملامحه المكفهرة غير الانسانية وتلك الندوب الغائرة التي يمتلىء بها وجهه ، وفي يده مسمار طويل يريد ان يطعنني به

في عيني .. واسرعت بيدي الى عيني ، وكانما لاحميها .. ومسحت دمعة كانت قد تجمعت فيها .. ما الذي بين هذا الرجل وبين عيني .؟. لماذا يعاديها ؟ انني لم اقابله من قبل ، ولم اوجه اليه اساءة ، فلم كل هذه الكراهية السوداء التي تطل من عينيه وهو ينظر الي ...

وعاد شبحه من جديد يتراقص امام عيني ، وفي يده المسمار ...

ووجدت نفسي اكرر في حزم : لا .. لن اسمح له بالاعتداء على عيني..

احسست بعض الارتياح فاسندت راسي الى الوراء ، والنيل من خلال النافذة امامي يحتضن الانوار المنعكسة على سطحه قرب الشاطىء ، والموسيقى الخافتة المتقطعة ، .. تعلو احيانا فارهف لها اذني .. وتذوب احيانا مع النسمات الرقيقة .

الاربعاء ٦ يونيو :

مضى علي في المستشفى اربعة ايام ، كل يوم تتكشف لي جريمة امين زايد . حتى الطبيبة المعالجة تنضم الى كل الاخصائيين الذين كرروا من قبل اجراء عملية كشط فقط . انها مثلهم لا ترى ضرورة للاستئصال .

وازددت يقينا ان هناك جريمة تدبر لي لحرماني من بصري حينما وقع في يدي كتاب « طريقي في العلم » لاحدث مشاهير اخصائيي الرمد السوفييت وهو الدكتور فلادمير فيلاتوف ، وقرات ما كتبه عن الجلوكوما : يقول الدكتور فيلاتوف في الفصل الرابع من كتابه تحت عنوان « الجلوكوما وعلاجها » :

« واذا لم يكن المريض موضوعا تحت الملاحظة الدائمة ، ولا يتم فحصه طبقا للاساليب السالف ذكرها ، فان البيانات للتدخل الجراحي ، لا يحصل عليها الا في وقت متأخر جدا . ان مثل هذا الموقف من المريض غير المسموح به يكون مميتا ، حيث انه يؤدي الى التدهور المتصل في وظيفة الابصار يصل الى حد العمى الكامل » .

لقد تركت عشر شهور في الواحات ليس فقط محروما من الملاحظة والفحص ، بل تحت تأثير الشمس المحرقة والزوابع الرملية اثناء اعمال السخرة في الصحراء ..

ويؤكد فيلاتوف في الفقرة التالية ان انعدام الاختبار الكافي لضغط العين الداخلي ولوظيفة الابصار ، وانعدام العناية اللازمة قبل العملية يؤدي الى تأخر اجرائها . وان هذا عمل « يستحق اشد الادانة » ..

يقول في صفحتي ١٢٦ ، ١٢٧ :

« ان احـد الاساليب الخاطئة في علاج الجلوكوما هـو رفض اجراء العملية في الحالات المتقدمة حيث يكون مجال الابصار قد تناقص بدرجـة كبيرة ، مما قد يؤخذ كعلامة ضد اجراء العمنية . ان خطر فقد البصر بعد العملية في حالة التضاؤل الشديد في مجال الابصار ، هو خطر مبالغ فيه بلا شك .. ومن المحتمل ان تكـون هناك تعقيدات تعقب اجراء العملية فـي الحالات التي تكون فيها الجلوكوما متقدمة جدا ، وتكون تغييرات جوهرية قد حدثت في الاجهزة العصبية والدموية للعين .. ان هذا على اية حال لا يجب أن يكون سببا لرفض اجراء العملية ،خاصة فيحالة ما اذا كانت هناك عين واحدة تقوم بوظيفتها ، بل على العكس يجب ان يقودنا الى اجراء العملية بدقة أكثر ... »

ويستطرد اخصائي الرمد السوفيتي يقول « ان الخبرة القيمـة التي تجمعت لدى مدرستي عن العلاج بواسطة العملية الجراحية في حـالات الجلوكوما التي طال عليها الزمن كثيرا ، تؤكد ضرورة التدخل الجراحـي العاجل حتى في الحالات التي يكون مجال الابصار فيها محدودا للغاية » .

اوليست هذه السطور ادانة كاملة لامين زايد ؟ اولا تثبت كيف نمتـد ايدي المباحث الى اكبر معاهدنا العلاجية فتحول الاطباء الى متآمرين ؟ .

ان الطبيب الروسي يرفض الاستئصال رفضا باتا ، وحتى في حالة استمرار الجلوكوما بعد العملية ، فانه يصر على الاحتفاظ بالعين مـع فتح ثقب جانبي فيها اذا ما كان ذلك يريحها ويعيد الضغط الى حالته الطبيعية لمدة طويلة ، وامين زايد يصر على استئصال عيني ،دون ان يراها ، دون ان يفحصها ، دون ان يجري عملية الكشط .

وحينما دخل العنبر كان دخوله كفيـلا باثارة جو من الكآبة بدا واضحا على وجوه المرضى والتلميذات والحكيمة .

اقترب من سريري وقال في نبرته المتعجرفة : « انت حتعمل العمليـة بكره » .. وغلى الدم في عروقي غيظا وحقدا على ذلك السفاح فقلت له في لهجة حاولت ان تظل هادئة : يا دكتور دا موش ضرس ،دي عين ، والدكتور عصام زميلك قرر اجراء عملية كشط ، فحولني له لو سمحت » .

لم يدعني اكمل كلماتي ، بل انطلق يفرز من فمه قيحا من دمل الكراهية التي اصيب بها قلبه : « انا عارفكم ،كلكم غلباوية ، ما فيش غيـر استئصال العين .. عاجبك » قلت : « لن اسمح لك بحرماني من عيني طالما غيرك مـن الاطباء قرر ان هناك املا في انقاذها » فامسك باوراقي في عصبية وكتب

للمرة الثانية بالخط العريض « خروج من المستشفى » ...

عدت مرة اخرى الى سجن الصحراء دون علاج ، كل يوم يمر يسارع بي نحو العمى ، ان عيني اليمنى هي الاخرى يصيبها التهيج بتأثير العين المريضة ، والشمس الحارقة المستعبدة ، والرياح المحملة بالرمال تسارع في تنفيذ المؤامرة .. مؤامرة المباحث العامة ومخلبها امين زايد » ..

٢٠ سبتمبر

بعد ما يزيد على ثلاثة شهور على عودة الصحفي الشاب الى الواحات للمرة الثانية دون علاج استطعنا باساليب الضغط المختلفة ان نجبر الادارة على ترحيله مرة ثالثة ..

لقد حاولت المباحث العامة ان تحصل منه على تعهد بالموافقة على استئصال عينه ، كشرط لترحيله وابلغته ادارة السجن بذلك ، ولكنه رفض .. واخيرا اخذوه الى القاهرة ..

ان لدينا ما يدعونا الى الشك انهم قد احتجزوا الصحفي الشاب في سجن القاهرة ولم يذهبوا به الى المستشفى ، ولذلك وجهنا مذكرة بتوقيعنا جميعا مسجونين ومعتقلين ، فيما عدا المجموعة المنقسمة التي رفضت قيادتها التوقيع على المذكرة ، وارسلناها الى مدير المباحث العامة نطلب فيها ان يرسل الصحفي الشاب خطابا بخط يده يفيد انه في المستشفى وانه يتلقى العلاج المناسب ، والا فسناخذ كل ما من شأنه الدفاع عن بصر رفيقنا ... (١)

---

(١) حدث ما توقعناه بالفعل . اذ كان الصحفي المريض محتجزا في سجن القاهرة حيث ساوموه على كتابة استنكار للشيوعية مقابل علاج عينه ، وهروبا من وطأة الموقف فانه حاول الانتحار .

الفصل الخامس

من اجل الكلمة

الاعلام الحمراء مصنوعة من ورق الكريشه تغطي جدران الطرقات والزنازين في المنابر .. صور تعبيرية عن الصين معلقة في كل مكان، بعض الرفاق صنعوا من قماش استحضروه خصيصا ملابس صينية وارتدوها في ذلك اليوم . كانت « جاكته صان يان صان » والقبعة الصينية عريضة الحوافي احد الملامح الرئيسية للاحتفال بالذكرى الثالثة عشرةلانتصار ثورة الشعب الصيني العظيم .. اللافتات كتبت بالحروف العربية والصينية « عاش شعب الصين .. عاش الحزب الشيوعي الصيني .. عاشت الصداقة العربية الصينية » .

لقد بتنا نستعد للاحتفال باول اكتوبر ١٩٦٢ ، وانطلقت الحناجر ليلا تردد اغنية لشعب الصين .

الزهر اللي ملا البساتين
للشغيلة وللكادحين
الشاعر : طب والشمس دي طالعة لمين
المجموعة : طالعة تحيي شعب الصين
طالعة تحيي شعب الصين .

وفي الصباح الباكر فتحت الزنازين ، وانطلقنا نعد للاحتفال وللمباريات الرياضية .. ولكن ...

ساد الوجوم فجاة .. وتوقفت الحركة .. واخذ الكل ينظر في صمت ..

فمن دورة المياه التي تقع في اخر الطرقة خرج اربعة رفاق يحملون فيما بينهم رفيقا سقط مغشيا عليه وهو يغسل وجهه . سار الموكب الحزين الى زنزانة رقم (١٨) والعيون جميعا شاخصة ، والقلوب واجفة ، وجاء طبيبان من بين المعتقلين بسرعة .

لم تكن المسالة مجرد اغماء ناتج عن ارهاق او ما شابه ذلك بل نوبة قلبية حادة وفجائية اصابت زميلنا الرسام داود عزيز الذي قضى ثماني سنوات في السجن اعيد بعدها الى الواحات معتقلا في اكتوبر من عام ١٩٦١ .

حينما فاجأته النوبة القلبية سقط على الارض وانخفض ضغطه الى ٨٠ وصار النبض سريعا جدا ما بين ١٨٠ ، ٢٠٠ في الدقيقة تم تعذر قياس النبض وصاحب ذلك ازمة تنفسية شديدة واحساس بضيق شديد في الصدر ، وكرر المريض شعوره بالموت ، مع تنميل في الاطراف بدأ يغزو الجسم كله .

وبعد نصف ساعة زادت الحالة سوءا وفقد المريض القدرة على التعرف على من حوله . كما فقد القدرة على النطق ، ولم يعد في الامكان قياس النبض او الضغط ، واوشك المريض على الوفاة ، واستمرت الحالة هكذا مدة ساعتين او اكثر ، والاطباء المعتقلون يبذلون جهدا لانقاذ حياته . وجمع كل ما لدى المعتقلين من ادوية قد تفيد في تلك الحالة لعدم وجود صيدلية في السجن ، واعطوا المريض خلال تلك الفترة كميات هائلة وغير عادية من الادوية :

عشرين انبولا من الكورامين ١ سم ٣ منها ١٥ انبولا في الوريد .
خمسة انبولات فيريتول
عشرة انبولات جلوكوز ٢٥ ٪ ٢٥ سم٣
عشرة انبولات جولوكوز ٢٥ ٪ ٢٥ سم ٣
الف مليجرام فيتامين ب المركب
وغير ذلك من الادوية .

وفي بطء شديد بدات حالة المريض تتحسن فارتفع الضغط الى ٩٠ ثم الى ١١٠/٦٠ وظل النبض سريعا ، ١٢٠ في الدقيقة مع ارتفاع في درجة الحرارة ما بين ٣٨ ، ٣٩ .

تاجل الاحتفال بالعيد الثالث عشر لانتصار ثورة اكتوبر ، وتركزت الجهود في العناية بالمريض وفي الضغط على الادارة من اجل استدعاء طبيب حكومي ، فجاء بعد وقت طويل ورفض تسجيل حالة المريض في سجلات السجن الرسمية .

في المساء ما زال النبض سريعا ودرجة الحرارة مرتفعة ونقل المريض الى عنبر (١) لينام هناك على واحد من بضعة اسرة بالية وضعت في زنزانة ليستريح عليها المرضى وانتقل الاطباء المعتقلون ليعتنوا به هناك طوال الليل.

الساعة الثانية عشرة في منتصف الليل تنطلق صيحة استغاثة من زنزانة رقم (١٦) فاحد زملائنا وهو عبدالله كامل قد اصيب بهبوط مفاجيء في القلب .

وفي اضطراب وارتباك يجري البحث عن بقية من كورامين وجلوكوز ويسهر الى جوار المريض الجديد طبيب صيدلي .

ان المريض الجديد هو واحد من الحالات الكثيرة المكدسة دون علاج طوال هذه السنين الاربع ، فهو مصاب بشيء ما في معدته لا يدري احد ان كان قرحة او مرضا خبيثا .ان اقل طعام يتناوله كفيل بان يطرحه ارضا يتلوى ، وكلما جاء طبيب الى السجن ، وعرض عليه نظر اليه في صمت ثم كتب بجوار اسمه في السجلات : « صحته جيدة » .

صباح اليوم التالي ، ٢ اكتوبر ١٩٦٢ :

حالة الفنان داود عزيز في تحسين نسبي ، وما زال النبض سريعا ، ودرجة الحرارة مرتفعة . احتفال اول اكتوبر يبدا .. المسئول السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري يقف تحت صورة ماو ملقيا كلمة باسم اللجنة المركزية يوجه فيها التحية الى شعب الصين العظيم ، والى الحزب الشيوعي الصيني ويعدد الخبرات المكتسبة من كفاح هذا الحزب الشقيق ومعاركه الفذة سواء في مرحلة التحرير او في مرحلة بناء الصين الديمقراطية .

وشاعرنا يغني اغنية شعبنا لشعب الصين .

شعب كبير قوي خالص قام
كل دقيقة تمر صدام
ويخطي خطوة لقدام

يبذر في الارض الاحلام
يسقيها حكمة واقدام
ويسابق جري الايام
ويشيل دقايقها سنين
المجموعة : والزهر اللي ملا البساتين
للشغيلة وللكادحين .
الشاعر : طب والشمس دي طالعة لمين
المجموعة : طالعة تحيي شعب الصين
طالعة تحيي شعب الصين .

ومن المنفى البعيد . خلف الاسوار يقدم ابناء شعبنا باقات من فنهم الشعبي ، رقصات شعبية من الاسكندرية وريف الدلتا والصعيد ، اغان شعبية من الدلتا ومن الصعيد ومن الاحياء الشعبية في القاهرة والاسكندرية، كلها قدمت تحية لشعب الصين في ذلك اليوم .

لقد كان الحفل كله مظهرا نضاليا عظيما ، ان لم يكن فقط مجرد اعلام عن وجود الحزب الشيوعي المصري واصراره على البقاء بل كان اعلانا عن اننا جزء لا يتجزأ من جيش البروليتاريا العالمي ، انتصاراتها انتصارات لنا، ومنجزاتها منجزات لنا ، نغني اغانيها وننشد اناشيدها .

اننا طليعة شعب عملاق ، وكم هو ضئيل ذلك العدو الذي يواجه شعبنا ويواجهنا .. وهذا الذي يتصور انه قادر على القضاء على الشيوعية في مصر ، عليه ان يحاول القضاء على هذا الشعب — ان استطاع — اولا :

نحن كتيبة في جيش السلام العالمي .. نحن فصيلة في فرقة الصدام الاولى في معركة التقدم والتحرر ، ولئن كانت فصيلتنا قد هزمت في احدى الجولات ، فبقية الفرقة تزحف وتتقدم وزحفها هو زحفنا وتقدمها هو تقدمنا .. وكم هو قزم ذلك الذي يحاول ان يقف في وجه التقدم انه يقف في وجه التاريخ ، ولقد سقط كل الذين وقفوا في وجه التاريخ .

وكم معبرة هي تلك الاسطورة الصينية ، وكم نحفظها او نعي دلالاتها : ذلك الذي اراد ان يطفيء الشمس فلما صعد اليها احترق بها ، ولن يكون مصير الذين يحاولون ان يطفئوا شعلة التقدم والديمقراطية الا كمصير ذلك الذي اراد ان يطفيء الشمس .

سيحترقون بنارنا .
وفي هذا اليوم تجددت الدعوة للمقاومة تحت شعار « معركتنا مستمرة ضد التصفية : والنصر لنا . »
ويعلو صوت الشاعر :
قوم واتكلم
والارهاب للشعب معلم
فيه بتتعلم .. الاستبسال
واوعى تسلم
عمر النفس الحرة ما تفزع من الاهوال
عمر الحر ما يخشى مشانق
عايشه تعلق روس في حبال
عمر الدم ما يصبح ميه
عمر الحق ما يبقى ضلال
عمر ايدين الفجر ما تحضن غير ابطال
واللي مفكر
انه حيقدر
يخفي شعاع الشمس بكفه
بيفكرني بقصة قديمة كتير تنقال
مرة نعامة
حبت تهرب من صيادها
دفنت رأسها في وسط رمال
واللي في بالها
انه ما عادش خلاص حيطولها
لما رمتها سهام ونبال
سقطت فوق الارض قتيلة
كانت زيه تمام بتفكر
كانت عايشه في دنيا وعالم
كله خيال .

معركتنا مستمرة ، والطغيان يتهاوى ، وقد تلقى ضربته الاولى على ايدي الشعب السوري الذي انتصر على الاحماض التي اذيبت فيها جثة الشهيد فرج الله الحلو سكرتير الحزب الشيوعي اللبناني ، وحطم الافران الكهربية التي كان النظام قد استوردها من المانيا الغربية ليتخلص بها من جثث ضحاياه .

والشاعر يغني : قوم واتكلم
سيف الظلم سلاحه متلم
طيف الظلم طريقة مضلم (١)
والارهاب مهزوم بيسلم
واوعى تفكر
انه حايقدر
يوم يخنقنا
لا الاحماض حاتدوب فكره
ولا افران حاتأخر بكره
والارهاب بالموت يخلقنا .

معركتنا مستمرة ، ولئن كنا نتعذب اليوم لاننا ضمير شعبنا ، كما عذب « سيزيف » في الاسطورة لانه حمل نار المعرفة للبشر ، فهذه النار ستحرق الحاقدين عليها .

ويغني الشاعر :
دم « الحلو » (٢) أيدين مرفوعة
شايلة النار على كف قوية
واخده السر لناس ممنوعة
تعرف سر الناس ايه هي
جم اخدوها
زي ما خطفوا الناس خطفوها .
زي ما دبحوا الناس دبحوها

---

(١) مضلم بالدارجة المصرية تعني مظلم .
(٢) الحلو هو الرفيق فرج الله الحلو سكرتير عام الحزب الشيوعي اللبناني .

بصوا لقوها سهام مرفوعة
ثورة في ايد الناس مزروعة
من اسرار الناس مسقية
نار على قد ما تضني .. بتبني
نار على قد ما تقلع .. تزرع .

معركتنا مستمرة ، ضد التصفية ، وضد ادواتها ، وضد ظلال النظام داخل المعتقل الذين يقفون في تبجح يدافعون عن عدوان الناصرية على شعبنا .

لقد قرر الاطباء ان الفنان داود عزيز معرض للاصابة مرة اخرى بنفس النوبة القلبية وانها في المرة الثانية ستكون اقسى من سابقتها ، وسيكون من الصعب انقاذه في السجن ، بل سيكون ذلك مستحيلا ، وقرروا ان فرصته الوحيدة في الحياة هي في حياة هادئة وراحة كاملة وعناية طبية دائمة وهو ما لا يتوفر في السجن ، ولذلك رفع المعتقلون والمسجونون في سجن الواحات الخارجة مذكرة بهذا المعنى لرئيس الجمهورية مطالبين بالافراج عن داود عزيز ، ولكن قيادة المجموعة المنقسمة رفضت التوقيع على تلك المذكرة ،ورد مندوبها مفسرا اسباب الرفض قائلا : « اننا لا نطمئن الى طبيعة الافكار السياسية التي يحملها داود عزيز اذا ما افرج عنه » .

انهم يطلبون منه ان يتخلى عن فكره السياسي ويلقي به عند اقدام السلطة ، وان يسلم لها حتى يشاركوا في المطالبة له بالافراج الصحي . ان المصيلحي كبير رجال مكافحة الشيوعية يضع المعتقلين امام الاختيار بين الحياة والعقيدة ، ولكنه يعفي اولئك الذين يفرج عنهم صحيا وهم على عتبة الموت من هذا الاختيار ، انه يترك لهم عقيدتهم لانه قد سلبهم الحياة . ولكن قيادة هذه الجماعة اكثر عداء للعقيدة من المصيلحي نفسه ، انهم يطالبون بالعقيدة والحياة معا . انهم يسارعون في ذلك اليوم بارسال برقية تأييد لعبد الناصر حتى يؤكدوا له بشكل عملي انهم ليسوا طرفا في تلك المعركة التي يخوضها المعارضون لعبد الناصر من اجل انقاذ حياة واحد من المعتقلين .

ويرميهم الشاعر بكلماته النارية .

دنـا لو ادفع
كـل حياتي
لاجل تعيش الكلمة الحرة
دايمـا حرة
زي الشمس الحلوة ما تسطع
ولا انـي اركـع
وافضل اطاطي .. اطاطي .. اطاطي
لما اتمرغ في المستنقع
حد يقيد للظلم شموعه
حد بيحرق بيده ربيعه
حد بيحفر قبره بايده
حد بياخذ دم شهيده
يعمل منه رايات للقاتل . (١)

معركتنا مستمرة ، ولنا فيها وحدنا ، واصوات شهدائنا هي معزوفتنا التي نسير عليها الى النصر ، واسماء شهدائنـا هي الرايات التي نقاتل على شرفها .

ويغني الشاعر :
صوت شعبان بيصحي شروقنا
صوت عثمان اعلام من فوقنا
صوت مفتاح (٢) مفتاح لطريقنا .
معركتنا مستمرة
وياتي اول نوفمبر : ذكرى ثورة الجزائر

---

(١) اشارة الى الشهيد شهدي عطيه الذي قتل في الاوردي وحينما مثل زملاؤه امام النيابة ، جعلوا همهم ان يسجلوا في محضر التحقيق تاييدهم الكامل لعبد الناصر وبرئته مـن دم شهدي .

(٢) الشهيد عبدالقادر مفتاح مدرس في بني سويف ، رحل الى الفيـوم حيـث وضـع امام الاختيار ، فكان رده اضراب عن الطعام هو ورفاقه احتجاجا على وضعهم هناك ، حـاول رجال المباحث تغذيته قسرا عنه اثناء اضرابه فمات اثناء مقاومته لمحاولاتهم .

ويأتي ٥ نوفمبر : ذكرى الانذار السوفيتي للمعتدين في بور سعيد
ويأتي ٧ نوفمبر : ذكرى ثورة اكتوبر العظمى

ايام كلها اعياد تؤكد فيها باحتفالاتنا السياسية اننا باقون على طريقنا، ثابتون على مبادئنا . ويرتفع الموال الريفي مرسلا التحية لثوار اكتوبر لاصدقائنا بناة اول دولة للعمال والفلاحين .

حمامة .. جميلة
بتزرع بساتين
تهني .. تغني
في عيد ثورة لينين

معركتنا مستمرة .. وزميلنا فتحي خليل عبد الفتاح الصحفي الشاب يسرب الينا في الثامن عشر من نوفمبر رسالة : لقد مضى على ترحيله من سجن الواحات شهران ، قضاهما في سجن القاهرة .. ذهبوا به الى المستشفى الجامعي ليستقبله نفس الطبيب المتواطىء مع المباحث العامة . وليكتب مرة اخرى امرا باعادته الى السجن ، ومن يومها وهو ملقى في سجن القاهرة حيث لا علاج ولا رعاية ، والزنزانة الرطبة المظلمة تمتص نور عينيه كل لحظة وكل دقيقة .. ويضطر الى الاضراب عن الطعام .. الى ان يشتري علاجا لعينيه بعشرة ايام بلا طعام ..

لقد فاحت رائحة المؤامرة على بصر فتحي عبدالفتاح وعرف شعبنا كله قصته ، وعرض نقيب الصحفيين على الحكومة ان تتولى النقابة علاجه على نفقتها ، ونصح البعض للحكومة وهي تستجدي عطف الجماهير لاتحادها الاشتراكي الذي تزمع انشاءه بان تتراجع .

وفي نفس الوقت كان رفاق خمسة في سجن الواحات قد اضربوا من الطعام ، تأييدا لفتي عبد الفتاح ، وتأييدا لزميلاتنا الخمس عشرة اللاتي مضى على اعتقالهن الان اربع سنوات فاضربن عن الطعام احتجاجا على استمرار اعتقالهن ، ولكن يعلن للراي العام العالمي ان النظام الذي ملأ الدنيا ضجيجا لانه اختار سيدة لمنصب الوزارة يبقي خلف الاسوار خمس عشرة مناضلة نسائية قامت على اكتافهن الحركة النسائية الحديثة في مصر .

بينهن : انجي افلاطون عضو المجلس القومي للسلام .

وبينهن : فاطمة زكي وثريا ابراهيم ، ثريا حبش ، نوال الحملاوي ، ساد بطرس قائدات حركة المقاومة الشعبية النسائية ايام العدوان .

وبينهن : الصحفية اميمة ابو النصر التي حملت السلاح في المواقع الامامية في القنال طوال فترة العدوان وكان قلمها دائما في خدمة قضايا السلم والنضال الوطني على صفحات المساء : وبينهن : شاعرة الحركة النسائية المصرية زينات الصباغ ومعها طفلها طارق يعيش ايام طفولته الاولى مع امه في زنزانة مغلقة في سجن القناطر .

معركتنا مستمرة : ومع عبد الناصر في ٢٣ ديسمبر ياتينا من زميلنا الصحفي فتحي عبد الفتاح ما يفيد انه قد انتصر في معركة « بصرك او عقيدتك » وانه بعد عام من نضاله ونضالنا من اجل عينيه قد اجبرهم باضرابه عن الطعام على نقله الى المستشفى لاجراء العملية .

وكان نصرا مع عيد النصر ، فلقد دفعنا الموت عن اسماعيل عبد الحكيم وداود عزيز واستطعنا ان نرد عن بصر فتحي عبد الفتاح المخالب التي كانت تمتد لتختطفه ، ولم تكن وحدنا يوم حققنا النصر على المعتدين ولم تكن وحدنا في المعركة ضد الموت والعمى .

كان معنا شعبنا العظيم الذي حمل شهداءنا بين ذراعيه حينما سقطوا دفاعا عن حريته ودستوره ، وحينما سقطوا على كوبري عباس وحينما سقطوا برصاص الانجليز في ميدان الاسماعيلية بالقاهرة وامام مبنى القيادة الانجليزية بالاسكندرية عام ١٩٤٦ ، وحينما سقطوا برصاص « ايرسكن » في التل الكبير والاسماعيلية عام ١٩٥٢ ، وحينما سقطوا في بور سعيد عام ١٩٥٦ .

كن معنا فلاحونا ، جيش الشهيد عناني ، جيش الثورة وقد شهدوا دفاعنا المستميت عنهم ، امام محكمة المنصورة ، وعلى صفحات كتبنا ونشراتنا .

معنا عمالنا الذين عشنا معهم نضالهم يوما بيوم وساعة بساعة .

معنا كل الديمقراطيين في بلدنا وهم يروننا نخوض في بطولة اعتى معركة ضد الاستبداد ، وضد دكتاتورية الحزب الواحد ، من اجل دستور ديمقراطي وحياة نيابية .

معنا كل الشعوب العربية وقد خبرت مواقفنا الحازمة دفاعا عن

شعب الجزائر وشعب العراق وشعب الاردن وشعب سوريا دفاعا عن كل معارك التحرر العربي .

معنا كل الاحزاب الشيوعية في العالم ، وقرارها في مؤتمر موسكو ١٩٦٠ بان يضع كل حزب قضيتنا في جدول اعماله .

معنا بروليتاريا العالم التي لن تسكت على تلك السياسة العربية المتبعة ضد عمال مصر وضد طليعتها الشيوعية وقادتها النقابيين .

معنا كل قوى السلام في العالم التي خبرت نضالنا الحاسم ضد التجارب النوَوية وضد الاحلاف والقواعد العسكرية .

معنا كل انصار حقوق الانسان وقد شهدوا نضالنا العتيد دفاعا عن المناضلين الجزائريين .. عن جميلة بوحيرد وزميلاتها ، عن جوموكنياتا وعن جليزوس .

معنا ضمير الانسانية الجديدة ، معنا كل انصار الكلمة ، مع كل المدافعين عن الفكرة معنا كل الاقلام التي تؤمن بالانسان ..

ويأتي العام الجديد : عام ١٩٦٣ .. وفي جوف الصحراء تنبض القلوب ابتهاجا به ، وتلتهب تلك البقعة المهجورة القاحلة ، بالفرحة حينما تخترق القضبان بطاقات تهنئة بالعام الجديد ، قادمة من بعيد من جماعة العفو العام بكنيسة الشام بلندن :

لسنا وحدنا ومعنا كل هذه الارادات الشريفة ، فمن ارادتنا ومن ارادة كل شريف في العالم تتجمع خيوط فجرنا .. خيوط نارية من لهيب اصرارنا ، خيوط نورية من نبل قضيتنا .

ويغني شاعرنا في مطلع العام الجديد :
نار على قد ما تضني .. بتبني
نار على قد ما تقلع ... تزرع
وابقى شايفها
فوق شفايفها
بسمة بتحضن قلبي بطيفها
بسمة بتجري في قلب المدفع
دايما تزرع

ارض الحر سلام ومحـبة
قوم والفجر خيوطه بتكبر
تكبر ... تكبر
وبتتجمـع
جوه عيون ايامنـا الصعبة
قوم وانا شايف الفجر بيطلع
نوره بيملأ طريق اعلامنا
حبه .. بحبه ..

معركتنا مستمرة ، ونداؤنا ، حارا نرفعه من جوف الصحراء الـى كل شريف في العالم ان يقف الى جانبنا .

من اجل هزيمة الجوع والحرمان والمنفى
من اجل هزيمة الموت المفروض علينا في الواحات
من اجل سحق المحاولة لتمزيق النفس البشرية
من اجل سحق سياسة « حياتك او عقيدتك »
من اجل هزيمة محرقة الفكر والضمير .
من اجل ان تسترد الانسانية حريتها وكرامتها
بحرية الكلمـة
وكرامة الكلمـة ..
....

الفهرس

الجزء الثاني

الجزء الثالث

الجزء السادس

الجزء السابع

هذا الكتاب

الجانب الاكبر من هذا الكتاب كتب في مرحلة الارهاب والمعتقلات .. كانت هناك مجموعة من الرفاق الشباب يتلقفون كل فصل تتم كتابته في المعتقلات ليتولوا اعادة كتابته على ورق لف السجائر بخط دقيق للغاية .. وحينما سطرت اخر كلمات في الكتاب تولت مجموعة اخرى نسخه واعداده وتولى احد الرفاق الفنانين رسم الغلاف له . ووضع للتداول بين الرفاقكجزء من عملية التعبئة والتحصين ضد محاولات التصفية السياسية .. ثم هربت هذه النسخة الى الخارج وبقيت مدفونة في مخبأ امين حتى تم الافراج عن الشيوعيين المصريين في مايو (أيار) ١٩٦٤ .

هذه النسخة الخطية محفوظة الان بعناية كوثيقة تاريخية وهي التي تم على اساسها طبع هذا الكتاب .. ثم انتظر الكتاب عشر سنوات اخرى حتى ينشر !

ولقد امكن للمخطوط الاصلي ان يخرج من مصر منذ ثلاث سنوات .. وانتظر الكاتب فترة اخرى رغم الحاح الكثيرين بنشره .. فقد كان يشتم في مصر رائحة حملة تعد ضد عبد الناصر تبريرا لعملية ارتداد واسعة عن كل ما انجز في فترة حكمه .. ولم يكن يريد لهذا الكتاب ان يستخدم وقودا لتلك الحملة المغرضة ..

وفي مطلع عام ١٩٧٤ بلغت الحملة ضد عبد الناصر وعهده اولى قممها .. وكان بين القضايا التي تناولتها تلك الحملة عمليات التعذيب التي مورست في السجون والمعتقلات .. وبدأ بعض الكتاب اليمينيين ، والمعروفين بتاريخهم في التعاون مع اكثر الفئات تخلفا ورجعية في بلادنا ، بدأ هؤلاء الكتاب يسرقون تاريخ الشيوعيين ، وينصبون انفسهم مؤرخين لما اصاب الشيوعيين من اضطهاد وتنكيل ..

كذلك فان بعض الكتاب الوطنين قد بدأوا يتناولون ما اصاب الشيوعيين في تلك الفترة دون ان يكون لديهم المام كامل بحقيقة ما حدث سوى بعض ما سمعوه .

وعند هذه النقطة كان القرار بانه لا بد من ان يصدر هذا الكتاب !

الثمن ٧٥٠ ق.ل او ما يعادلها